

الرَّقْصُ عَلَى طُيُولِ مِصْرِيَّةٍ

ملحمة نصر أكتوبر في عيون محارب

رواية

فؤاد مجازي

دار الطائفة



إِهْتَدَاءٌ

إِلَى الدِّمَاءِ الشَّهِيدَةِ
الَّتِي أَهْدَيْنَا مُعْجَزَةَ النِّصْرِ
سَنَ الْجَلِّ الْخُرَيْتِيَّةِ وَالْعَدْلِ
فَوْلَدُ عِجَازِي



بعد ظهر السادس من أكتوبر البشير عام 1973، وبالتحديد فى تمام الساعة الثانية وخمس دقائق، كان جندي الشرطة العسكرية، ينظم المرور المتجه من الضفة الغربية لقناة السويس، إلى الضفة الشرقية، مشيراً يميناً ناحية الشرق.

وظل هذا الجندي، يؤدي عمله، رغم زئير الطائرات فوقه، وصفير دانات المدافع، تمرق بجانبه وفوقه، ودوى انفجارها، ورغم الغبار الذي تثيره الدبابات، وهى تدمدم في غضب مكتوم، حوله، بينما طلقات الرصاص، تنطلق - حتى هذه الساعة - من الغرب بغزارة .

وحقيقة، لم أكن أدري، هل هو جندي واحد، ظل واقفاً على هذا النحو حتى بعد أن غابت الشمس، أم أن الجندي، كان يسقط، ويحل محله آخر، دون أن يلحظ أحد. تطلع من زجاج نافذة العربة . طالعته الرمال، بتموجاتها، حتى تماسها مع قوس الأفق، تنهد، وتساءل : هل حقاً، تخلت الرمال عن هدوئها، وماجت بالحركة والغليان.

انحدرت الطريق . صعدت ثانية . فى الواطى، إلي يساره، قبل مدخل العريش بقليل، طالعته مصاطب مقابر، ترتفع وتنخفض، تبعاً لتموجات الأرض الرملية . وقد نمت بينها أعشاب قليلة، داكنة، لم تطغ علي لون

الرمال التي بدت صفراء، مشبعة بلون رمادي، ولفتت نظره كثرة المقابر، مع أن العريش مدينة صغيرة .

ارتفعت العربة مع الطريق .. لمح على البعد، مياه البحر، هادئة، ترفرف فوقها النوارس البيضاء، بأجنحتها، هاشة .

كانت الطائرات، تحرك أجنحتها يميناً وشمالاً، كأنها تحييهم، فصاح الجنود مهللين، وقد غادرتهم لحظات القلق، التي عمتهم منذ دقائق، حين عبرت الطائرات القناة.. وسرعان ما دوت مدفعيتنا من الغرب .. باتجاه السائر الترابي والحصون الحجرية لخط بارليف.

لكزه جندي، ليختبئ في حفرة، أو خلف مصطبة، وهو المدني .. إلا أنه لم يفعل، وقد شده المشهد .. آلاف من الجنود، لا يدري كيف انشقت عنهم المصاطب الرملية، يحملون قوارب مطاطية، ألغوا بها علي صفحة مياه القناة . سرت قشعيرة لطيفة في الماء، وحين عملت المجاديف، رجف قلبه بفرحه مبهمه، وتعلقت عيناه، بقطرات الماء، تنساب من الحواف العريضة للمجاديف، كفراشات بيضاء شفيفة، ترقص وتتقافز في الماء.

ألقاه أحدهم جانباً في قوة، وقع على ظهره، هالته السماء المغطاة بآلاف القذائف الحمراء، وقد استدارت الشمس، وأصبحت في ظهر جنودنا، عندئذ قال في نفسه : الشمس في عين العدو.

دخلت العربة شارع العريش الرئيس، حيث مركز المدينة، وحيث تقوم بعد المنتصف تقريباً، مبان جديدة للمحافظة، وللمصالح الحكومية المختلفة، ويتعامد الشارع في نهايته مع الشارع الموازي للبحر .

قبل أن يصعدا فى الشارع، وحيث المقاهى البلدية، قال السائق :

- نركن قليلا .

كان ذراعه مطوَّحًا خلف مقعده، لامست أصابعه شتلات الخوخ، قال :

- لا وقت لدينا .

وأشار له، ليسلك الطريق الدائرة، حول العريش، طالعتهم أشجار الزيتون، بجذوعها التى تميل إلى القصر، وأوراقها النضرة، فى لونها الأقرب، لما نسميه أخضر زيتى .

ضغط السائق بقوة على دواسة الوقود . ولكنه اضطر لتخفيف الضغط، فقد التوت الطريق، وضافت . على جانبيها نهضت أشجار اللوز القصيرة، الكستنائية، وأطول منها قليلا أشجار المانجو بأوراقها العريضة، واخضرارها البهيج، ولاحت على البعد أشجار البرقوق، وتفصل بين المساحات المزروعة بالأشجار، أسوجة من التين الشوكي، اختفت ثمراته الحمراء، بين أوراق غليظة، باهتة الاخضرار، تنفر منها أشواك متحدية .

لكم اشتقنا إلى زرع، يرطب هواء الصحراء الجاف، اللاهب وقت الظهيرة، فقط ثلة من أشجار الخروج، كانت بالقرب من شريط السكة الحديدية للعريش، رأفت بحالنا، حين كنا نهرع إليها، فى أية فرصة نقتنصها ونسلل من معسكرنا القريب .

وفي هذا الصباح، من الخامس من يونيو 67، ولم نكن قد انتهينا من فطورنا، ولم تكن الشمس قد شحذت همتها، فى تسليط أشعتها، فكر بعضنا، الخالى من الخدمة، فى تدخين سيجارة عند الخروج، وحيث يحلو الكلام، ولم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة، حين لمح جندي

المدفعية المضادة للطائرات، من حفرتة جوارنا، طائرتي مستير، تحومان،
استعد للضرب . عاجله ضابطه :

- لا تضرب

قال :

- إسرائيليتان

- لا توجد أوامر .

نقرت إحدى الطائرتين مخزن الوقود، والأخرى حملة السيارات .
وبينما تصاعد الدخان أسود ناعقا، عادت الطائرتان، ونقرتا حفر المدفعية .
التقطت جهازى اللاسلكى، وأسرعت إلي زملائي أفراد الإشارة، كان
ضابطنا، يسأل فى بوق تليفونه الميداني :

- هل قامت الحرب .. ؟!

نزلت العربة بقوة، مع انحدار الطريق، حتى كادت جبهته تصطدم
بزجاج العربة الأمامى التفت إلى السائق فى ضيق . سرعان ما صعدت
العربة، فأمسك كلماته الغاضبة.

تلفت إلي الخلف، من نافذة العربة إلى يمينه . رأى أشجار الزيتون
تتباعد . أحس، ولا يدري كيف، أنهما غادرا وادي العريش، وتحقق من
صدق إحساسه، حين نبهه السائق :

- الوادي الأخضر .. نقف .. ؟

لم يرد . وقد أدهشته كثافة الأشجار، خاصة المانجو والخوخ، ولاح
علي البعد، سور عال من الأسلاك .

تفحص بعينه الأرض على الجانبين . جُرفت طبقة رملية بعمق متر،

وأحياناً بعمق مترين أو أكثر، ونمت فى الأغوار، المربعة، والمستطيلة أحياناً، أشجار اليوسفي والخوخ والمانجو، والبرقوق، وبين الأغوار نهضت تلال رملية . حمل الهواء لهما رائحة البحر . وطالعا صفحته الزرقاء الفيروزية حين صعدت العربة الطريق . استوت الطريق، فأبطأ السائق من سرعته، ليعطيه فرصة ليحدد وجهته، ولما لم يفعل، انحرف السائق بالعربة يمينا مع الطريق، متفادياً دخول رفع، ومبتعداً عن البحر . وكان ما زال يلوك فى ذهنه ما تعنيه كثافة الأشجار التى ازدادت .

فجأة توقف السائق، انتبه، فإذا هما لا تفصلهما عن السور سوى أمتار قليلة، تتبع بناظره امتداد السور، فاصلاً مصر عن فلسطين المحتلة . تأمل السور بأسلاكه الشبكية، كشباك العنكبوت، وعلوه الذي قدره بما يزيد على ثلاثة أمتار . ولفت انتباهه، خلف الأسلاك، أشجار متناثرة، رجح أن تكون أكاسيا وسيبانا .

كان برج المراقبة قريباً من هنا . لا يدري كيف وصل إلى هنا مع سرية الإشارة، بعد تدمير الحملة فى معسكره قرب العريش، كانت الأوامر أن تتقدم . تشعلق مع زملائه فى عربات «زل» مارة تارة، ومشوا تارة أخرى . طلب جندي البرج ماءً . حملته إليه . رأينا تجمعاً من العربات المدرعة . أسرع جندي المراقبة إلى تليفونه الميداني، وأبلغ عما يراه أمامه فى مستعمرة الدنجور .

رأينا دبابات، يبدو أنها خرجت من مرابض، مختفية بين الأشجار، حمل الهواء إلينا دخانها.

أسرع الجندي يصرخ فى البوق :

- تشكيل من الدبابات فى وضع هجوم . الطابور يتجه ناحية الحدود .
نزلت مسرعًا . ضبقت جهازى اللاسلكى ، على تردد قيادة اللواء ،
وشرعت فى إبلاغ إشارة جندي المراقبة . صرخ بى ضابط الإشارة :

- هل هذا عملك .. ؟

أسقط فى يدي ، فاستمر زاعقا :

أترك جهازك الآن ، واذهب مع زميلك ، لتتبع سلك التليفون .. للكشف
عن أعطال .

أحضر زميلي بنسة وشريطًا لاصقًا ، ولفّة من السلك ، ولم نكد نغادر ،
حتى لاحقتنا القذائف . هرولنا وانبطحنا أرضًا ، ثم نهضنا نبحث عن ملجأ ،
وفي اللهوجة ، اختفى زميلي ، لا أدري هل أصيب ، أم وجد ملجأ . كل ما
أدريه ، حين رفعت رأسى ذات مرة ، وقدخف القصف قليلًا ، هو تساؤلي
فيما يتوجب علي عمله ، هل أنضم إلي الزملاء عند البرج ، أم استمر فى
تتبع سلك التليفون . لم تطل حيرتي .. وفيما أقترّب من البرج ، لمحت
جندي المراقبة معلقًا من قدمه ، وجسده مدلى .. نظرت حولي . حجرة
واطئة علي طريق فرعى ، إلى خروبة . أسرعت إليها ، تلاحقني القذائف ،
وأصوات المجنرات .

التفت إلى السائق :

- استدر .

لماذا لم أتبع السلك . أليس من الجائز أن عطبًا أصابه ، تسبب فى

عدم وصول إشارة جندي المراقبة، وكيف أتبعه وسط قذائف الدبابات، وطلقات الرصاص، كان عليك العودة إلى موقع البرج . لقد قصف الموقع . ربما كان هناك من ظل حيًا، وفي حاجة إلي مساعدتك، وربما لقيت ضابط الإشارة، وعلمت منه الموقف . لا .. كان يجب أن أتبع السلك، وأكشف عليه.

وقف السائق فجأة . ارتجت العربة، وارتج معها، تطلع فى غيظ إليه، فأشار أمامه . بوابة رفح، علي بعد أمتار قليلة . طالع السور الممتد بحذائها من الجانبين، وقد علقت بأسلاكه، بعض طيور البلشون، أتراها لم تميز الأسلاك، بسبب سرعتها فى الطيران، أم بسبب إرهاقها، فلم تستطع أن تحيد عنها حين رأتها فى اللحظة الأخيرة ..؟!

كانت رقابها الطويلة، مائلة قليلاً إلي جانب . دون أن يفارقها كبريائها . وبانت ألوانها المتناغمة، التى تضاهي ألوان ريش الطاووس، أقل زهواً، ربما بفعل ما أصابها . وربما بفعل دكنة غير مرئية، تشيع فى الجو .

أشار للسائق، باتجاه مبني صغير، وسط الأغوار، بالقرب من البحر . بينما يلف السائق عجلة القيادة، تعلقت عيناه، بطيور البلشون . استشعر وخزات الأسلاك الشائكة فى أجسادها، وقد تساقطت قطرات من دمها علي الزوايا الحديدية المشدودة بينها الأسلاك . ومع ذلك بدت عفية، وخيل إليه أنها من الممكن أن تطير فى أية لحظة .



خرج من المبنى، يتبعه سيناويان . مشى باتجاه طريق ضيقة، موازية للبحر. تأمل التلال الرملية المرتفعة والمنخفضة، وقد نمت في الأغوار بينها، أشجار الموالح . أبصر غورا متسعاً، قصده، وربت يمينه، علي ما يحمله من شتلات خوخ، وقد لفها في جريدة قديمة، حماية لجذورها من أشعة الشمس .

لحظ أن السائق يتبعه . التفت إليه، وأشار إلي المبنى قائلاً :
- تستطيع الانتظار هناك لو أردت .

نفي بهزة من رأسه . وفي مكان ظليل، جلسوا جميعاً . شرع السيناويان يعدان الشاي . طاف بنظره علي الأغوار من حوله . طالعه أشجار اليوسفي والمانجو والتفاح والخوخ، تلامس الساحل، كأنها تغار من النخيل، التي اقتربت بعض أشجارها منه، ولمح علي البعد أكواماً خرسانية، بينها فجوات سوداء، كأنها رؤوس أشباح، ألهبتهيا سياط الشمس، وتجاهد في الإفلات من قبضة الانقراض .

وتذكر كلمة الرئيس السادات، حين أراد الإسرائيليون الاحتفاظ بمستعمرة ياميت، مع أنها تقع داخل حدودنا، فقال «يحرثوها» فنشروا الكلمة في جرائدهم «يحرثوها» . استقرت عيناه علي الغور الخالي من

الشجر، وأخذ يتصاعد ببصره علي جوانبه، كأنه يقيس أطوالها . قال أحد
السيناويين :

- ستطول المياه الجوفية .

أوماً برأسه ناحية البحر، فاستمر الرجل :
-عذبة

لم يعلق، وتساءل فى نفسه : قرية من الشاطئ ولا تتأثر بملوحة
مياه البحر ..!! ناوله الآخر، كوبًا من الشاي، أمسكه بين راحتيه، لسعته
السخونة، وضعه بجانبه، وإذا امرأة في عباءة سوداء، فضفاضة، تخطو
نحوهم . ثقلت قدمها، تبسم موزع الشاي وقال :
- أقدمي .. ليسا غربيين .

بان عليها التردد، وهي تستطلعهما، فاستمر الرجل :
- الباشمهندس حمدي ..

توقف وقد تعلقت عيناه به، فأكمل حمدي :
- أبو زيد

ظلت عينا الرجل معلقتين به، فاستدرك :

- آه .. الأخ سعد الدري .. معنا علي «الجيب» .

أخذت كوب الشاي من اليد الممدودة، وجلست علي استحياء بالقرب
منهم . قال موزع الشاي :

- ندا ستساعد فى أرض الخوخ .

تبسم سعد الدري، وهو يتفحصها . تفادت وخز النظرات، مشيرة إلي
الغور قائلة:

- الأرض جاهزة ..

رجح حمدي بضاضة جسدها، رغم عدم إفصاح العباءة . قال :
- المهم الجذور تعض فى الأرض .

حانت منه التفاتة إلي سعد . وجده يضفر نظراته مع الخطوط الطولية
الحمراء، المشغولة علي صدرها، وعند الوسط خطوط عرضية مضفرة
معها فتلة ذهبية . صعد بنظراته إلي أذنيها الدقيقتين، تدلي منهما قرط فى
لون سن الفيل، وتلكأت نظراته نازلة علي رقبتها الطويلة، فاستوقفها عقد
من نفس اللون والخامة، عاقها عن التلكؤ فوق ما ظهر من نحرها العاجى
الأبيض .

طالعتة عيناها الواسعتان المتسائلتان، فسقط بصره على يدها الملتفة
حول الكوب. لحظ بضاضة عقل الأصابع، فتيقن من ترجيحه، وأكد
لنفسه أن العباءة، لن تخذعه عن حقيقتها . رفع رأسه ناحية سعد، فالتقت
عيونهما فى ومضة خاطفة، أفصحت له عن إدراكه لحقيقتها مثله . نهض
حمدي فجأة وقال :

- شربنا الشاي وحمدنا الله .

حمل أحد السيناويين شتلات الخوخ، ووضع الآخر فأسا علي
كتفه، وفى أثرهما ندا، بينما مال علي بجذعه علي شجرة خلفه، يلاحقها
ببصره ..

خطا حمدي وهو يتساءل .. هل يصح الغرس .. وتنمو الشتلات ..
أم يصاب بالخزي ويكون مادة للتندر تلوكها أفواههم . الأفندي المتعلم،
القادم من الوادي .. وهناك فى محطة التجارب .. سوف تكون خيبته
بجلاجل .

كان السؤال الذى يتردد علي الألسنة فى محطة التجارب الزراعية . لماذا خوخ سيناء طرى، ملئ بالماء . إذا أمسكت حبةً منه نرعت نصفها بسهولة عن نواتها، كحبة المشمس الناضجة، ويسمونه «خوخ فرك». أما خوخ الوادي فناشف، متخشب، تنزع لحمه عن نواته، بصعوبة تتعب الأسنان أحياناً . ولكن رغم هذه الميزة المحببة فى خوخ سيناء، يفسد بسرعة ولا يتحمل النقل، أو الاحتفاظ به فى ثلاجة .

فكر حمدي أن يهجن الخوخ السيناوي مع الخوخ البلدي . يريد أن يحافظ على حلاوة السيناوي مع إكسابه شيئاً من صلابة البلدي، فيخفف ماؤه، ولا يعطب بسرعة. عرض مذكرة بذلك علي رئيسه، لتكون موضوع بحثه .

تصفح الرئيس المذكرة بسرعة، وقال متهكماً :

- بعد أن ينقشع الضباب .. !!

نشعت النكتة التى أوماً إليها رئيسه فى ذهنه .

كان السادات، قد وعد أن هذا العام عام تحرير سيناء من الإسرائيليين، وحين انقضي العام دون أن يفعل، تعلل فى حديث له، أن الضباب غطي قناة السويس فى موعد الهجوم، مما عاق قواتنا عن العمل، وشاعت علي الألسنة نكتة تقول : ذهب السادات إلي منزله فسأل أحد أبنائه عن الذي حضر، فأجابه آخر : ضا بابا .

وحمدي ينصرف، حاول رئيسه التخفيف من وقع تهكمه .

- حتى لو وافقتك .. كيف نحضر خوخ سيناء .. ؟!

لم ينبس حمدي، ربما الرجل عنده حق، كيف يحصلون علي شجيرات، أو شتلات من سيناء، والجنود الإسرائيليون يدلون بالسنائير

ود لو يتخلص من مطاوعتها . لا شك تقصد الشاب الذى تحدثت عن زيارته، عرضاً، لرئيستها صفية صبور . اشتهت من أحاديثها رائحة إعجاب . ولم يخف نفوره، عندما علم أنه ليس حاصلًا على مؤهل عال مثلها . هل تريد الماكرة، أن تحدثه بما أريد، لتحل مشكلتي، أم لتوثق علاقتي به فأقع فى حرج إذا ما طلب مني يدها . بينما الأيام تمر وهو فى تساؤلاته، فوجئ بزيارة رئيستها ومعها شقيقها .

- الأستاذ صفوت .

سلم بيد حذرة .. ولم يتب للفة ورق جرائد يحملها معه . عندما رأى ما حوته، جرفه الحماس، وسلم ثانية بحرارة، ود، معها، لو يحتضنه، وسرعان ما ألجم نفسه.. وجلس غير مصدق .. علي أيه حال يشكر، ولكنى لم ألزم بشئ .

وفي الصباح لم يكديخطو داخل المحطة، حتى صاح :

- أين أنتم يا أوغاد .. ؟!

تحلقوا جميعا حوله، وذهبوا فى زفة إلي المدير، ما أن رأى شتلات الخوخ، حتى قال :

- يشرع فى التنفيذ فوراً

تأمل حمدي الشتلات وقد غرست فى الغور، دعا الله فى سره أن يشتد عودها . سأل :

- هل ما بقى يكفى غور خروبة .

ردت ندا :

- ويزيد

أشار إلي سعد الدري، ليحضر العربية، وقال :

- بنا

فى الطريق إلى غور خروبة، وبالقرب من مدرسة علي الطريق، استشعر حمدي، ولا يدري كيف، رهبة شملت كيانه، أشار لسعد بالتمهل .. ثم ما لبث أن طلب منه التوقف أمام المدرسة . فى باحة أمامها، طالعت زهور قرنفلية حمراء، زادت أشعة الشمس المسكوبة يناعة . رفع السلك العلوي الذى يحد الباحة، وانحني بجذعه إلى الداخل، محاذراً أن يمس السلك، تحت قدمه المرفوعة وهو يعبر .

عدة فصول، هي كل المدرسة، لحظ من طريقة بنائها، وحادثة طلائها، أنها أضيفت لحجرة أقدم، واطئة قليلاً .

لم أكد ألبجأ إليها، حتى توافد بعض الزملاء من موقع برج المراقبة تلاحقهم دانات الدبابات، نتوقع انهيار الحجرة فى كل ثانية . خرج أحدها إلى الباحة، عاجلته شظية فرقده مكانه . هذه الحجرة تقع على رأس باحة خلفها مبني، أطلقوا عليه مركز الإمداد بالرجال . كانت أول مرة أسمع فيها هذا التعبير، أخبرني ضابط صف، أنه عندما تبدأ المعارك، تفقد الوحدات بعضاً من مقاتليها، فيتم استعواضهم من هذا المركز . وهكذا تظل الوحدة بكامل قوتها طوال الحرب .

وعندما لاح تساؤل فى عيني، أردف، طبعافيه من كل الأسلحة، مدفعية وإشارة ومشاة .. تبادل والزملاء، النظرات، وقد اقشعرت أجسادنا . ضابط الصف يتكلم، كأنهم يستغيضون ترايزة بأخري، أو كرسياً بآخر . بعد تدمير موقعنا القريب، أسرنا نحتمي بالمركز، وجدنا الدبابات الإسرائيلية قد حاصرتة بالقذائف من بعيد .

اقتربت أصوات الجنازير . وقف أحدنا بباب الحجرة، وأخذ يطلق الرصاص من رشاش بورسعيد، فجأة توقف عن إطلاق الرصاص . ظننت عطلاً أصاب الرشاش، الذي كثيراً ما كنا نتندر عليه، ونسميه رشاش صيد العصافير، لقلّة مداه، وكثرة أعطاله، وسقوط خزانته . وجدته ينزف، سحبته إلى الداخل . لكنني زميل، فرفعت رأسي . وجدت ثلة من الإسرائيليين فى الطريق إلينا . خرج بعضنا بالرشاشات . ومن كان تسليحهم بنادق، ساندوهم من الخلف .

انهال علي زملائنا رصاص غزير، من مدافع مكنة سريعة الطلقات، فسقطوا فى الباحة، وأخذنا نطلق الرصاص من داخل الحجرة، فى مواجهة الراجلين، حاملي رشاشات عوزى القصيرة . سرعان ما انسحبوا ونحن لا نصدق عيوننا .. ولم نهناً لحظات .. حتى انهالت قذائف الدبابات . سقف الحجرة الواطئ، وبعض النخيل المنتور، عاقا وصول أى قذيفة مباشرة إلي مكمننا . لم نكد ننتبه إلي حلول المساء، حتى سمعنا محركات الدبابات تدور . خمنّا أنهم فى طريقهم إلي السير . وعندما سمعنا دوران الجنازير، تنفسنا براحة، عزت علينا طوال النهار.

صمت يغلف المدرسة، حيث التلاميذ ومدرسوهم فى إجازة الصيف، سارقاً منه الوقت، وعيناه لا تفارقان الزهور الحمراء . تسلفت إلي سطح الحجرة للتأكد، وجدت طابوراً من المدرعات، والجنود يغدون ويروحون حولها . هالني صغر سنهم، وتورد خدودهم، ولم يهتموا، حتى بوضع

الخوذات فوق رؤوسهم . وفي جانب من الطريق عربة تعيين ضخمة، وبعضهم يلتفون حولها ويتصايحون. وضابط سمين، أو مساعد، لم أفهم ما تعنيه علامتا كتفيه المعدنيتان، تشبهان فرعي شجرة . يهشهم عن العربة، ومجندات يقتربن، أخذن علب «سفن آب» و «بسكوت» وشيكولاته . كثر صياح الجنود وتزايد عددهم . خلع السمين قايشه، ولوح به مطارداً، فروا من جهة، وعادوا من جهة أخرى، وهم يتصاحكون ويتصاحبون .

كان طابور مدرع بريطاني، قد اصطف بحذاء قناة السويس، ومدافعه فى اتجاه بورسعيد . تقدمت دبابة ووقفت فى مقدمة إحدى الشوارع، التي تصب على القناة . أطلقت عدة قذائف، فتوقفت الحركة فى الشارع كله .

كنا مجموعة من خمسة أفراد، تسللنا من بحيرة المنزل، إبان حرب 56، فى زي الصيادين وبمعاونتهم، قال قائدنا .. لو أعطبنا واحدة فى أول الطابور، وأخري فى نهايته لأصابهم الارتباك ونلنا منهم .

كانت معنا قنابل يدوية، وقنابل «أنارجه» إذا وضعتها بجوار أي جسم تلتصق به . اقترب أحدها من الدبابة التى أطلقت القذائف، ونجح آخر، مستتراً بالبيوت، حتى اقترب من مؤخرة الطابور، وكمنا بأحد البيوت المطلة على الشارع الموازى للقناة .

خرج بعضهم من الدبابات، وتجمعوا حول إحدى محال البقالة فى «الأفرنج» . تخاطفوا المشلجات والشيكلاته والبسكوت . زحف زميلنا بحذاء الرصيف، وتمكن من لصق «أنارجه» بجنزير الدبابة . واستطاع الآخر القفز فوق دبابة المؤخرة وألقى قنبلة يدوية فى فتحة البرج . دوت الانفجارات . تركوا المحل وهروا إلى الدبابات، ورصاصنا يلاحقهم،

حتى انضم زميلنا إلينا . أسرعنا نحتمي بحي المناخ، حيث البوص وعشش
الصيادين، ومياه بحيرة المنزلة .

ارتد ببطء، إلي الخلف يتأمل المكان . لامس ظهره السلك الشائك
يحد الباحة .. آه .. ليتنى تتبععت سلك التليفون الميداني، وهل كانت هناك
جدوي .. ؟!

هبت ريح طرية، تمايلت معها أغصان الزهور . لم ينل حفيف الريح
من الصمت الذي يغلف المدرسة، وأحس بجلال يملك عليه كيانه، وهو
واقف تحف به الزهور الحمراء .



خطرت فى عبائتها السوداء، انحنت على شجرة لوز . حين تمكن من تقدير عجيزتها طار لبه، وكأنما لسعتها نظراته، اعتدلت . قامه فارعة، ممشوقة، أبرزت العباءة رغم أنها فضفاضة، حجم ثدييها المتوسطين . شعرها الأسود الغزير، حول رأسها كالحواية . عصيته بمنديل أسود شفاف، تساقط منه ترتر ملون، يهزر مع جبينها عند كل لفطة . لم يطق صبراً:

- ردي يا بنت الحلال .

فرت من أمامه، وانحنت على شجيرات اللوز القصيرة، تجمع ثمراتها الطحينية اللون . فى المساء كعادته، جلس فى مقهاه، فى آخر الشارع الرئيس بالعريش، ناحية السوق، فى ركن بعيد عن دوشة التلفزيون، حيث الرواد ملتفون، يشاهدون إحدى المسلسلات الأجنبية . أحضر له العامل البوري، وحجرين عامرين بالمعسل . لوح بمصفاة النار، يمينا ويساراً . ثبت الحجر فوق فوهة البوري، كبس المعسل، وضع النار، ونفخ . - شد يا أسطى .

شد الأسطى، فتأججت النار، وسمعت طقطقتها . نظر إليه بعينه، ففهم عنه، وصاح :

- قهوة مضبوط، لزوم الأسطى سعد

مع أنه يسمعه كل يوم، لم ينتبه إلى لهجته الممطوطة من قبل، وكل ما يعرفه عنه اسمه، العايدى . وهو يضع صينية القهوة على تراييزته، أمسكه من ذراعه .

- من أين ؟..!

استمهل له لحظات، لبي طلبا، وعاد إليه .

- دمياط .. عزبة البرج .

لمح التساؤل علي وجهه، ما الذي رماك هنا . أسرع يلبي بعض النداءات . شد سعد نفساً عميقاً، اشتعلت معه الجمرات، وأطلق دخاناً أبيض، غزا المكان حوله . عاد إليه :

- كنت أعمل مع أبي علي مركب صيد سردين، قل الطمي بعد السد العالي، فهرب السردين . باع أبي المركب سداداً لرهن، وسافر إلي اليونان . دلني أولاد الحلال علي بحيرة البردويل . لمح العايدى الدهشة علي وجه سعد . نزع الحجر، وضع آخر مكانه، نفخ في الجمرات حتي تأججت .

- ما الذي أتى بي إلي المقهي . عملت في البحيرة فترة .. سمك الدنيس الممتاز، محصوله وفير، وثمرته معقول، ولا تنتظر الطريحة .. في الحال يتم توزيعها .. حتي جاء الإسرائيليون .
- حضرت 67 .

- استولوا علي البحيرة، كأنها ملك لهم من قديم الأزل . ومنعونا من الصيد إلا بتصاريح، وفي أوقات معينة، ومناطق معينة . أحضروا مراكب، وعملوا عبوات من سمك الدنيس .. وطائرات كارتير، تنقلها يومياً إلي مطاعم فرنسا وإيطاليا .

ضحك سعد، وقد أدرك الخلط الذي حدث له . فقد وردت أمريكا لمصر أيام الرئيس كارتير، بعض الباصات، سارت في شوارع الإسكندرية، وكانت تحدث فرقات انزعج منها الناس، وكلما رأوا واحداً حذر بعضهم بعضاً : انتبهوا باص كارتير .

- تقصد شارتر .

- أنا عارف .. المهم .. لم أستطع العودة إلي دمياط بخييتي .. فعملت
فى هذا المقهى .

تساعد تصنيف من جوانب المقهى، أسرع العامل .. وسعد يشير إلي
البوري.

ليحضر له حجرين . عاد إليه، وقد انشغل أغلب الرواد، بمتابعة
المسلسل الأجنبي . جذب سعد نفساً عميقاً، قضى به علي تردده فى
مفاتيحه، وقال :

- عاشرت السيناوية زمناً ..

- أمرك .

- واحدة .. يعني ..

- سيناوية

أوماً برأسه، وهو يتغلب علي حياته، بضبط الحجر علي فم البوري .
تفحصه العايدى، وقال :

- ناي .

نظر إليه متعجباً، بينما أسرع يلبي طلباً، وهو يقول :

- ثوان

طلعت علينا الشمس ونحن نتحرك باتجاه القناة .. إذا انحرفنا إلي
جانب لا نرى السفن . إذا سرنا فى خط مستقيم برزت السفن، وكأنها تسير
فى الرمال . فلم تكن المياه، تبين للسائرين من التباب الرملية . ضحك
أحدنا معلقاً، وقد خيل إليه أنه سمع صوت ناي .

- السفن تظهر علي نغمات الناي

قال آخر :

- ثعابين يعني

استرحنا قليلاً فى حماية التباب الرملية، نمنا نوماً متقطعاً علي فترات،

ليلة العاشر من رمضان . تحركنا بعد الإفطار بساعة تقريباً . عند الكيلو عشرة، أحسنا في الجو شيئاً . لكن .. لم يتوقع أحد أن تقوم الحرب . ظننا الأمر لن يعدو إحدي العمليات. نعتبر لعمل كمين ثم نعود . كعادتنا قبل كل عملية، تصافينا . تركنا عناوين بيوتنا مع جندي في المؤخرة، وأكدنا عليه :

- إذا لم يعد أحدنا أبلغ أهله .

كنت سأقبض جمعية علي العيد . تركت القسط مع الجندي، وكان يتولي الجمعية. قلت له :

- إذا مت لا تكون مدينا لى بشئ .. وإذا رجعت سلمني المبلغ .

نشعت عيناه بدمع خفيف، وعقب وقد هرب صوته :

- فأل الله ولا فألك .

انتابتنا حمي صرف ما بقي معنا من نقود . بعد قليل لن تصبح لها قيمة.

وتساوينا، من كان معه، مثل الذي لم يكن معه . هفت نفسى بلح رطب .

- ما رأيكم يا أولاد

- موافقون .

لبس كل منا سترة الحرب الواسعة، ذات الجيوب الكثيرة، لوضع القنابل والرصاص والسلاح والألغام .

فى الصباح مر علينا قائد القطاع، وكان يركب عربة التعيين المحملة بالطعام، حتى لا يشك أحد فى شئ .

وكانت التعليمات ألا يظهر فى موقع المشاة، أكثر من العدد العادي، وأن يمارس المشاة حياتهم اليومية المعتادة، حتى لا يلحظ الإسرائيليون شيئاً .

فى الحادية عشرة، علمنا أن الطائرات ستعبر فى الثانية إلا خمس دقائق . بعدها ستقوم المدفعية بثلاث قصفات حتى الثانية وعشرين دقيقة . بعد ذلك نعبّر . خلعنا سترات الحرب، ولبسنا سترات المياه، الفضفاضة، جيوبها محشوة بالفلين . لمحنا القوارب المطاطية مموهة، وشددوا علينا بمنع ظهورها قبل الساعة الثانية . قبل الموعد بساعة، اقترح زميل لنا أن نفتحها، وتساءل .. ماذا يكون الحل إذا فتحناها وقت الضرب، ووجدنا أحدها مخرومًا، وبالفعل وجدنا واحدًا مخرومًا . استبعدناه، وأمرنى القائد، بإعداد قارب احتياطي كان معنا .

تطلع ناحية النصبه، وبه شوق لسماع باقى كلامه . وتعجب لتأخره، خاصة، وقد غرق الجميع تمامًا فى مشاهدة المسلسل .
وتساءل : هل سيكون له حظ مع ندا .. وهل من الأوفق إخبارها أنه اقترب من الأربعين أى فى مفترق طرق، أم أن هذا بدلًا أن يقرب بينهما، يصدها عنه .

أخبرنا القائد بواجبنا القتالي : سنعبّر القناة بسرّيتين من الصاعقة، نمر بجوار نقطة إسرائيلية فى الكيلو عشرة ونتفادها نسير مسافة تسعة كيلو مترات، حيث سنجد مفترقًا للطرق، يؤدى إلى الموقع الإسرائيلي خلفنا .

علمنا من الاستطلاع، أن لهم خمس دبابات وثمانى عربات مجنزرة فى الاحتياطي، تهب لنجدة هذا الموقع، إذا تعرض للخطر، واجبنا احتلال مفترق الطرق، وتدمير هذه الدبابات . هذا المفترق يؤدى إلى الكيلو التاسع عشر، ونقطة التينة والكيلو عشرة . وهذه الطرق مدقات عملتها إسرائيل بعد عام 1971 .

أومًا العائدي برأسه أنه حاضر .. هل سيفيد كلامه حقًا .. أم أنه يضع وقته . هو جالس على أية حال . ولاحت له ندا بوجهها الصبوح، كلما

رآها، أحس برجفة، وأن الهواء الذي يتنسمه فى وجودها، يجعله خفيفا،
قادراً علي الطيران .

ما أن عبرنا، حتى أحسست بالهواء الداخل إلي صدري، يجعلني فى
خفة الريشة، لم يستمر هذا معي طويلا .

لمحت قبلة مضادة للدبابات، ملقاة بالقرب من القناة . تلفت حولي،
لم أجد من انتبه لي أو لها . تجاوزتها وأنا فى عجب من هذا الجندي
منعدم الضمير . تجاوزنا المكان . وقفت متردداً، وزملائي ينظرون إليّ
غير فاهمين . عدت مسرعا، التقتتها ووضعتها فى حزامي . أم تري
زواجى من ندا، يغرزني هنا، ويجعل من الصعوبة الرحيل لو أردت العمل
فى مكان آخر .

سرنا عدة كيلو مترات، غرزنا فى منطقة طينية .
ظللنا نعاقر فى طينة صفراء، مشبعة بالماء، وصلت حتي صدورنا .
لم نكد نستقبل الطريق، حتي رأينا الدبابات الخمسة . وزعنا أنفسنا بحيث
نحتضن الطريق .

أطلقنا مدافع ال- آر - ب - ج . دمرنا أربع دبابات . أصيبت الخامسة
فى قطاعي فى الجنزير . رشقنا مدفعها نصف البوصة بالرصاص . احتمينا
فى جانب من الطريق . انهالت علينا قذائف مدفع البرج . درجة ميل المدفع
فوق الدبابة، جعلت القذائف تحيد عنا . حاولنا إعطاب جنزيرها تماما .
استدارت الدبابة للخلف، لكن مدفعيها موجهان ناحية مجموعتي . مات
أحدنا وجرح آخر .

زحفت لأحاول نسفها عن قرب . هممت باعتلائها وقد جهزت فى
يدي قبلة يدوية، فوجئت بمن يطل من فتحة البرج . ألقيت القبلة وقفزت
بعيدا، انبطحت، وطلقت الرصاص تلاحقني، لا أدري من أين . أحسست
بتمزق فى وسطي من الخلف، وشلت إحدي يدي . أطل الإسرائيلي برأسه،

ألقيت عليه قبله بيدي السليمة، يبدو أنها أخطأته، أحسست بعجزتي تماما عن الحركة . كلما أطل ألقى عليه أحد الزملاء قبلة يدوية . وفي كل مرة يختفي داخل الدبابة، التي بدا أنها عاجزة عن الحركة .

تذكرت القبلة في حزامي، الآن وأنا أجلس هادئاً أتساءل : هل كان الجندي معدوم الضمير، أم أنها سقطت منه في اللهوجة ولم يتمكن أثناء الزحف من التقاطها . ناولتها لزميلي الذي زحف إليّ . أخبرته أنني سأشغلهم من الأمام، وعليه أن يقفز علي الدبابة من الخلف ويلقيها من فتحة البرج، وهو علي وشك القفز، سقط تسيح منه الدماء، لكن القبلة أصابت الجنزير من ناحيته، ناداني أحد الزملاء، في اللاسلكي، شرحت له الموقف، تقدم، وتمكن من القفز علي الدبابة، جاءني صوته يصيح من عزم ما به، وهو يلوح بقبلة في يده :

- سلموا يا أولاد الكلب .

خرج إسرائيليان، وقد وضعاً أيديهما فوق رأسيهما، لم يكذب يخطو بهما عدة خطوات، حتى زمجرت طائرات إسرائيلية فوقنا، حاولا الفرار، عاجلتهما الزملاء بطلقات الرصاص، فخرا على الأرض . لففت رباط الميدان حول جرحي، بمساعدة أحد الزملاء، لوقف النزيف . حملني زميلان إلي المؤخرة .

نادي أحدهما علي الزملاء في الضفة الغربية، حتي لا يطلقوا علينا النار . فالتعليمات المبلغة لنا ونحن نركب القوارب : لا رجوع للوراء علي الإطلاق . ومهما حدث فسوف نركب القوارب . إذا انفجر لغم في أحدنا . ولو اضطررنا سندوسه، لكي يستمر العبور . لو طال الرصاص أحدنا في القارب، ستركه ونعبر .. لا رجوع للوراء مهما حدث .

تركاني علي الأرض . أتحنس بيدي السليمة، خلف جنبي الأيسر، بعد أن تيقنت من مكان الجرح، أخذت أقدر حجم الإصابة، فتعثرت

أصابني فى دم متخثر، أخذت أتخلص منه، بفرك يدي بحبات الرمال .
غادر المقهي، وقد حط الليل .. هل يأخذ بنصيحة العايدي بشأن
النأي. وإذا لم يفلح هل ستكون فضيحة بجلاجل .
طافت البقرة فى شوارع الحي، قبل ذبحها، وقد، زينوها بأزهار حمراء
فى جانبى رأسها، ووضعوا حول رقبتها عقداً من الفل، تتدلي منه أجراس
صغيرة، ومشى صبيان المعلم بطبول فى أيديهم . وأحدهم يصيح علي
قرع الطبول :

- بكم يا أولاد ..

فيرد الأولاد، الذين تجمعوا على الزينة :

- بعشرة قروش

وغلب علي ظنه أن ما رآه منقوشاً علي حجارة معبد فرعوني قريب من
بلدته، هو نفس الزفة، أبدي ملاحظته لمعلمه فى التأهيل المهني، حيث
كان يدرس ميكانيكا السيارات، فأخبره أن ما رآه ليس زفة .. لكنهم كانوا
يقدمونها . وإزاء دهشته، قال المعلم :

- ألا تقرأ الجرائد .. منذ أيام نشرنا أن بقرة كانت تمر فى وسط
عاصمة الهند نيودلهي، وتعطل المرور، ولم يجرؤ أحد علي سحبها،
حتى تعطفت، وتحركت بجلالة قدرها .



واربت حمدية باب الشرفة، وتطلعت إلى الأفق . سحاب رقيق أبيض، يفصح عن مساحات زرقاء حيناً بعد حين، سرعان ما تخللته أشعة شمس واهنة فأخذ يشف ويرق، سابحاً ببطء، تعلوه زرقاة لبنية . وبان سموق برج كنيسة مار جرجس، وبدت في موازاتها، غير بعيدة عنها، مئذنة جامع السنين، مع أنها خلفها بشارع عريض .

تلاشت أصداء جرس الكنيسة، وهو ما جعلها تنهض مبكرة، وهي تتساءل.. ياساثر.. ليس اليوم أحداً.. فلماذا دق الجرس . هل مات أحد.. وهل يفعلها أحد في هذا الجو البارد .

جاءتها أصوات عربات أجرة مبكرة، من شارع سندوب، الذي تري جزءً منه، من فوق البيوت غير العالية، هل تستقل عربة، وتقف بعد كوبري سندوب، علي الطريق الزراعية، وتستلقط عربة متجهة إلي الشرقية . وربما صادفها الحظ، ولحقت بباص العريش . المحادثة مع حمدي تليفونيا لم تعد تجدي . لا بد من مواجهته، ليفهم أنني لست متعلقة بصديقه الراحل عبد السلام، ولن أستبدله بـ «صفوت» .

حانت منها التفاتة إلي البرج . بدا لها أن الجرس يترنح في هوادة، مستهلكاً ما بقي من حركته، ورجحت أن يكون الدق إعلاناً عن عيد أحد القديسين. كثيراً ما لعبت في الباحة أمام الكنيسة، بين الأشجار، يحدها سور كانت بجواره طريق ترابية في جانب منها، عند اقترابها من الشارع المسفلت مقام شيخ، خلفه مقابر المسلمين . الآن نقلوا المقابر في آخر شارح سندوب، وتوارت قبة المقام، حيث نهض جامع كبير لجماعة

السنيين . وعجبت من أمر حمدي، هل هو حقاً شقيقها الذى تعرفه . ولماذا لا يصغي لها . لا تنكر، وهو يحكي لها عن مساعدته له فى مشروعه، أنها قدرته، وعندما التقت، أعجبتها شخصيته . لكن هذا شئ، وذلك شئ . عزمه حمدي، بعد حرب 73، وأخذا يستعيدان ذكرياتهما، كأنهما يمحوان الأيام التى فصلت بينهما . أوصاها أخوها بإعداد كعكة بالبرتقال التى تجيدها، وكانت تضحك بينها وبين نفسها من حماس أخيها، كأنه أحد المشاركين فى العبور، مع أنه بقي فى الخلف، بل واضطر إلى التقهقر حين حدثت «الثغرة».

قال أخوها:

- كان القائد موفقاً، حين عبر بقواته من موقع فيه أكثر من خمس مئة حفرة، أحدثتها الدانات الإسرائيلية، زنة ألف رطل، رداً على إحدي عمليات العبور، قبل الحرب، ورغم صعوبة تحرك الأفراد والمعدات والمركبات بين الحفر، أصّر القائد، فالإسرائيليون لن يتوقعوا العبور من هذه المكان بالذات . وهكذا عبرت قوات الفرقة الثامنة عشرة دون خسائر تقريباً .

- لا تنس، موقعنا فى أرض زراعية واطئة، وموقع العدو مرتفع فوق منصات رملية، تطولنا نيرانه بسهولة، وحصونه فى هذه الجهة من أقوى تحصيناته .

كادت تفلت منها ضحكة مدوية، وهى تغلق باب الفرن، للهجة التى يتكلم بها، وكأنه القائد الذى فتح القنطرة غرب .

- هاجم القائد المصري معظم التحصينات من الأمام، والتحصينات البعيدة من الخلف والأجناب، وبني خطته، كما لا حظت، علي مواجهة سريعة جداً، بكل القوة الضاربة دفعة واحدة، مع محاصرة المدينة بنفس السرعة، وباندفاع بقوته الرئيسية.

قاطعہ آخوہا :

- بالتأکید کان مشکل القائد المدینین فی القنطرة .

- بالضبط ..

قالها ممطوطة، ثم وهو يضحك :

- كما کان مشکلي تأمين مزرعتك .

وانفجرا ضاحكين .

- وهذا صعب من مهمته، كيف يقتحم المدينة، دون أن يمس سكانها بسوء، وكان أمامه كما تعلم سبعة حصون من خط بارليف، ومسافة المواجهة حوالي أربعين كيلو متراً، ركز قواته وهجومه علي حوالي عشرين كيلو متراً، أمام الحصون الأربعة الرئيسية، واقتصر بضرب النيران على النقاط المتطرفة شمالاً وجنوباً .

بدا لحمدية أن نضج الكعكة سيتأخر، فأجلت صنع الشاي، واعتزمت أن تقدم لهما القهوة أولاً . دخلت بالصينية، لحظت صديقه منفعلاً، وقد اشتعلت عيناه ببريق، كأنه يري ما يتكلم عنه .

- هاجم النقطة الأولى والرابعة، وأحاطتهما بدرع من قواته خلفهما، حتي يكون في وضع يتصدي فيه لاحتياطات العدو . وجدت نفسها تهتف :

- شاطر .

- وجعل لدعمه، أعماقاً متتالية، يصعب اختراقها .

أومأت لأخيها، ليقدم القهوة . لكنه كان مشغولاً عنها، فأمسكت الطبق بيد، وسندت بالأخري الفنجان فوقه، وناولت الضيف . حلق في عينيها برهة، ولا تدري لماذا أحست برعشة .

- تم احتلال النقطة الأولى والنقطة الرابعة، بعد خمس وعشرين دقيقة بالضبط، من العبور بالمشاة والأسلحة الخفيفة . ورفعت الأعلام المصرية .

انطلق أخوها، وقد تألقت عيناه :

- هذا هو الكلام .

- وبدأ حصار القنطرة بعد خمس وثلاثين دقيقة بالضبط .

تطلعت إليه، وقد عجبت من دقته فى تذكر ما تم بالدقيقة . تفهم نظرتها، وعقب:

- لأن بعدها بخمس وعشرين دقيقة، يحين دوري فى العبور، وبعد أن كنت مع وحدتى مقدمة لقواتنا بالقرب من القناة، سأكون نظراً لمعرفتى الجيدة بالمنطقة، مؤخرة لقواتنا العابرة لتأمين عودة الجرحى، وتأمين عبور المهمات والإمدادات، والتفت إلى أخيها، بينما يحدق فى عينها :
- وتأمين المزرعة .

أفلتت منها ضحكة خافتة، جاوبها بابتسامة، ووجدت نفسها مشدودة، ولا تريد أن تطاوعها خشية احتراق الكعكة .

-هاجم النقطة الثانية واحتلها، وفي الثامنة من مساء نفس اليوم، السادس من أكتوبر بعد مقاومة شديدة، امتد الحصار من منطقة شمال البلاح، وكان الجانب الأيسر منطقة الحرش .

تناول فنجانه، ورشف رشقات سريعة، قدرت معها أن القهوة بردت، انتبه أخوها فتناول فنجانه، بينما سرحت عيناه إلي بعيد، فخمنت أنه لاشك، يستكمل ما نقص من الصورة، التى رآها، ولم يكن يستطيع أن يلم بكل أبعادها، من موقعه فى الخلف، وجاءهما صوته، بطيئاً، متهدجاً :

- بدأ الهجوم الإسرائيلى فى الثالثة إلا ربعاً، واستمرت الهجمات المضادة، حتى الغروب فى السادسة مساء تقريباً .

هاجم العدو من اليمين واليسار والمتنصف لفك الحصار، وركز ضربة شديدة فى السادسة إلا ربعاً على الجانب الأيمن، واخترق الحصار بالفعل .

وضع الطبق بيد متوترة، والفنجان يهتز فوقه . نهضت مسرعة وقد خيل إليها أنها شمّت رائحة شياطين، وصوته يلاحقها :
تراجعت القوة المصرية، حوالي ثلاثة كيلو مترات، نظم القائد دفاعاته بسرعة، وعلي أعماق متتالية، حتي إذا اخترق العدو، وقع في مصيدة نيران في مساحة عمليات تقرب من ثمانية كيلو مترات .
استمرت المعارك طوال الليل ، عطل الإختراق قدرتنا علي عبور الدبابات،

وركز العدو علي ضرب المعديات، فكان عدد محدود من الدبابات يعبر كل ساعة تقريباً.
أحست بصهد حارق وهي تفتح باب الفرن، وكادت تنسي وتمديدها دون بطانة لتسحب الصينية .

- الإختراق من الجانب الأيمن لم يفلح، لكن الإسرائيليين استعادوا حصن شمال البلاح، ثم استعدناه، واستمر الموقع مناصفة بيننا طوال الليل. وفي السادسة من صباح اليوم التالي، هجمة مصرية مضادة، واستعادت قواتنا الموقع تماماً، وتقدمت ثلاثة كيلو مترات بعد أن دمرت ما يقرب من أربعين دبابة، وهرب بعض الناجين بأربع دبابات، لكن القذائف لحقت بها، وفجرتها . لم نكد نهناً، حتى وجهوا ضربة للجانب الأيمن لقواتنا من اتجاه حوض « أبو سمادة » جنوب رمانة .
- آى ..

نهض حمدي مسرعاً . وقف بباب المطبخ . بنظرة سريعة أدرك ما حدث . انفلتت منها البطانة، فلسعتها صينية الكعكة . عاد بهدوء وأوماً له برأسه أن يستمر .

- وعند الظهر تمكن العدو من إختراق جزء من مواقعنا، لكن الدبابات

التي عبرت طوال الليل أمكنها استعادة الموقف، حتي صباح اليوم التالي، ولم أكن نمت بالمعني .

قال حمدي :

- ولا أنا -

وقال في صوت يجاهد في الوصول :

- ولا نحن -

وجاءتها ضحكاتها . وقد فهمت ما تبطنه، ففرق بين نوم ونوم .
- وجه الإسرائيلون ضربة في خطين . وحذر قائد الجيش الثاني قائد القنطرة: لواء مدرع إسرائيلي يتقدم إليك مع أول ضوء . رجونا أن يكون الاستطلاع قد تمكن حقا من معرفة نوايا العدو . علي أية حال انتظرناه عند نقطة معينة، بحيث نفاجئه بقصفة نيران مركزة . وطلب منى القائد أن أكون مع جنودي بالقرب من القناة، متوقعا ترحيل جرحي كثيرين، وأن أكون مستعدا بنقطة إسعاف سريعة . واختار القائد موقع قيادته في مكان مرتفع يطل منه علي الجبهة . ويستطيع أن يراقب الموقف، ويقدر المسافات .
دخلت حمدي، وهي تؤكد، أن الشاي والكعك، في طريقه إليهما حالا، بينما كان يؤكد لأخيها :

- آه .. المعركة الناجحة تقدير مسافات مع تقدير موقف .

افتتر فمه عن ابتسامة، وركز عينيه علي وجهها، كأنه يخصصها بها، وقال:

- فوجئ اللواء المدرع بالقصف الشديد فارتبك . ظهرت الطائرات المصرية، وأعتقد تم تدمير ثلثي المدرعات، وكنت من موقعي علي حافة القناة، أري الطيار المصري، يدور ثلاث مرات، كأنما يتأكد من مواقعهم، ويقصف، ويقصف. علق أخوها :

- طبعا طائراتهم لم تشترك بفاعلية فى هذه المعركة للخسائر العالية فى بداية الهجوم.
- أوما برأسه وهو يقول :
- بالتأكيد . فشل الهجوم علي الجانب الأيمن، ولكن العدو ما زال يهاجم الجانب الأيسر ونجح فى تحقيق اختراق جزئى .
- رفع ناظره إليها واستمر :
- وحياتك .. ماهى إلا خمس وأربعون دقيقة، حتى طهرنا هذا الاختراق .
- تنهد، كأنه عائد من مشوار، وأخذ راحته فى الجلسة، وشملهما بعينيه، وعاد صوته هادئاً رزينا :
- بعدها، يئس العدو من استعادة القنطرة، وفي مساء الثامن من أكتوبر، كان جنودنا يسرون بين الأهالى فى الشوارع، يتبادلون الأحضان، وقد أطمأنوا إلى سلامة الناس .
- أسرعت إلي المطبخ، أخرجت الصينية . تأملت وجه الكعكة المضى، وتمتمت :
- صنعة يدي وحياة عيني .



اضطجع صفوت بظهره على كرسي الشاطئ، ومدد رجله . أحس بعدم راحة. نهض ونزع عارضة الكرسي الخلفية، من تعشيقتها في قائمي ظهر الكرسي، ووضعها في تعشيقتين أخريين إلى أسفل . وجرب الاضطجاع . استراح ظهره مع تقوس قماش الكرسي ذي الخطوط الطولية العريضة، زرقاء وحمراء . مدد رجله في استرخاء، وتطلع إلى مياه بحيرة التمساح الوادعة، الممتدة، عن يمين وشمال، وفي الأمام، تمسح صفحاتها موجات، كقطيقات، لطيفة، مداعبة . وتساءل : هل ستأتي حمديّة ؟!

على البعد، زورق منساب من طرفه، يشبه انسياب خرطة المحوجة من طرفها. وعكس لونه الأبيض، شمس الضحى، فرأى من خلال زغللة عينيه، فتى وفتاة، والزورق ينزلق في خفة، فهو بالكاد، شريحة من الخشب، لا بطن تذكر لها. وضحك في نفسه، حين تخيل منظره، وهو يسقط من القارب المطاطي، فوق بحيرة قارون. كانت الشدة تعوقه، لكن لا بد من التدريب على العبور بها، وإلا بماذا سيلاقى العدو . كان يحمل حزامين، واحد به زمزمتان وقنبلتان يدويتان دفاعيتان، وأخريان هجوميتان، الدفاعية مقسمة إلى مربعات، تتحول إلى شظايا، كأنها طلقات الرصاص. والأخري ملساء، ويمكن للمرء أن يلقيها وهو يجري، أو من خلف ساتر. وكان معه كوريك ، وأزميل لزوم جماعته.

قالت حمديّة :

- ليتنى كنت معك .

أغرق في الضحك، ولم يستطع أن يتصورها، تحمل حقيقة المهمات، بقاتمتها المتوسطة، تميل إلي القصر، مع استعداد للسمنة . وهذا عيبها، كما يري . فإذا، تزوجت وجاءت لوازم الزواج من حمل وخلافه، هل تبعجر ..؟! .

كانت الحقيقية محملة بالذخيرة . فذائف مدفع آر - ب - ج . وهذا المدفع

أسطوانتان، تركب الواحدة في الأخرى، وتوضعان على ما يشبه مجري، ويوجد تنك لإطلاق المقذوف . وفي الحقيقة ذخيرة رشاش خفيف، وطلقات بندقية آلية، وطلقات لمسدس يعلقه في أحد جنبه . هل كان جذعها البسيط، بشديها الرهيفين، يتحمل هذا الثقل . أم كانت تضعها فوق عجيزتها وتسندها إلى ظهرها بيديها، وأين عجيزتها ..؟! ..

كانت المصالح الحكومية، وطلبة الجامعات والمدارس، يقومون برحلات لمشاهدة خط بارليف، بعد الحرب .

انتدبته وحدته ليرافق بعض الرحلات، التي تزور قطاع السويس، لخبرته في هذه المنطقة . وعندما أخبرته شقيقته، أن مصلحتها، في طريقها للزيارة، استأذن قائده، ليكون في رفقتهم، مع أنها لم تكن ورديته . فصفيه قالت للزملاء والزميلات 0 أنه سيكون معهم، وتوقعوا أن يأخذوا راحتهم في التجول والمشاهدة .

أخذهم إلي موقع أبي جاموس . هذا المدفع الضخم، الذي كان يقذف حممه على مدينة السويس .

تحلقوا حول المدفع وتطلعوا إلي ماسورته .. ونقلوا أنظارهم إلي صفوت .. في ضعف قامته الطويلة .. وهو الذي من فرط إحساسه بها، قد انحنت رأسه قليلا إلى الأمام، وبانت رقبتة منحنية بين كتفيه البارزتين . وقاعدة المدفع ضخمة تتحرك على عجلات .

- كيف لم يستطيعوا اصطياده ..؟! .

أشار صفوت إلى باب ضخم من الفولاذ، انبعتج إحدي ضلفتيه، من قذيفة مباشرة على ما يبدو . ووجه نظرهم إلي أسفل حيث مجري حديدي، يسمح بحركة الباب، يميناً وشمالاً، وقال :

- حين يطلق المدفع، وقذيفته ضخمة، تشع نارا، من السهل أن نلمحها علي بعد عدة كيلو مترات، ونحدد موقعه، وندمره . لكن الذى كان يحدث أنه فور الإطلاق، تنغلق ضلفتا الفولاذ ذاتيا بالكهرباء فلا يلمح أحد وهج القذيفة، ونفس الأسلوب .، تقريباً، اتبعوه معنا فى حرب الاستنزاف .
علقت حمديّة :

- بوابات أيضا .

أمسك، وقد أخذته القفشة، وخفة الدم، والعفوية فى الكلام، ضحكوا جميعاً.

كشفت الملاحظة عدة مصاطب ترابية، علي ارتفاعات مختلفة، مخفية خلف المصطبة الترابية العالية، المواجهة لنا علي شط القناة . تطلق الدبابة، وسرعان ما تهرب علي منحدر إلي المستوي الأقل ارتفاعاً، وتختفي عن أعيننا .

أشار لهم بيده، ليشاهدوا الأجزاء الأخرى من الحصن . كاد يخطئ فى حمديّة، وقد انثت، تتفحص مجري الباب الفولاذي، كأنما لتأكد من كيفية غلقه بسرعة البرق، وقد التوت فوقها ماسورة المدفع الضخمة، طالعت مؤخرتها، قال ياما هنا ياما هناك، وعندما رآها معتدلة، حدث نفسه ضاحكاً : خُذت، أم خدعنى الفستان المحبوك.

صعد بنظره إلي أعلى .. شعرها قصير، خفيف، ملتف فى أنصاف دوائر للخارج، حول رقبتها القمحية، وقد تسرب نمل من الزغب، من طوق فستانها. رفعت ناظرها إلي ماسورة المدفع الضخمة، المعوجة، التفتت إليه فجأة، فلاقي عينيها الدهشتين .

قالت أو بالأحرى، دارت ارتباكاً خفيفاً، وهي فى مشروع ضحك :
- أبو جاموس .. !

أسرع صفوت يمسك إحدى يديها، حيث كادت تتعثر فى الرمال غير المستوية والحجارة، وهي لا تمكنه منها، وقد علا وجهها عبوس خفيف، لم يحدث أثره، لإطلالة خفة الدم من عينيها العسليتين الصغيرتين .
قال :

- هذا المدفع، كاد يصيب أهل السويس بالجنون، كان يطلق قذائفه طوال حرب الاستنزاف قبل حرب 73 فتسقط فوق البيوت، وفى الشوارع، لذلك أسموه أبا جاموس .

قالت ضاحكة من حنجرة حشوها ملبن :
- أبو جاموس فعلا .

وهي تعبر، مجرى بوابة المدفع، تركت له يدها، وقد أخذه صوتها، المبطن بحنان مستتر، لا يدري من أين ظهرت صفية . أخذت يدها من يده وقالت :

- أبو جاموس .. ولا أبو جلامبو .. !
سرح ببصره فوق الماء، أخذاً فى عمق شهيماً أنعشه .
ينظرون حولهم، فلا يجدون غير الماء . عبروا خليج السويس . لحظ قائد الطائرة صمتهم . فتح باب قمرة القيادة، وقال :
- لماذا الهجوم .. قواتنا التى اقتحمت القناة، حققت انتصارات كثيرة .

زال عنهم الخوف، بعض الشئ، لكن لم يتبادلوا أي كلام .
خلال الباب المفتوح رأوا الملاح الذى يساعده . تقدم فني الطائرة عدة خطوات، كانوا قبل آخر ضوء من يوم السادس من أكتوبر، وقال :
- هيا يا رجال

وفتح باباً فى مؤخرة الطائرة . وقف الرقيب متردداً . صاح الفنى :

- هيا يا رجل .. هل تخاف .. ؟
قفز الرقيب، وكان صفوت التالي له، لتأمين مكان الإنزال .
سمع حفيقا، تلفت . وجد فتى وفنة يتفافزان، وبينهما لوح خشبي
أبيض، مطوي الشراع . تنهد .. قالت حمدية بصوت مندى بالأنوثة :
- لو كنت في الطائرة .. ؟!

غاص فى عينيها، عميقتي الغور . هل هذا الغور هو الذي أغرقه فى
بحورها . أم هى النظرة الدهشة التى طالعها فى عينيها ، عندما أخبرها،
أنه قبل أن يقفز من الطائرة سمعوا جميعاً صدمة فى طائرة علي يمينهم،
لكنها كانت دهشة معززة بالإشفاق . كانت الطائرة فوق الخليج، وسرعان
ما اختفت عن أعينهم، ولمحوا فى الأفق طائرتين إسرائيليتين . أغلب
الظن من طراز مستير 17 . أغلق الفنئ باب الطائرة . اقتربت إحدهما
وأطلقت قذيفة، تفادها الطيار بالانحراف قليلا، ثم ارتفع بسرعة، فلم
تصبنا طلقات الفيكرز، التى أطلقتها الطائرة الأخرى .

امتلا ثقة بقائد الطائرة، وشعرنا أننا فى مأمن معه . كدنا نتخطي مكان
الإنزال بالقرب من جبال سدر . متوسطة الارتفاع، أعلى قمة فيها فى
ارتفاع عمارة من أربعة أو خمسة طوابق . توقفت الطائرتان عن ملاحقتنا،
طرنا إلى نقطة التجمع، وبينما عجلات الطائرة تلامس الأرض، فوجئنا
بخمس طائرات تطلق القذائف، وتصيب بالفيكرز الأفراد الذين قفزوا .

قالت حمدية فى جزع :

- كنت قفزت .

- لا .. سبقتنا عدة طائرات، كنا كتيبة صاعقة من أربعمئة فرد، وكل
ثمانية فى طائرة هليكوبتر .

استردت أنفاسها .. تسير بخطوات وئيدة . فصل الزحام بينهما . تلفتت
حولها وقد انعقد جبينها، اقتربت منها إحدي الزميلات :
- مال القمر ماله ..

رفعت حاجبيها الرفيعين، وعلقت :

- بلاهَمْ

ضحكت زميلتها، وقالت فى دلال:

- اتركه لى

عقصت مابين حاجبيها وعاجلتها :

- «اتلمى» يا بنت

أوصلتهم أقدامهم، وقد تعبوا من التجوال فى الحصن وما حوله،
إلى كشك قريب فى وسط الصحراء . وجدت صفوت فى انتظارها وقد
أمسك فى يده زجاجة مياه غازية، وإلى جواره على حافة الكشك علبتان
من البسكوت، تطلعت بامتنان إلى عينيه السوداوين، جفناهما العلويان
متنفخان قليلا، فى وجهه المدبب الذقن، والذي يشبه وجهه تحتس
الثالث، كما يقول شقيقها حمدي . ويعطي سواد عينيه مع شعره القصير
الغزير، الأسود، المتدرج فى الانخفاض من الجبهة حتى الخلف ..
إحساساً بالألفة لمن يراه . تناولت الزجاجة باسمه :

- جاءت فى وقتها .

تناول زجاجة أخرى من فتحة فى الكشك، يقف فيها جندي، يلبي
طلبات من تكاثروا عليه . نضحت حبات من العرق على شفرتها العليا،
جففتها بمنديل ورقي وقالت :

- وعدتني بالغداء عند عيون موسى .

سمعها جندي المقصف، وقال :

- لا تذهبا .. فالإسرائيليون ليسوا بعيدين .

أحس صفوت بقلقلها، وهي تتململ فى وقفرتها، طمأنها بصوته
الخفيض المتأنى، وقد حذبت عليها قامته النحيفة .

أترأها، أخفقت فى الحضور ..؟! لا يدري لماذا وافقها على الذهاب
إلى شقتهم فى «عرايشة مصر».

حقاً، الشارع واسع، لكن منظر البيوت علي جانبيه، بألوانها الكالحة، يشبه منظر المساكن الشعبية، فى مداخل المدن، يوحى بالفقر، ولا يخلو الأمر من امرأة تفترش مدخل سلم بيت تنقي أرزا، أو أخرى تبيع حلوي رخيصة، وأطفال فى حال لا يسر، يصخبون حولها، أو بالقرب منها .
هل استخف حمدي بحجتها، عرض بعض الأوراق علي رئيسها المريضة، ومنعها، وقد استشف أنها تسعى للقائى، أو أن هذا سيحدث لا محالة .

لو علمت ما بي .. لركبت طائرة .
كانت الطائرة لا تقف تماماً . ما أن تمس عجلاتها الأرض، أو تقترب منها، حتي يسارع بعضهم إلي القفز، وتحلق الطائرة ثانية وتعود، سقطت عدة طائرات علي الأرض، كأنما رشقها عملاق بقوة . علموا أن قائد التشكيل مات . كان مصاباً بانزلاق غضروفي، وممنوع من القيادة الميدانية، لكنه أصر علي الاشتراك .
وحين حطت الطائرة بقوة، تأثر عموده الفقري، حيث كان فى المقدمة ، يشجع الأفراد علي القفز .

فتح باب الطوارئ، فى جنب بالقرب من المقدمة، وظل الطيار محتفظاً بمسافة بسيطة بينه وبين الأرض، لا يطمسها ولا يرتفع عنها . يميل يميناً وشمالاً ، حتى يفوت علي الطائرات المهاجمة دقة الإصابة . ترددت وأنا قرب الباب . صاح الفني :

- اقفز يا وحش .

لم أدر بنفسى إلا وأنا فى الهواء .
يبدو أن الطائرة كانت فى حالة تحليق بسيط، فاختل توازنى، لست أعى بالضبط ما حدث .. كل ما أعياه، سقطتي بقوة علي أحد جنبي، وشيئاً، انفجر تحتي بصوت مكتوم، وإحساسى بالبلل .
ضحكت حمدية، وقد مالت زجاجتها، فتساقط بعض الشراب على

البنطلون. كان فخذاهما، ملتصقين، تقريباً، وهو يستمرئ، إحساساً بالدفع والحنان، وقد استندا بظهريهما إلى خلفية الكشك، وبحث بعينه عن صفية، فحمد الله أنها غائبة وسط أفراد الرحلة .

- قم يا رجل الماء سال من زمزميتك .

ومد يده لي .

- ظننت ضلعاً كُسر .

نهضت حمديّة، وقد احمر وجهها، حين لاح وجه صفية تبحث عنهما، وترددت في شدة من يده الممدودة .

تجمعت فصيلتنا، وسرنا لنأخذ أماناً .

نجا نصف القوة تقريباً، وتولت أقدم رتبة القيادة، وكان رقيبنا قد أصيب، فتوليت مكانه . وأعيد تشكيل الكتيبة من جديد، احتلنا قمة جبال سدر، وقسمنا إلى مجموعات، تحتل طوال الليل، وتذهب للراحة نهاراً، مع ترك نقطة ملاحظة. وكان معنا تعيين يومين فقط . وظللنا على هذا الحال ستة أيام .

نظر وراءه، لم يلمح أحداً، وحجب عنه الشارع المبني ذو الطابقين، حيث تؤجر حجراته للمصطافين، والطلبات تخرج من مقصف علي يمين الداخل، وقد بدأت تتوافد بعض العائلات إلي الشاطئ .

هل وقع حادث في الطريق . طلبت منها ركوب الباص، ولا داعي لاستخدام البيجو، التي تغرى سائقها بسرعة غير مأمونة . طبعاً نفذت ما في رأسها، ركبت الأسرع، وغير المقيدة بمواعيد .

أم تراها صفية، وهي تعرف بحسها، ولابد، أنني في انتظارها، قد أخرتها، تشفياً بي، لأنني لم أصارحها .

هل تستعذب الآن رؤيتها لحمديّة، تفلّص، وتبالغ في إكرامها، مدعية عدم الفهم لتعبيراتها غير المفصحة، عقاباً لها هي الأخرى، لأنها لم تخبرها بموعدها، وإحساسها أن شيئاً يتم من خلف ظهرها .

أم تري حمدية أخبرتها، فلا أحد يستطيع أن يتكهن بالضبط ما يدور بين امرأتين، وأن الأمر لا يعدو، قيام صفية بواجب الضيافة، مستكثرة، أن تكون رئيستها، ولا تحتفي بها كما يجب .

هل علاقة صفية، غير المستتبة مع حمدي، قد انعكست علينا، وهى تعلم ما بيننا . لا .. لا أظنها تتصرف بوحى من ذلك .
هل أذهب إلي البيت .

لن نتركنا صفية، نعم بالحديث فى خلوة، ليس تطفلاً منها . سوف تجد من غير اللائق أن تترك مضيفتها .

وإذا طلبت منها إعداد طعام الغداء، ستغضب، لأنني لم أطلب مبكراً. وساعتها سأذهب .. وأشتري من أي مطعم، وتكون النتيجة أن تختلى هى بها .

اصبر .. لعلها فى الطريق ..

صبرنا، وفي اليوم السابع، بعد الفجر بقليل، لم نكد نذهب إلي مغارتنا، حتي أنبات الملاحظة، بقدم تشكيل إسرائيلى، عربية جيب وعربتان مدرعتان، محملتان بالجنود ودبابتان .

صاح القائد :

- كما كنت .

رجعوا جميعاً، وأخذوا مواقعهم أعلي الجبال، واستعدوا بالرشاشات طويلة المدى، ومدافع ال آر - ب - ج، المضادة للدبابات، ومدافع الهاون .

قال رئيس العمليات :

- تشكيل لجس النبض، لا داعى للتعامل معه .

قال القائد :

- الأوامر، ألا تمر نملة من المضيق .

- نحن فى انتظار طابور مدرع من الاحتياطى التعبوى؁ لنجدة حصون بارليف على شط القناة .

- استعداد .

- أمر سعادتك .

جلس كل منهم خلف مدفعه؁ وأصابهم على الزناد؁ فى انتظار الأمر بالضرب . كانت الأوامر تقضى؁ أن يتركوا التشكيل يمر دون أن تفارق أول عربة مدي مرمى سلاح أول جندي فى المقدمة؁ وأن يكون آخر جندي فى متناوله آخر التشكيل؁ وأن يضرب هو على المقدمة؁ ويضرب جندي المقدمة على المؤخرة؁ وهكذا يحاصرون التشكيل فلا يستطيع أن يتقدم أو ينسحب .

تسرع جندي المؤخرة؁ وضرب أول عربة مارة . فتحوا علينا النار؁ ففتحننا عليهم نيران جميع الأسلحة . تمكنا منهم؁ عدا الدبابة الأخيرة؁ استدارت هاربة .

أحس بجوع خفيف؁ وسئم رواح ومجئ عامل المقصف أمامه .

أحد الضباط يمر على مواقعنا؁ يختلس من الطعام؁ ويشرب مما بقى من الماء؁ تدبرت الأمر؁ وقسمت التعيين على أكبر فترة ممكنة؁ وكنا قبل المهمة؁ نعرف بوجود بئر على بعد ستة كيلو مترات من مواقعنا . نجتمع الزمزميات؁ وأذهب لملئها يومياً . عاتبت الضابط فمنعنى فى اليوم التالى من الذهاب إلى البئر . ذهبت فاشتكاني للقائد . صارحته بما حدث؁ فلم يجازنى؁ وعلمت فيما بعد أنه وبخه؁ وكلفه بمهمة لا يتحرك فيها من مكانه .

التفت؁ حين خيل إليه أنه سمع وقع كعب حذاءها العالى؁ على بلاط المشاية؁ المؤدية إلى الشاطئ .. مدد ساقيه فى استرخاء . لم نكد نهناً بانتصارنا؁ حتى فوجئنا بالطائرات تدك مواقعنا بكثافة . ليست معنا مدفعية

مضادة للطائرات . تكفلت نتوء الصخور بحمايتنا، ولم يصب منا سوي
فردين . كنا نحس بالقذائف تنز في الصخور، ثم تخدم كمدا . أما قنابل
الطائرات، فكانت الجبال تمتص عنفوانها، وتفتت التتوءات شظاياها .
أنبأت الملاحظة عن تشكيل من الدبابات الإسرائيلية قادم من بعيد.
وسرعان مازامت طائراتهم وألقت ما في جعبتها من قنابل، وأمطرتنا
بطلقات مدافع الفيركرز .

أترهم يريدون العبور، أثناء انشغالنا بالطائرات . حددنا مواقعنا
وموقع دبابات الإسرائيليين، ونوع الطائرات المغيرة . هلل الجنود، عندما
حضرت مقاتلاتنا، معرضين أنفسهم للقتل . نهرهم القائد .
انتظرنا إفادة الملاحظة، التي جاءت، بعد أن التهمنا القلق . دُمرت
بعض الدبابات، وهربت بعضها، واشتبكت طائراتنا مع طائراتهم، ظللنا
في انتظار نتيجة المعركة، حتي خلت السماء من جميع الطائرات .
أمر القائد بسرعة إخلاء مواقعنا، فلا شك أنهم رصدوها بدقة . وأن
نحتل في سلسلة الجبال من الجانب الثاني للمر . جهزنا مواقع جديدة
في الصخر بالأزاميل . حلقت هيلكوبتر إسرائيلية علي ارتفاع منخفض .
طلب قائد فصيلتنا التعامل معها، رفض القائد حتي لا نكشف أماكننا
الجديدة . ألقت الطائرة قنابل دخان فوق مواقعنا القديمة، وانشقت
السماء عن مقاتلات إسرائيلية، قصفت المواقع القديمة بالقنابل، وبعد
قليل حومت طائرات أخرى وألقت بالمظليين فوق المواقع، وأخذوا
يطهرونها بالرشاشات . أنبأت الملاحظة أن مظليين آخرين سقطوا عن
يميننا . أيقن القائد أنهم يريدون تطويقنا .

هل أخطأت لأنني تركت حمديّة تقابل صفية أولاً . أردت أن تخلص
من مهمتها، ويروق لنا الجو .. وهاهي آخرتها .
أغارت الطائرات على مواقعنا الجديدة، ولم تلتفت إلى أمكنة

قنابل الدخان. أحسنا من مرارة صوت القائد فى اللاسلكى وهو يلقي بتعليمات جديدة، إحساسه بالخطأ لعدم مطاوعتنا فى ضرب الهليكوبتر، وأنها خدعتنا بقنابل الدخان، ورصدت مواقعنا وأبلغتها لقيادتها . أمر القائد بتركيز نيراننا على من يميننا، حتى لا ينجح التطويق . وحين تراجعوا، وجهنا نيراننا إلي من احتلوا مواقعنا القديمة . أخبرت الملاحظة عن مدرعتين آتيتين من الشمال .. آه .. فشلوا فى تطويقنا بالمظليين، يحاولون بالمدرعات . أمر قائد فصيلة ال آر - ب - ج بالتسلل إلي أسفل والتعامل مع الدبابات . وأخذ يؤكد على ما سبق أن تعلموه :

تذكروا .. مدي ثلاثئة متر تكون القذيفة مؤثرة، وخمسمئة متر تبقي طوبة.

كان القائد، يخشى لو تعاملوا مع الدبابات من أعلي، أن تنكشف مصادر النيران للمظليين فى المواقع القديمة فى مواجهتهم .

فوجئت الفصيلة المتسللة بثلاث دبابات أخرى، تسير بحذر فى جانب من الوادي. دمرت العربتين المدرعتين ودبابتين، وفرت الثالثة، تتعرج فى مشيتها، ولا تبتعد عن الحد الصخري فى جنب الوادي، حتى لا تطولها قذائفنا .

أمر القائد، باللاسلكى، وحدة رشاشات، أن تبتعد قليلا عن باقى المواقع، حتى لا تكشفها عندما تفتح نيرانها . وأمرها بالتدخل، إذا أطلق المظليون النار لنجدة زملائهم، وأمر الفصيلة المتسللة أن تبقى فى أماكنها بعض الوقت، حتى يتأكدوا من عدم ورود دبابات أخرى .

وعندما يتأكد لهم ذلك، ييثون ألغامًا مضادة للدبابات فى الجانب الأيسر، الذى أتوا منه، حتى لا يستطيعوا التطويق ثانية .

فتحنا النار على المظليين أمامنا. وأمرت فصيلتنا بالتسلل إلى مواقعهم.

عندما اقتربنا من نقطة ملاحظتهم، لاح لنا جنديان فى متناول اليد . أطبقنا عليهما فجأة . وأمرني قائد الفصيلة أن أعود بالأسيرين .

زعى قائد الكتيبة :

- من أين أطعمهما .. ؟!

وفجأة صاح :

- أنت .. ؟!

عندما سقط جريحاً زميلٌ من فصيلتنا، عند الهبوط، لم أتركه كما تقضى الأوامر، كان زميلي الذي أنهضني حين تعثرت . وكانت النتيجة أن تأخرت فصيلتنا عن باقي الكتيبة، ولولا أننى تذكرت السبورة الرملية، والمواقع مجسمة عليها، ما أمكننا الوصول . لكنهم حين رأونا نتقدم نحوهم أطلقوا النار باتجاهنا . صاح قائد الفصيلة:

- يا أولاد الكلب .. نحن مصريون ..

استمر إطلاق الرصاص .

- نحن مصريون ..

وظل يزعى، حتى نبههم، قائد الكتيبة، كما علمنا فيما بعد، فكفوا عن الإطلاق، ولحظنا لم يصب أحد .

صاح قائد الكتيبة :

- اسمع ..

تطلعت إليه، متوقعاً توبيخاً، لكنه استمر :

- أمن عليهما فى إحدى المغارات .

هبط المساء فوضعوا أجهزة الرؤية الليلية، فى مقدمة البنادق الآلية . وأفادت الملاحظة بانسحاب المظليين . تعجبوا . هل يريدونهم فى مكان آخر .. هل حدثت خسائر عالية بينهم، فأثروا سحب من بقى حياً . علي أية حال، لم يضع القائد وقته، وأمر ببث الألغام المضادة للدبابات فى الجنب الأيمن من وادي سدر .

لابد من تصبيرة، منك لله يا حمدية، أو ياصفية، التفت ناحية المقصف..

حضرت هليكوبر مصرية، وألقت بالطعام . وأخبروهم لاسلكيًا، أن عربة محملة بالطعام والذخائر، كانت فى الطريق إليهم، تعاملت معها طائرة إسرائيلية، فدفنوا الطعام والذخائر فى مكان حددوه لهم .

مرت عدة أيام، دون أن يروا أية دبابة إسرائيلية . استخفهم شعور بالفرح، لنجاح مهمتهم، وأن القوات التى تتقدم فى عمق سيناء برؤوس كبار، لا تهددها أي هجمات إسرائيلية مضادة، من ناحية مضيق سدر . ومع ذلك .. كانت عيونهم طوال الوقت تمسح الوادي ومدخله الشرقي، والجبال حوله خشية أية مباغته .

انبعثت نظرات حمدية، قلقه، وإن تظاهرت بالاطمئنان، عندما احتدم النقاش مع أخيها.

فجأة ضحك حمدي مسترسلًا، فأشعت عينها بالرضا، قال حمدي:
- وهل ننسي ما قاله بيجن .

جاراه صفوت فى الضحك، وقد تذكر ما نشرته الجرائد، عن عرض الرئيس السادات بفتح قناة السويس، خدمة للملاحة العالمية، نظير انسحاب جزئى من سيناء. وصرح عضو الكنيست وقتها بيجن : الأفضل له أن يأخذ « ذكرى » ، ونطق اللفظ الأخير بالبولندية، لغته .

همس حمدي فى أذنه :

- أعطاهم السادات « ذكره » .

انفجرا ضاحكين، وعيونهما علي حمدية.

واسترسل صفوت فى الضحك، فقد كان بيجن، رئيس الوزراء، هو الذي وافق على الانسحاب من سيناء كلها .

أحس بعبق يتخلل الهواء . نفس الرائحة التي أسكرته في موقع أبي جاموس .

عطر الفل الممزوج برائحة عرقها، ماذا في رائحة عرق الأنثي يجذب المرء..؟! وأحس بيديها المنداتين، فأدرك أنها أسرعت في المشي لتلحق به . أحاطت براحتيها جانبي جبهته، وامتدت الأصابع المضمومة جوار عينيه، حتي لا تتحول نظرتة، وأحس بجذعها اللدن خلف رأسه .. والرائحة تدخله أكثر فأكثر .. يحاول التملص دون جدية .. فلا تمكنه يداها .





صعد حمدي الطريق المؤدية إلى البحر، لتفقد بعض الأغوار . عند التقاطع، إلى يمينه حيث الشارع المؤدي إلى بوابة رفح الحدودية 0 طالعه عربات محملة بالبطيخ وجوز الهند واللوز . من أحجام البطيخ الصغيرة، قدر أنه بطيخ سيناوى . وحين تذكر أن ندا، استأذنت ولن تحضر اليوم، عرج إلى مقهى فى بداية الشارع ليشرب الشاي . ويستريح قليلا. لفت نظره، أرضية المقهى الواطئة 0 وخشب تراييزاته وكراسيه وبابه ونوافذه، تشي بالقدم، تقشر عنها طلاؤها، وحب فى بعض المواضع، وتغير لونه، بفعل الشمس.

أحضر له رجل عجوز «معمم» ما طلب من شاي، قلب بملعقة رفيعة متآكلة الحواف فى كفها . لم يخرط الشاي، وبقي الماء عكرا، أوماً للعجوز، وحين اقترب منه سأله :

- ألا يوجد شاي أكياس ؟

نفي الشيخ بهزة من رأسه .

- أي نوع هذا

- سوزكى

- نعم ..؟

- من إسرائيل

- أعوذ بالله .. هات قهوة أحسن .

ضحك العجوز، وانفرجت شفتاه عن أسنان مهشمة، سود مابقي منها دخان المعسل.

- بورسعيد ملأى بالبضاعة .. وهناك شاي جيد .
- رد العجوز، وهو يتحاشي عينيه :
- الأولاد يستقربون .
- وأشار ناحية البوابة ..

خمن حمدي ما يحدث . فهذه البوابة . لا تعبر منها العربات . يعبر منها الراجلون من أبناء رفح سيناء خاصة، إلى رفح فلسطين .. حيث يعملون هناك نهاراً، ويبيتون عندنا ليلاً .. وكثير من العائلات مقسمة بين الجانيين .. وأثناء عودتهم .. يكونون محملين ببضائع مختلفة .

أدار ظهره للشارع، ولم يكذب يخطو في الطريق الرئيسية، حتى مرت به عربة جيب كالسهم، فوقف مكانه مرعوباً، وكاد يفقد توازنه . لحظه صاحب عربة يد بالقرب منه، فقال :

- أمريكيان .. دائماً هكذا ..

لم يعلق، ولاك في خاطره .. الجيب غالباً تابعة لمحطة الإنذار المبكر .. يندرون الإسرائيليون من ماذا .. ؟!

وطفا إلى ذهنه، ما سمعه من أولاد، في إحدى حارات شبرا، حين كان في زيارة لصديق له :

«كنت ماشى فى شارع النجاشي قابلت بنت حلوة، قالت لى :

رايح فين ..

قلت لها :

رايح سينا .. أحرر أراضينا ..»

صعد فى الشارع، إلى يساره، بيوت من دور واحد، ترتفع وتنخفض، تبعاً لارتفاع التراب الرملية، التى تحف بالطريق . وعبقته روائح أشجار الكروم والنخيل الطالة من أحواشها، والمعرشة على بعض جدرانها .

مختلطة بهواء البحر الرطب، وأحس ناحية هذه البيوت بدفء وحنان غريب .. آه .. لو توافقنى صفيّة، وتأتى لعيش هنا.

طالعه صفحة مياه البحر، شديدة الزرقة، أحس لها عمقا ورهبة، وكلما أوغل النظر فى البحر، خال صفحة المياه ترتفع . وأخذ شاطئ البحر زاوية قائمة، ضلعها الأيمن شاطئ فلسطين .

لاحت رُبى عالية، أُقيمت فوقها، وعلى المنحدرات، بيوت متناثرة، تقترب فى خطي وئيدة حتى تكاد تلامس خط حدودنا . وانتصبت أشجار فى المناطق الخالية فروعها ملتفة حول بعضها بعضاً . أقنعنا الإنجليز ردحاً من الزمن، أن سيناء لاتصح فيها سوي أشجار الخروع ؟ أين هم الآن ليروا البرقوق والمانجو واللوز والتفاح وما تبعثه من شذا، أنعش جو سيناء الجاف . وتساءل : تري .. هل هذه بيوت إسرائيليين أم فلسطينيين .. ولماذا تقترب حتى تكاد تقتحم حدودنا .. بينما بيوتنا تبتعد .. ؟!

وأحس بالألفة نحو البيوت إلى يساره، مع أنه لم ير إنساناً يطل منها، فليست لها نوافذ على الطريق، وأبواب الأحواش، لم ير أحداً يخرج أو يدخل منها . فقط فروع أشجار تطل من فوق حافة باب، أو جدار . لو يلبي دعوة تلك الأشجار الطالة، ويطرق أحد الأبواب .

سار بحذاء البحر، ارتقى ربوة، مطلة على غور إلى يساره . تمعن فى شتلات الخوخ جيداً .. أكثر نضارة .. وفى طريقها لأن يشتد عودها .. عمت نفسه بهجة . ود لو يشاركه فيها أحد .. وتلقائية تحسس بإبهامه موضع الدبلة فى إصبعه .. عندما جاءته دفعة أخرى من شتلات الخوخ، قبل حرب 73، أخبره محمد عايش، أنها مهجنة على برقوق .

- ولماذا برقوق وهو ناعم مثل الخوخ، وملء بالماء مثله .. ؟
رد عايش :

- جذور البرقوق أطول، حتى يطول الخوخ المياه الجوفية .
لكن حمدي خشي، إذا هجن، هذه الشتلة على خوخ الوادي، أن يفقد

بعض مميزات الخوخ السيناوي، التي يود الاحتفاظ بها . لذلك طلب شتلات غير مهجنة . وقام بزرع شتلة لوز ووضع عليها فرع خوخ سيناوي غير مهجن . وحينما نمت الشتلة، قص باقي الفروع، وترك العود السيناوي على الساق اللوزي، وبعدها، أخذ فرعاً من الناتج الجديد، ووضعته علي شتلة من خوخ الوادي، وحين نما، فعل الشيء نفسه وأخذ الجديد، وأكثر منه، وهكذا أفاد من الجذور الطويلة لشجرة اللوز، وخشونة ثمرها .

وكثيراً ما تساءل.. متي تعبر قواتنا القناة .. يطول الانتظار .. هل يذهب تبعه هباء.. تحدثم مظاهرات طلبة الجامعة .. تتعجل طرد الإسرائيليين من سيناء . فتنتعش نفسه بالأمل .. آه .. طول العمر يبلغ الأمل .. هل يجدي هذا مع صافية .. أم أن طول العمر في حالتنا .. يوهن العزم ويضعف القدرة والرغبة ..

أيام الأسر، كان يحلو له ساعة العصري، أن يسحب صفيحة قديمة من المطبخ .. يضعها مقبوبة، بالقرب من الخط الأبيض، المحظور عليهم تجاوزه، في حذاء الأسلاك الشائكة التي تسور المعسكر . ويسرح فيما وراء التباب الصخرية، التي نمت بينها حشاش ونباتات برية . ومع الوقت مهد قطعة أرض بحذاء الخط الأبيض، وقسمها إلي أحواض صغيرة، وضع فيها هياكل من عيدان الكبريت والورق، تمثل فلاحين .

من يركب حماراً .. ومن يضع غبيطاً فوق ظهر الحمار .. ومن انحنى وقد أمسك بفأس .. وشق ترعة رفيعة حول الأرض . صب فيها الماء بكوب بلاستيكي . تعود الحراس منه رعاية الأرض كل يوم فتركوه . واعتاد زملاؤه أن يسألوه :

- كيف حال الزرعة .. ؟

- متى الري الشتوية .. ؟

يرد عليهم، بما يريحهم، وعيناه لا تغفلان عن الخبثاء منهم، خشية أن

يغافله أحدهم ويلقي بماء مضمضة الأسنان، المخلوط بالمعجون، فى قناته، فيتلف الزرع. كان الصليب الأحمر، بعد طول غياب، قد أحضر هدية من مصر، لكل أسير حقيقية ورقية، بها غيارات داخلية، وعطر، وصابون، ومعجون أسنان وفرشاة . وكان من المؤلف أن تري الأسري، وقد انتشروا فى باحة أمام العنابر الخشبية، وإلى جوار سور الأسلاك الشائكة التى تحيط بالمعسكر، مزهوين أمام الحراس بالغيارات الجديدة، وقد أمسك كل منهم كوبا بلاستيكيًا مملوءً بالماء وفرشاة أسنان، محاولاً إزالة ما تراكم طوال عدة شهور. لم يتخلف عن ملاحظة المزرعة إلا يوم أذاعوا فى مكبرات الصوت تسجيلًا، التقطوه، لمحادثة هاتفية بين الرئيس المصري عبد الناصر والملك الأردنى حسين . يقول عبد الناصر : أنت تعمل بياناً .. ونحن سنذيع بياناً أن الطائرات الأمريكية قصفت مطارتنا. ظلوا يذيعون التسجيل عدة مرات فى اليوم الواحد .. لما يقرب من أسبوع.

ولم يفارق الطنين آذاننا، حتى عند النوم « أنت تعمل بياناً .. ونحن سنذيع بياناً » كانت إسرائيل قد دفعت بكل طائراتها، لمهاجمة الطائرات المصرية على الأرض، فى المطارات شمالاً وجنوباً فى وقت واحد . ولم يصدق أحد أن تدفع إسرائيل بكل طائراتها، تاركة مجالها الجوى دون حماية . لكن حاملات الطائرات الأمريكية كانت على مقربة، وأعلنت حالة الاستعداد القصوى فى القاعدة البريطانية فى قبرص .

تلفت أعصابنا، وأهملت الأرض والزراعة .. ثم وجدت نفسى، ولا أدري كيف، أعاود العناية بهما .

عاد حمدي ثانية، ولحظ أن عينيه لا تفارقان البيوت على يمينه . وخيل إليه أنه سَبَر كُنه ما يشده نحوها . يحس على نحو ما، أنها موغلة فى الزمن، وأنها تصله على نحو ما بالقدم .

تجاوز الشارع المؤدي إلى البوابة .. واقترب من ميدان تعاملت عليه طريقان. إحداهما تؤدي إلى العريش، والأخرى تؤدي إلي منفذ رفح البري، حيث تعبر السيارات والمسافرون إلى غزة .

هنا فى هذا الميدان، أو بالقرب منه، كان مقهى فوقه برج خشبى، وكانت أمامه تلك الباحة . أقام الإسرائيليون فيها معسكراً مؤقتاً لتجمع الأسرى، أوقفوهم ووجوههم لصق الحائط، وشرعوا يفتشون عن أسلحة فى طيات ملابسهم، بينما تدوي طلقات الرصاص .

اقترب منه أحد العسكر . جرده من ساعته وحافظته، وحين حاول سلت دبلة زميل بجواره عصلجت، دق قلبه بعنف . منذ قليل فعلت دبلة خطوبة الشيء نفسه مع عسكرى آخر، فما كان منه إلا أن أحضر السونكى وأطار الإصبع بما حملت. انبثق الدم غزيراً . أخذوه بعيداً وسمعنا دوي رصاص .

طلبوا منهم الانبطاح على بطونهم، بينما طلقات الرصاص تدوي فوق رؤوسهم. طارت الحمايم من البرج الخشبى مذعورة . أطلق بعضهم النار عليها. تهاوت إحداها، فتعالى صخبهم، وهم يרטنون بالعبرية .





ما ذنبى .. ؟!

أظل واقفًا، حتى ينتهي من فحص الشتلات. ألم يفعل قبل أن يأتي بها،
وكانما قرأ حمدي ما جال في خاطره، قال :
- حالاً .

واستمر في فحص جذور الشتلات، ذات الجذر الضعيف يستبعدا .
ويضع الشتلات المتجانسة معاً .

لاحت ندا من بعيد، أشار لها حمدي، فقدمت لمساعدته .
لاحظها حمدي برهة، وحين ارتاح لسلامة عملها، تركها وانصرف
يفحص التربة، ويتحقق من وجوء ماء، أو رطوبة، من عمق ثلاثين إلي
خمسین سنتيمترا .

- قعدت .. ؟!

لم يعلق سعد . وأخذ يتأمل ندا وهي تمسك الشتلات في رقة . وضعت
بعضها في التربة، وضغطت في رفق الرمال حولها .

أحس بنفسه تهفو لها، وأخذ يتأكد من صدق شعوره، وهو يعجب من
أمره، من فترة وجيزة، كان سيذهب إلي السعودية برفقة امرأة، حصلت
على عمل هناك، ولما كان يلزمها رجل، يعصمها من الفتنة كما يقضى
قانونهم، لتحصل علي تأشيرة الدخول، فتد اقترحت عليه الزواج . وإزاء
تردده، لحدائثة معرفته بها، سهلت له الأمر.. ليكن زواجاً صورياً، أنا
أشوف شغلي، وأنت ربنا يسهل لك .

حين أخذ رأي حمدي، فزع .

- ليكن سوريا ..

عجز عن كبح غضبه، وقال :

- أما كفانا من السوري ..

لم يفهم سعد سر اشتعال غضبه بهذه الصورة . قال حمدي :

- الفلسطينيون باعوا أرضهم .

رد سعد بتلقائية :

- يستاهلون ما جري لهم .

كأنما داس له على طرف، انتفض :

- هأنت قلتها .. أيام العثمانيين، كان الفلاحون الفلسطينيون، تهرباً

من الضرائب الباهظة، ينسبون أراضيهم إلى أسماء عائلات مشهورة مثل

سرسق وسلام، وحين جاء الصهاينة إلى فلسطين وجدوا الأرض مقيدة

في السجلات باسم هذه العائلات .. وأغلبها مقيم في لبنان، ولا يعلم شيئاً

عن هذه الأراضي .. فاشتروها .. سورياً .

ثم ساخرا :

- ماذا لو قرطستك هذه المرأة .. ؟!

انصرف إلى عمله، بينما أطرق سعد صامتاً، وهو يقول في نفسه : لا

تخف يا باشمهندس .. لن يعطش النبات .

كان أمام القناة، وقد شعر بالعطش . في الحقيقة ليس عطشاً، لكن

جفافاً في الحلق . فجأة عرف أنهم علي وشك الاقتحام . جرعة واحدة من

الزمنمية، ولم تمتد يده إلى حزامه الممتلئ بالأدوات والقنابل وطلقات

الرصاص، فقد انطلق الصوت فجأة، فى مكبرات الصوت، دون أي اتفاق أو تعليمات :

- الله أكبر .

طغت على صوت تحرك المركبات، وأزيز الطائرات .

- الله أكبر .

و كأن قوي سحرية، قد ركبت الجنود والمعدات، يقتحمون، غير عابئين بشئ، كأنهم يحملون رقيات ضد الموت ..

- الله أكبر ..

وفي اليوم الثانى أو الثالث، لم يكن أحد منهم قد أدرك حقيقة ما حدث .

- الله أكبر ..

قال له حمدي مرة :

اقشعر جسدي، ونسيت، زرعى وسنينه .. مليون جندي .. أكثر .. علي طول القناة من السويس إلى بورسعيد .

- الله أكبر ..

وبعد أن أفقت، تعجبت، فلم يصب زرعى بسوء .

فعلاً، لحظات غريبة . كنت أنتظر مع كتيبتى دورنا فى العبور . جندي، بعلامة حمراء على ذراعه ينظم مرور المركبات إلى المعابر . يشير بهدوء إلى هذا الطابور أن انتظر، ولهذا أن أعبر، ولذلك أن تنحى إلى جانب، بينما القذائف تحول مياه القناة إلى نافورات فى الهواء، وعندما عبرت إلى الضفة الغربية، وجدت زميلاً له ينظم المرور، أيضاً، أمام فتحة فى الساتر الترابى، والطائرات تحوم من حوله، وطلقات الرصاص تتر فى الهواء .

واختلط عليَّ الأمر . هل هو نفس الجندي الذي كان ينظم المرور في الضفة الغربية .

اعتدلت ندا، وذهبت لتأخذ حزمة أخرى من الشتلات. تعثرت، وقد لاحظت أن هناك من يربقها . أفلتت منها بعض الشتلات. انحنت في لهوكة، تلتقطها، قبل أن تصل إلى الأرض . وفي لهوكتها، كادت تسقط باقي الشتلات .

نظرت إلى سعد، الذي لم يسقط عينيه عنها . تصاعد الدم إلي وجنتيها، والتفتت إلى الناحية الأخرى .

وتشاغل سعد بالنظر إلى بعض السيناوية، على مقربة، وقد شمروا عن سيقانهم وسواعدهم، وانحنوا على الأرض .

على الطرق الزراعية في بحري، خاصة في الشرقية والدقهلية، رآهم بملابسهم الفضفاضة فوق أجسادهم، سوداء وحمراء، تتدلى أقراط مستديرة، كبيرة الحجم من آذان نسائهم، وتحيط رقابهن مشغولات نحاسية شبكية، تحدها أهلة صغيرة متجاوزة، تتدلى منها حبات من الخرز اللبني، في الغالب. ويعلقن في خرم من أحد جانبي أنوفهن أقراطاً نحاسية صغيرة . يتسولون حبات من البرتقال والخوخ، رآهم يبيعونها في بعض الأسواق. وفي مداخل المنصورة والزقاريق، كثيراً ما اعترضت سيارته، قطعان أغنامهم ومعيزهم، وهم آحاد في وسطها، يحفزونها علي الإسراع، اتقاءً لأصوات أبواق السيارات.

عاد بناظره إليها .. أتراها عشت داخله .

أمسكت الشتلات بيد، وبالأخرى تحبك طرحة، سوداء حول رأسها . شئ ما علق بكمها الواسع . رفعت يدها إلي أعلي، وهزتها لتتخلص مما علق .

رفعت يدي في جنبي السليم إلي أعلي . فى محاولة لدفع الدم إلي قلبي . هل أغمي على فترة . لم أنتبه إلا على صوت دبابة تقترب . لابد أن يقترب منها أحدنا لمسافة عشرة أمتار . وإلا فإن طلبة الـ آر - ب - ج ، ستنزلق عن درعها (تعمل سكرما) .

لم تصبني الدبابة لأنها كانت فى الواطئ من جانب الطريق، وأنا فى الواطئ من الناحية الأخرى . اقترب أحدنا، وألقي عليها قبلة مضادة للدبابات، لم تنفجر، فمن لهوجته لم ينزع صمام الأمان . زعقت عليه . التقطها وأعاد المحاولة، أصاب الجنزير، وظللنا نضرب بالأسلحة الخفيفة التى معنا للمناوشة، حتى لا يخرج أحد لإصلاح الجنزير، خاصة وموتورها ما زال يعمل .

أشار حمدي له، ليمضيا . وأخذ يعطي تعليماته للعمال بخصوص التسميد وكيفية وضعه، وكان قد أوصي به بلدياً قديماً، وطمانهم أنه قد مضى ما يقرب من العام على تزرير الشتلة (تطعيمها) وأن هذا الجو البارد، يقلل جريان العصارة فى النبات وهذا أصلح للغرس .

أعطونى محلولا ملحياً ودماً، وإبرة مصل، وكورامين ونوفالجين . ولم أشعر بشئ حتى صباح اليوم التالي . عندما فتحت عيني، أحاط بي بعض الجنود وهم يضحكون، زادوا من ضحكهم، وتريقتهم . وتعطف علي أحدهم :
- كنت مهوساً فى نومك .

الساتر الترايى ارتفاعه عشرون مترا . هاتوا المجاديف لنوسع الفتحة . الإسرائيليون هربوا . الإسرائيليون أغلقوا عليهم أبواب الحصون . القبلة «م د» لم تنفجر .

الدبابة الباتون عاطلة . لا .. ستدوسنا .. حاسب .. ما زالت تدور . لا ..
نحن في رمضان .

يا بنى هذا أمر . الإفطار فى الحادية عشرة صباحاً ، والضابط أول من
يفطر ، الاقتحام فى الثانية وعشرين دقيقة ، القوارب تُفتح فى الواحدة
 وخمس وأربعين دقيقة ، الطائرات فى الواحدة وخمس وخمسين دقيقة ،
 المدفعية فى الثانية وخمس دقائق . لا .. لم نشاهد الطائرات وهى ذاهبة .
 شاهدناها فقط وهى عائدة . ثمانية فى القارب ثلاثة فى كل جانب ، واحد
 بالرشاش حراسة من الأمام ، وواحد فى الخلف . كل واحد يعرف مكانه .
 وانفجر الجندي ضاحكا .

- ما الذي يضحك .. ؟!

- فى هوسك لم تنس المواعيد .

وحين انتبه إلي أنه فى مستشفى ميدانى بالغرب ، تلفت حوله باضطراب ،
 لا يدري كيف يلحق بوحده فى الشرق . وانتهاز فرصة استشهاد سائق
 دبابة ، وتأخر وصول الاستعواض ، وقد حان موعد العبور . شفعت له
 خبرته كسائق جرار ، وركب معهم .





فى غبشة المساء، تذكر حمدي أنه علي لحم بطنه، مر جوار الجامع العباسى . خُيل إليه أنه لمح سعداً عند الأعمدة القصيرة . أترأه فى انتظار ندا . هَمَّ بالاستدارة ليتيقن، لكنه خشي أن يفسد عليه أمراً، يكون قد دبره، وأكد لنفسه، أنه لا يمكن أن يخطئه بوقفته المتراخية ؟ وقد تقوس ظهره قليلاً فبدأ أكثر نحافة مما هو، وأكثر طولاً مما هو، وأومأت رأسه المائلة إلى الأمام بالانكسار . ولكن .. لماذا الانكسار .. ؟! .. أترأها كعادة البنات اللعوب فى الحضر، لا ترسيه علي بر، فأصبح لا يعرف رأسه من قدميه .

لا .. هى بدوية .. وأغلب الظن صريحة، ومباشرة . والانكسار من داخله هو، لأنه غير واثق بما هو مقدم عليه، أو غير واثق بحبها له .

أياً ما كان، لم يكن هناك داع، لتلك الوقفة الضائعة، عند تلك الأعمدة من قلعة سليمان . وأين يواعدها إذن .. ؟! على أحد المقاهى السياحية على شاطئ العريش، ذات النفقة العالية، وتعرض نفسها لأن يراها أحد يعرفها، ويلوك سيرتها العرايشية . وربما منعوها من العمل .

لا ينقصه فى وقفته هذه، إلا أن يمسك عريضة، أو التماساً، ويقدمه لها حين حضورها . قدم فيثاغورث طلباً إلى كهنة معبد عين شمس، ليتعلم فى معبدهم، تركوه عدة أيام أمام الباب . وفى كل يوم يكرر المحاولة، دون أن يئس، حتى سمحوا له بالدخول .

لماذا تركوه واقفاً طوال هذه الأيام، وهم يعلمون أنهم سيوافقون فى النهاية؟!

هل أرادوا إعلامه أن الأمر ليس سهلاً، وأن عليه أن يعرف قيمة ما هو مقبل عليه، فإذا عانى من الذل والرجاء، لن يفرط بسهولة فيما يحصل عليه .

أم أرادوا اختبار درجة احتماله جو الصحراء، شديد الحرارة نهاراً، شديد البرودة ليلاً . أترأهم أرادوا تلقينه أول درس، وهو التعود علي إيقاع الصحراء الهادئ، وتعلم التأمل . فلا شك أن من يبيت وحده فى الصحراء عدة ليالٍ، سوف يتعلم التأمل وروية الفكر، وهذا ما يريده المعلمون فى الداخل، حتى إذا ما استوي علي دكة الدرس، استخدم عقله، وقد اعتاد علي الإيقاع الهادئ المتأنى، فيفكر جيداً وينتج الحكمة .

لقد أثمر التعليم مع فيثاغورث، فلم يكده يعود إلى بلاده اليونان، حتى أبدع نظريته الهندسية الشهيرة .

وأنت يا ندا، ماذا تريد أن تعلميه، أنه رغم وضوحك، وتلقائيتك، لست سهلة .

ولماذا لا تصدقني علي الفور . نيته الصادقة تنطق بها سمرة دقيق السن فى وجهه المتناسق الملامح وشعره القصير المفلفل، ونظراته الهادئة من عينيه السوداوين ..

زادت زقزقة عصافير بطنه، فعرج علي أول مطعم صادفه . فول وطعمية . وراءنا ورعنا . يارب أين المفر ..؟! المهم أن تكون الطعمية ساخنة . جس قرصاً ولا حتى هذه «لا» لن أصبر على هذا وإلا انتهيت . غداً آخذ « الجيب» وأذهب إلي البردويل وأحضر أكلة سمك معتبرة .

وقفت أضراسه عن المضغ، وقد صك أذنيه بيان مهم . قامت مجموعة إسلامية متطرفة، بتفجير عبوة ناسفة فى مقهى بميدان التحرير بالقاهرة . وقد ظهر من التحريات الأولى وجود عناصر أجنبية وراءه ..

جلالتك تصدرون بياناً، ونحن سنصدر بياناً . فعلها عبد الناصر، ولكن لم نسمع أن الحسين بن طلال فعلها، أترأه استحقى، وقد علم أن الإسرائيليين التقطوا محادثته مع عبد الناصر .

سار صاعداً باتجاه الشاطئ . حيث أغلب الشوارع تصب عليه . وقبل أن يصل إلي الشارع المحاذي للشاطئ . الممتلىء بالفنادق السياحية، ذات الشواطئ الخاصة، عرج يميناً حيث تفرعة مسفلتة، تؤدي إلي ثلة حديثة من البيوت ذات الدور والدورين، أقيمت في مدخل العريش الشرقي، علي جزء من الشاطئ العريض في هذه الناحية . استأجر حمدى شقة مفروشة، مع أنها خالية من أي فرش . راغباً في خصوصية . لا تتيحها له الإقامة في استراحة الزراعة، ومقتنياً شعاعات مرتعشة لشمعة صغيرة فى أحد دهاليز نفسه .. ها .. من يدري .. ربما تخلت صفية عن عنادها .. وتحول الإيجار المفروش إلى دائم .. وهو علي أي حال، حتي وهو مفروش، أرخص من الإيجار العادي فى أى مدينة أخرى .

مشى بين أشجار الكافور الباسقة بين البيوت، وقد أطلت من بعض أحواشها أشجار النخيل .

ينزل المنحدر المؤدي إلى بيته، فى آخر البيوت، وبعدها مساحة تمرح فيها الخيل تفصله عن البحر .

هل هذه بقع داكنة، أم خاننى النظر، أولي بيته ظهره ولوح بإحدى يديه، لم يلحظ حركة ولم يسمع صوتاً . دقق أكثر .

طيور نائمة فيما أحسب، من تعب الرحلة . وهو يدلف من الباب، انبثق
فى ذهنه.. خيبة أن تكون طيور العجاج .

عليه أن يقوم مبكراً، ويحضر أنفارا لحراسة الأغوار، حقا العجاج ليس
له فى الزرع، ولكن .. من يدري .. ماذا سيفعل، وهو الجائع بعد طول
السفر من أوربا، حين يجد البردويل خالية من السمك ..؟! بالطبع لن
يجلس علي الشاطئ، مثل الصيادين، وقواربهم، إما مقلوبة علي الرمال،
أو ساكنة، تترك نفسها، لتلاعب الموج بها، وهو لن يذهب مثلهم إلي
المسؤولين فى العريش، للبحث عن حل .. والمسؤولون يهنوهم عن صيد
الزريعة الصغيرة.. ولا بد من الانتظار.. وهل سينتظر العجاج ..؟!

فتح حمدي النافذة المواجهة للبحر، طالعت مياه البحر المعتمدة علي
البعد، وظلمة مبهمة . صحا مبكراً أكثر مما أراد . ولكنه لم يركن إلي
الكسل ويعاود النوم، وقرر أن يستقبل النهار فى جلسته أمام الشباك ..
وحتى يقتل الوقت صنع لنفسه كوباً من الشاي، أخذ يرتشفه على مهل ..
وفي غفلة منه تسلل الضياء .. وحين لم يجد أثراً لأي طائر، أدرك مدي
إجهاده، كيف لعبت به الهواجس . وأي عجاج والشتاء لم يهل بعد .

لم يكد أول ضوء يفرش شعاعه علي الدنيا . علي قناة السويس وأشجار
الكافور والأكاسيا والنخيل، والأرض الرملية الرطبة بفعل ندي الليل .
وبور فؤاد الساجية في أحضان الرمال، الممتدة خلفها على مدى الشوف .
ولا تكاد تظهر، ملاحاتها البيضاء، التي جفت مياهها بفعل التهاب الحرارة
نهارا، وتلك التي لم تزل المياه تشف عن بلوراتها.

وما زال الضباب القادم من الشمال يتصل بالبحر المتوسط، فيما
أطلت رؤوس الأشجار المتناثرة، من طيات الضباب، تنفض عنها نعاسها،

وينحسر الضباب رويداً رويداً، وتظهر الأشجار بجذوعها وأغصانها المورقة عند التقاء المدينة بخط القناة، وتتسرب شعاعات الصباح. تأمل حمدي مياه القناة الزرقاء، خط رفيع في الملكوت حولها.

وتابع بعينه أسراب العجاج الرمادية، المائلة إلى السواد. لا يزعج طيرانها شيء. وما زالت حركة الملاحة في القناة هادئة والمراكب تنتظر في اتساع البحر أمام بورسعيد. وكلما أسفرت الشمس عن وجودها، برزت من البعد والضباب، أكثر فأكثر، ملامح السفن. وظهرت أخرى لم تشاهد من قبل، ويصبح من الممكن، ملاحظة موجات الماء الخضراء الرمادية، يضرب زبدها حواف السفن القريبة من مدخل القناة.

أحس حمدي رعشة غير محسوسة. لماذا لم يذهب العجاج إلى البردويل وهي قرية منه، والسمك يتقافز فوق الماء. هل تحط تلك الأسراب فوق الشتلات بالقرب من الإسماعيلية. عليه أن يسرع إليها، ويؤجل التسوق من بورسعيد إلى وقت آخر.

طرد الخاطر المزعج، حاول إقناع نفسه أن العجاج في طريقه إلي المزارع السمكية في العبادة وأم خلف، جنوب الحسينية. لو كنت مكانه.. فلماذا أترك وجبة سهلة، في متناول اليد، كأنما أعدت خصيصاً له. فالمياه في المزارع ضحلة، ويمكن رؤية السمك سابحاً بسهولة، وبأعداد وفيرة.

أم أن هذه الأسراب، غيرت خط سيرها، وفي طريقها لبحيرة المنزلة، بعد أن سهلنا لها مأموريتها، والتي لمستها بأنفسها في أعوام سابقة. لقد أزلنا الحامول، وكثيراً من النباتات المائية، كان يختبئ بينها السمك. وجففنا أجزاءً من البحيرة، وعملنا مزارع سمكية عند بحر البقر شمال

القنطرة غرب، حتى لا يعاني العجاج من الجوع وهو فى طريقه إلى بحيرة المنزل .

وعاودته قشعريرة .. هل بعد أن يشبع من السمك يحلى بالخوخ والموالح فى طريق عودته للمبيت فى سيناء .. ؟!

والشتاء يغري بالسكريات .

لا .. فهى لا تزهر ولا تثمر إلا فى الربيع، وبالتالي لن تجذبه رائحتها .

ولكن .. لعل بعضها لم تسد جوعتها، فما المانع أن تحط على الزرع .
داري قلقه، فهى عند عودتها، سيكون الليل قد شمل الكون وطبور العجاج لا تري فى الليل .

وماذا بعد أن يقضى على أسماك المزارع السمكية، وهذا أغلب الظن سيتم بسرعة، تحدثنى نفسى أنه لن يستريح لسمك بحيرة المنزل . وإذا صدق هذا فلن تفوته الأشجار من تحته . كان حمدي يعتزم، بعد التسوق، الذهاب إلى العريش، للاتفاق على الأرض التى ستخصص للشتلات الجديدة . ما فائدة أن يذهب، ولا تكون هناك شتلات .

احتمال بعيد .. ولكنه قائم .. عليه بالإسراع إلى الإسماعيلية، وتكليف العمال بإحداث ضجيج عند أرض الشتلات، إذا طار العجاج فوقها .
أحتاج بنادق صوت . أكتب مذكرة . وحتى نكتب، وحتى يوافقوا، يكون العجاج قد قضى على الزرع .

استخدم ما لديك . الدق على قعور الصفائح القديمة . تشغيل عربات الجيب، وعمل دوريات فى غُدو ورواح .
فَتَحْ أجهزة الراديو على الآخر .

فى الطريق إلى الاسماعيلية، استشعر ضيقاً . سيقابل بسخرية، واتهام أنه يجبكها أكثر من اللازم . عليه أن يتحمل .

فى مديرية الزراعة فوجئ بما لم يكن فى حسابه :

- هذا عمل المعنيين بالبحيرات والسّمك، أنت مهندس زراعى .

تذرع بما وطن عليه النفس من هدوء . ولَحَظَه وجد استجابة من العمال، فأوصاهم بما ينبغى عمله، وقرر أن يذهب إلى العريش قبل انتهاء النهار، حتى لو تأخر عن الموعد الذى حدده لهم فى الإشارة التلفونية .

فضل عبور القناة من المعبر، عند الصالحية اختصاراً للوقت . وجد صفّاً من العربات أمام المعدةية . نزل، ليشرب شيئاً مثلجاً، يطري على معدته . رفع الزجاجاة إلى فمه . طالعته سماء لبنية صافية، سرعان ما ظهرت عليها بقع رمادية وسوداء .

أسراب من العجاج . تحركت المعدةية، وقد أخذت كفيتها من العربات. خمن أن الدور سيصيب عربته فى المرة القادمة . أبطأت المعدةية فى عرض القناة، متيحة لناقلة نفط قادمة من الجنوب، المرور، أطلقت الناقلة صفارتها، تنبهاً وتحيةً .

أسقط سرب من العجاج، كان يعبر فوق القناة، أكياساً جوار معدته يخزن فيها السمك . سقطت قذائف العجاج، فوق المعدةية، وحولها فى الماء، والناس يتصايحون. تساءل حمدي . هل سقطت الأكياس، وقد انزعج السرب من صفارة الناقلة، أم أن طعم السمك فى بحيرة المنزلة لم يعجبه، حيث يصرفون فيها ماء المجاري . وتطلع السرب إلي وجبة نقية من بحيرة البردويل، حيث لا صرف صحي، أو زراعى .

أم أن الحمل الزائد يعوقه عن الطيران بسرعة، وخشى أن يدهمه

الظلام، قبل أن يصل إلى بغيته . لكن .. لماذا عادت طيور العجاج مبكرا،
ولماذا لم تلق باقى الأسراب حمولتها. لعل الأسراب الأخرى لم تقرب
أسماك بحيرة المنزلة، وهنأت بأسماك المزارع السمكية .
مرقت الناقلة باتجاه البحر الواسع . وانسابت المعدية فوق الماء إلى
الشط الآخر.

أكمل حمدي زجاجته . وأنعشت وجهه نسيمات طرية، من فوق مياه
القناة، بها نقاء، لاشك قادمة من فوق رمال سيناء .

صعد الباص الذى يستقله حمدي إلى المعدية . هل يلتزم العمال
بوعدهم، ولا يغادرون الأرض حتى أعود .

على أية حال، لا داعى للانزعاج، العجاج أدي مهمته، وفى طريقه إلي
سيناء. ولكن .. إذا لم يفعلها اليوم .. قد يفعلها غدا .. مع أول ضوء، يطير
عائداً، إذا كانت المزارع السمكية قد نفذ ما بها، وسمك بحيرة المنزلة لا
يروقه ..

أزاح ستارة النافذة، التماساً لضوء الأشعة الغاربة، لمح أسراب
العجاج. تسابق العربة .





عزمه على الغداء .

هل حدث منها شيء، أعطاه انطباعاً باهتمامها بهذا الشاب . هل صدر عنها مالم تنتبه له . هل تمادت بحسن نية، وظن أحدهما، أو كلاهما، أنها تعنى شيئاً.

بنت .. تلعبين على من ..؟! .. لا والله .. لا يكون قصدي . ربما .. جزء فى النفس عابث، و لا يعني أكثر من التدلل . ربما يحكم المزاح، وأتمادي .. ولكن .. هل يصدقني أحد .. دون تعمد مني، فإذا ما لمحت ظلاً، يوحي أن الآخر، أخذ الأمر على محمل الجد، يتوقف، تلقائياً، كل شيء . وكثيراً ما لمت نفسي، ووعدتها بعدم الرجوع إلى ذلك ثانية .. لكن، يحدث، أن أجدني متلبسة، مرة بعد أخرى .

قال : رفعنا العلم . تلاقى كفى بكفه، انتشاءً، لكنني لم أقصد .. لا تقصدين . هل لمسك الكف الدافئ، وإزالة الكلفة بسرعة، تركاً أثرًا فى نفسه . أم هي نظراتي دون أن أعني . عندما سمعت الإطراء، فور رؤيته للكعكة، عرفت مما انعكس فى عينيه، تجاوبه مع نظراتي الفرحة، المنتشية، لكن هذه النظرات، شيء طبعى بالنسبة لي، حين يمتدح أحد عملاً لي . فإذا كان هو، أو أخي، قد فهم شيئاً لا أعنيه، فهذا شأن كل منهما .

لكن .. لماذا عزمه على الغداء .. ؟ .. هل ليتيح لهما فرصة تكرار اللقاء، أم توثيقاً لعلاقته به . وأين ذهب كرهه للضباط . كثيراً ما صرح لها أن الغباء أنواع، أشده ضرراً: غباء العسكر .

وفجأة انبثق خاطر فى ذهنها، وقد استعادت لون الكعكة النحاسى، المضى، يشبه ما يحدث لجسد الإنسان فى المصيف، حين يتعري للشمس، ويلفحه الهواء النقي المشبع باليود، وقد تحرر من الرداء، وانطلق على سجيته فوق الرمال، وقد تفتحت المسام للنشوة . ولعل هذا سبب قصص الحب الكثيرة، التى تنشأ فى المصيف، وتنتهى بانتهائه، وقد زال الأثر الساحر . وما هو بالحب لكنه الإعجاب، وتوق الجسد للتماس فى رحاب الطبيعة . هل يكون ما حدث فى حرب 73، ترك أثراً مشابهاً فى النفوس . الإعجاب بما صنعه الجنود، يجعل النفس تتوق لحب أى شخص تلاقيه منهم، فما بالها وهى التى تابعت ما فعله هذا الضابط لأخيها، وسماعها من شخصه لما فعله فى المعركة. ولعل هذا ما جعل أخاها، يتناسى رأيه القديم فى العسكر، ويدعوه إلى بيته . أم تراه غرض الطرف عما يعتقده، وقد وجد فيه عريساً لقطعة، خاصة وهو لا يميل إلى صفوت . أو لعل حفاوتها به، فعلت فعلها فى نفسه، وأمل أن تتطور لما هو أكثر .

كانا، ما زالاً، يتحدثان عما حدث فى القنطرة . وتساءلت فى نفسها.. هل كلما تقابلا لا تغادرهما هذه السيرة . وهل سيحكم عليها بسماعها عمالاً علي بطل، دون الحديث فى أمور أخرى .
قال عبد السلام :

- لم يتركنا الإسرائيليون نستريح لحظة واحدة بعد فتح القنطرة، كما تعلم، شنوا هجوماً فى الشمال من الإسماعيلية . هاجموا من اليمين واليسار، واخترقوا من الوسط، وحدث نتوء أمام كوبري الفردان، وتمكنت دبابة من الوصول إلى مسافة كيلو متر واحد منه . وجد قائد الجيش الثانى الموقف خطيراً . لو نجحوا سيصلون إلى الإسماعيلية .

دفع بقوات جديدة من الغرب وطلب من قوات القنطرة شرق التقدم وتوجيه ضربة إلى جنب وظهر الدبابات التي تقوم بالهجوم على الجانب الأيسر للفرقة الثانية. ثلاثة أيام كاملة .. كادت أرواحنا فيها تطلع .. حتى أمكن وقفهم .

قال حمدي :

- هم استردوا أرواحهم، وأنت بدأت تفقد روحك .
- تقول فيها .. أعطيت جنودي طباشير أبيض، وأمرتهم بوضع علامة X علي الدبابة التي يفرغوها من الجثث، وطلبت قوارب إضافية لنقل المصابين إلى الغرب، وكنت أمسك قلبي بيدي، خشية مزيد من الجرحي .

- لماذا وقد توقفت المعركة .

- ياسيدي .. دمرنا موقع القيادة في القنطرة، ورفض القائد تغييره، رغم أنه خطأ عسكري . وأصر علي التواجد به، لرفع روح الجنود المعنوية، غير أبه لظهور صواريخ جديدة، لم نرها من بداية القتال . صواريخ سمارت، ومافريك جو أرض، والصاروخ الأخير، لم يستخدم، من قبل، ويخترق دروع الدبابة مهما كان سمكها .

ضحك حمدي .. واسترسل في الضحك .. ولم تجد إشارات عبد السلام بيديه لإيقافه .. ولكن زغرات حمدية قطعت استرساله .. ووجد نفسه، ملزماً، بالتوضيح ::

- في الوقت الذي لم تخفت فيه أصداء المعارك، والأمريكيون يزودونهم بآخر جيل من الصواريخ، خرج السادات بعد أول لقاء مع كسينجر، إلى المؤتمر الصحفي، مبتسماً بادئاً كلامه بـ « صديقي هنري » فأصاب الناس بالدهشة والذهول .

ضحك عبد السلام، واسترسلت معه حمدي، وقالت مغيظة أخاها :
- هو صديقه .. لماذا أنت زعلان .. ؟!
تجاهل عبد السلام ملاحظتها، واستمر :
- ورغم ذلك تمكنا من الوصول إلي الطالية، وطوقناها، وسيطرنا
على ثلاثة مواقع، والتحمتنا مع قوات الفرقة الثانية، وكونا رأس كوبري
الجيش .
قال حمدي بنبرة تقريرية :
- وحق عليكم التقاط أنفاسكم .
- أبداً .. فمعركة الطالية ظلت تتجدد حتي يوم اثنين وعشرين
من أكتوبر . هل تتصور أن قائد القنطرة كان يقوم بجولات استطلاعية
بنفسه، ومعه طواقم صواريخ، ولا يترك ذلك لضابط صغير، وفي إحدي
هذه الجولات، استولي علي دبابة أمريكية الصنع، اتضح من عدادها أن
المسافة التي قطعتها، لا تتجاوز المسافة من العريش إلى القنطرة غرب ..
ومعنى ذلك أن الأمريكيين أحضروها من إحدي قواعدهم وأسقطوها
مباشرة في أرض المعركة .
جهم وجه حمدي .. لماذا لم تتجدد معركة العريش .
وصلت القوات الإسرائيلية بسرعة إلي العريش في أول أيام الحرب ..
منتهزة ما ساد من هرجلة في الأيام الأولى من يونيو 67 .. قوات تتقدم إلي
الأمام .. مدرعات تسحب إلي الخلف .. إقامة حفرة، تم تركها والتقدم
إلى مواقع أخرى، تحميل المعدات وفك أجزاء المدافع ووضعها علي
العربات، وصعود الجنود في لهوجة معها .
كان المعتقد أن إسرائيل ستضع مجهودها الرئيسي علي المحور
الجنوبي، الكونتيلا العريش، فحشدت مصر أغلب قواتها علي هذا

المحور. ثم جاءت معلومات أن إسرائيل ستركز مجهودها الرئيسي علي المحور الأوسط، الحسنة سدر الحيطان، حتى لا تكرر ما فعلته في عام 56. وكانت تقارير المخابرات تؤكد اهتمام إسرائيل بمنطقة إيلات والجنوب. وتوالت تقارير تفيد عن نشاط إسرائيلي في النقب الجنوبي. وأكدت مخابرات العريش، عزم العدو على الهجوم من الاتجاه الجنوبي. ارتبكت القيادة المصرية .

وفي الخامس من يونيو، كانت أرتال الدبابات تقتحم المحور الشمالي، وتزحف على الطريق الساحلي إلى العريش، غير ملقية بالآ لتصريح الرئيس الأمريكي بضرورة ضبط النفس .
- ها .. أين سرحت ..

قال بصوت مفعم بالمرارة :

- دباباتنا حملناها على قطار العريش من رفح إلى الخلف قبل بداية الحرب مباشرة. وبعد قليل، كأنه يحدث نفسه :
- لو احتفظنا بالمرات، حيث الطريق ضيقة، ملتوية، تحيط بها جبال صخرية وعرة .

قال عبد السلام :

- تقصد لو وصلنا إلي الممرات .. طبعاً لتغير الوضع .. من يسيطر عليها، تنفتح أمامه الطريق حتى تركيا .
سمعوا دمدمة جرافة . أسرع حمدية إلي الشرفة، وعادت :
- يبدو أن عساكر شرطة المرور يزيحون عربات من ميدان الشيخ حسنين ..

غطي حمدي وشقيقته آذانهما بأكفهما، وحين أصبح ممكناً الكلام، قال عبد السلام ضاحكاً :

- لا صوت أحلى من صوت الدبابات العابرة .
وقال حمدي :
- لماذا لا يحضرون ونشاً بدلاً من هذه الجرافة المزعجة .
ضحكت حمديّة :
- قال يعنى الونش أخف
رد حمدي :
- على الأقل .. صوته مكتوم .
قال عبد السلام :
- لعنة الله على الصوت المكتوم . دبابتان برمائيتان غرقتا فى الماء،
لم ننتبه لارتطامهما المكتوم، لولا أن نبهنا أحد جنود الحراسة على حافة
القناة، فأسرعنا نبحت عن ونش ينشلهما .
قالت حمديّة :
- اوع .. يكون ونش البلدية .
ضحكوا جميعاً، واستمر عبد السلام :
- لم يكد الونش يعبر فوق الكوبري، حتى أصابت الوصلة أمامه، قذيفة
مباشرة، حمدنا الله أن الونش عدي منها، لكن .. لا بد من تبديل الوصلة .
احتياطى قطع الكوبري مخبأ على الشاطئ الغربى . أرسلت إشارة لتحويل
سير الونش إلى الكوبري الخاص بالفرقة، بينهما خمسة كيلو مترات .
واستدعيت المهندسين لإصلاح مرساة الكوبري المعطوب، عند
شاطئ سيناء، حيث غرقت الدبابتان . وكان قائد القنطرة، قد طلب
جنوداً من الفلاحين، لتسوية الأرض أمام المرساة، وأن يكونوا تحت
مباشرتى .
رد عليه قائد الفرقة :

- تريد عمل تنظيم خاص بك، يتولاه النقيب عبد السلام فاروق ..
نطقها ونظر إلى حمدي، وعلت ضحكاتها، وشاركت حمدي
متأخرة.

قال حمدي :

- الحمد لله .. ليست لى صلة بقائد القنطرة .

رد عبد السلام :

- ولكن .. لك صلة بى

أغرق حمدي فى الضحك، وهو يقول :

-وسرعان ما يربطون المسألة .

قال عبد السلام :

- خَبَرهم قائد القنطرة بنفسه . كنت معه أثناء حرب الاستنزاف «ملازم

أول» مرة استمر الضرب على مواقعنا أسبوعين متواصلين، وسرت معه
نتفقد الجنود. سأل أحدهم :

- أأست خائفًا؟!

- الرب واحد والعمر واحد .

وعند اقتحام أحد الحصون، انفجر لغم فى فرد من المهندسين، لو
تراجعوا سيكونون هدفًا سهلاً لمدافع الحصن . فوجئ بالجنود الفلاحين
ينامون على الأسلاك الشائكة، وزملاؤهم يعبرون فوقهم، ويقتحمون
حقول الأغنام، والقذائف تسقط حولهم.

خرجت حمدي، فى خفة، لتطمئن على أمها فى الشرفة، وهي تردد
فى خاطرها سيظلان يقولان ويعيدان . تطلعت إلى الأفق . لاح لها برج
كنيسة مارجرس المخروطى، المضلع فى انسياب، وتلاشت ملامح
قمة الصليب المعدني فى وهج ضوء الضحى، وبانت شرفة مئذنة جامع

السنين متكئة عليها، وقد علتها شرفة ثانية، والمئذنة، عودها يستدق، كأنها مسلة فرعونية، كلما ارتفعت، حتى أصبحت قمته نقطة، فوقها هلال أخضر كاد لونه يضيع في الزرقة خلفه .

- جهزت الأكل .

لم تلتفت إليها .

- اسمعى يا ست ماما، حمدي يجلس مثل الباشا يسمع حكايات، وأنا

يطلع ديني وأيماني في المطبخ .

- يا بنت خلي عندك خشية .. عندنا ضيف

ردت في عصبية:

- ضيفه هو .

وتركتها، دون أن تلتفت . نزلت إلي الشارع . تخطت ميدان الشيخ

حسنين، وتركت سوق الخضراوات عن يمينها، وسارت قدماً .

لن أقرف نفسي بإحضار لحم وخضراوات، وأظل طوال النهار،

أجهز .. كفتة، ومحشياً من ورق العنب والكوسة والفلفل .. لا .. كيلوان

من السمك، أشويهما في أى فرن، وينفض المولد . وسبق أن نبهت أخي

إلي ذلك، استنكر، لأن ضيفه مقيم الآن في بورسعيد، والسمك أسهل

أكلة عندهم، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا. ولتكن بورسعيد،

والسمك أسهل أكلة عندهم، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا. ولتكن

هذه رسالة إلي أخي، حتي لا يعزمه ثانية .. وإذا أراد .. فعنده المطاعم .

ورسالة له، حتي يعرف أنني لست مهتمة به بشكل شخصي .

وصلت إلى شارع بورسعيد، حيث المحال التجارية، تواجه كنيسة

مارجرجس، وتجاور جامع السنين، بامتداد الشارع، وتعرض مقتنياتها

من الملابس الرجالي والحريمي وأدوات الزينة والأقمشة .

ماريوكا .. أراهن بديني وأيماني، أن يدلني أحد علي معني لهذا الاسم، ربما كانت مايوركا .. يخيل إلي أنها اسم مدينة أو ما شابه . فري ستيل .. ستيل وعرفناها .. أسلوب .. وفري .. هل بمعني حر .. الأسلوب الحريعني .. أم أن المقصود بمعني جداً .. فتكون تجاوزاً الأسلوب الذي علي آخر طراز .. أى طراز هذا وكلها من ألياف صناعية، تسبب حساسية للجلد، وتصفر كلما نزعها الإنسان عن جسده .

نوفوتيه .. بوتيك . هل سينشكون في ألسنتهم لو قالوا .. محل كذا ومحل كذا .. ستر آسيا .. يعني .. لو قالوا مركز آسيا .. ماذا سيجري . وهل اختفت الحروف العربية، أو عز الحصول عليها حتي يكتبوها بحروف انجليزية . وهل في استطاعة كل العابرين قراءتها .. حكم .. تري جولييه .. خلاص .. أصبحنا فرنسيين .. كم سائراً في الطريق سيعرف أن معناها حلو جداً، أم أن المعني ليس مهماً، المهم وقع الكلمة الأجنبية، عند ترديدها .. لا .. لا يصح .. ستكون العزومة في وجوهنا غير لائقة .

عرجت إلي شارع تراي بجوار الكنيسة، يفضي إلي سوق الخضراوات من الخلف، وعلي ناصية السوق جزار . سارت عدة خطوات .. رجحت أن تكون فري بمعني حر . وعادت، لتلف خلف عمارة الشيخ حسنين، في وسط الميدان، في طريقها إلي سوق السمك .

وضحكت وهي تردد .. خيبة لو كان يحب السمك . عندها تكون الرسالة موجهة إلي أخي، ويستطيع هو أن يفهمه بصنعة لطافة . تريد محشياً . حاضر، عندنا باق منذ أمس محشي كرنب . يا خبر . لقد نسيت في حلته علي البوتاجاز، ولم تسك عليه في النملية . وخشيت أن تكون أمها عثرت عليه، وبدأت البلبة غير عابئة بنظامها

الغذائي . وتذكرت يوم صنعت الكعكة، وكان هذا الضيف موجوداً أيضاً، ونزلت لشراء فاكهة، وحين عادت أحست بجو غريب في المطبخ، وفجأة تنبّهت.. الكعكة .. أسرعّت إلي الشرفة، حيث جلست أمها في الشمس ترمم عظمها، وحين هربت بعينها منها، تيقنت من صدق ما توقعته .

- هات

وكانها لم تسمعها، سرحت بعينها إلي الأفق.

بلهجة منذرة :

- ماما ..

بنصف ضحكة :

- مالك يابنت .

- لا تعملها عليّ

كانها تنفض ملابسها :

- فتشيني .

تطلعت حولها في الشرفة، لا أثر لشيء، ومع ذلك هي متأكدة من فعلتها . فجأة صاح بائع جوال :

- الله أكبر .

نظرت، فوجت الرجل قد أمسك بكيس بلاستيكي، وفي يده قطعة من الكعك. تجمع حوله بعض المارة، أخذ قزمة، وأعطى كلاً منهم على قد ما قسم، وهم يضحكون.

أدركت حمديّة ما حدث، أخذت الأم قطعة من الصينية، وتسلمت إلى مكانها في الشرفة، وحين أحست بوقع قدميها، ألقت المشابك من كيسها البلاستيكي ووضعت فيه ما بقي منها. وفي لهوجتها وهي تعلقه، على حبل الغسيل، أفلت من المشبك .

تطلعت أسفل كرسيها فوجدت المشابك، تداريها بقدميها . أرادت أن تزعق فيها حتى لا تكررهما . ولكنها توقفت أمام نظراتها المنكسرة . محرومة من معظم الأطعمة .. هذا للسكر .. وهذا للضغط، وهذا لا تتحمله المعدة . حتى أصبحت جلدًا على عظم، اكتفت بإنذارها .
- أنت حرة .. مضاعفات السكر .. صعبة .

- يا ستى ..

اغتاظت، وأردفت، ملمحة إلى شغفها بالمسلسلات التلفزيونية :
- تؤدي إلى العمى .

تحيرت حمدية .. هل تسرع إلى البيت لتلحق بأمها، خشية وقوع المحشى بين يديها، أم تذهب لشراء السمك وشيه أولاً . تطلعت إلى ساعة يدها، وأسرعت لتلحق بالسمك طازجًا، وهى تدعو الله أن يسترها مع هذه الست المتعبة .



اقتعد حمدي الأرض . وركن بظهره علي جذع شجرة أكاسيا، ومدد ساقيه . سرح ببصره إلى زرقاء البحر العميقة . هل يزرع باقي الأغوار المخصصة للخوخ الآن. أم ينتظر نتيجة ما غرسه . فضل الانتظار .

وضع أحدهم حماراً من طين، فى حوض من مزرعته، التى أسموها مزرعة ديدى، تدليلاً لاسم حمدي، أو تشبهاً بأسماء الحراس التى يتنادون بها، دون أن يعوا، وسأله لماذا لم تزرع باقي الأحواض، كان قد أحضر أعشاباً وجدها جوار الأسلاك الشائكة، زرع بعضها، وتريث حتي يري النتيجة، فأجابه : لو صبرت لرأيت .

فوجئ بسعد الدرري جواره . أخذ قليلاً . قال :

- مئة مرة قلت لك .. اجعلني أحس بك .. تحمحم .. اعمل أي

صوت .

رد سعد وقد اعتراه الخجل :

- صدقني .. لا أقصد ..

قال حمدي :

- لا جدوي من الكلام معك .

لمح ندا علي البعد، أوماً برأسه ناحيتها وقال :

- عربن لنا علي شاي .

- لا يوجد شاي ناشف .

- أأست قادمًا لتوك من العريش .

- لم أكن أعلم .

اطلع على رفع أقرب .. واسأل الجماعة إذا كانوا فى حاجة إلي شئ .
تردد سعد وهو يسير .. ابتلع ريقه وقال :
- موضوع .. أود الحديث معك عنه .

سرح حمدي ببصره .. اصطدم بمستعمرة ياميت، لم يبق فيها حجر
فوق حجر . لم يتركوا منتصباً سوى المعبد، كشاهد علي تلك الخبرة وسط
الصحراء، وتساءل فى نفسه ما الذي يجعل الإنسان يدمر بهذه الطريقة .
- عندما تعود

إذن ما رآه بالأمس، له ما وراءه . حاول أن يقنع نفسه، أنه استلطف
وتسلية لقطع

الوقت، لا يدري لماذا أسرع دقات قلبه . أراد أن يعطى نفسه مهلة
للتفكير . غادر سعد بثقل، وكلمات حمدي تشيعه :
- على الله تحضر كل شئ، وتنسي الشاي .

وأتبع بضحكة ممطوطة، لم تجد استجابة من سعد، فباخ، وطوح
بذراعيه إلى الخلف، محيطاً جذع الشجرة، وضاماً ظهره، لها . كان
يجلس عند الأسلاك الشائكة، بالقرب من مزرعة ديدي يسمع وشوشة
البحر ولا يراه . فرش أمامه ورقة مأخوذة من شيكارة أسمنت . فرد
فوقها تفل الشاي، المتبقي فى القزان، بعد توزيع شاي الصباح . آملا
عندما يجف أن يستخدمه مرة أخرى فى ليل العنبر الطويل، وضع
ثقلات من الحجارة الصغيرة على أطراف الورقة الأربعة، مخافة أن
يعبث بها الهواء، وعيناه لا تغفلان عن حركة الزملاء، حتى لا يغافله
أحدهم، ويأخذ حفنة من الشاي .

خُيل إليه أنه سمع ديبياً، تلفت حواليه، واستغيب سعداً.
أمس، فى الظهيرة، بينما يستريح فى ظل شجرة، سمع صوتاً لناي
يعزف لحناً شجياً . اقترب من مصدر الصوت، لدهشته، لمح سعداً خلف
سور من فروع الأشجار المتشابكة يعزف علي الناي . متى .. وأين تعلم
هذا السعد، هذا اللحن الجميل .

هل اختلط بالناس هنا، وتعلم منهم عادة المغازلة بين السينا وية، وأنا
الذي ظننته يعيش علي الها مش .

لم يظهر حمدي نفسه، وسرعان ما سمع من خص فى الجهة الأخرى،
لحناً، كأنما هو رجع الصدي للحن سعد، ولم يصعب عليه التخمين . ففي
هذا الخص تستريح ندا ساعة القيلولة .

ظنها مداعبة من ندا ولا تقصد شيئاً . ولكن عندما زغلل عينيه
شعاع، عكسته مرآة صغيرة، أدرك أن سعداً حاز رضا ندا، وها هى ترسل
إشارة كالمألوف عن الفتاة هنا، ليحضر إليها، لو صدق ظني فقد تحادثا،
واتفقا، وها هو سعد يود مفاتحتي في الأمر . إذن فالأمر جاد . كيف بالله
فات عليك يا سعد، أنهم لا يسمحون للفتاة بالزواج من خارج قبيلتها، فما
بالك وأنت صعيدي من المنيا ..؟!

وكيف طاوعت ندا نفسها، ودعته للقاءها، وهي تعلم أن أهلها لا
يأمنون غريباً على بناتهم . هل سيطر عليهما الحب، فضربا عرض البحر،
بأي محذور ..؟!

ولماذا صفتي، لم تستجب لى، وهي تعلم علم اليقين، صدق مشاعري
نحوها ..؟

أترأها، تعيظني لأنني لم أوافق، علي زواج شقيقها صفوت من شقيقتي

حمدية. كثيرا ما أوضحت لها : هذه نقرة .. وهذه نقرة . أتراه الكبرياء
يمنعها من الموافقة على الاقتران بمن يعترض علي شقيقها .

- الشاى .

انتفض حمدي .. وحين رآه، تكلم وهو يصطنع البكاء :

- نفسى .. أحس بك .. ؟!

مد يده بكيس شاى .

أتراه، معذوراً هذه المرة . استمر فى تصنعه، وإن تصدعت سخريته،
وأطل حنان كان مستتراً :

- لى .. أنا .. ؟!

استدار سعد، ليعطيه ندا . استوقفه حمدي بإشارة من يده، وغطس فى
عينيه:

- اوع .. تكون ندا ..

ظل سعد محتفظاً به فى عينيه، وأومأت رأسه بالإيجاب .

آه .. لابد من مخرج، قبل أن تصبح سيرتهما على ألسنة السينا وية .
ومن نظرات سعد، وضح له أنه لن يمكن اثناؤه عن الفتاة . تذكر صديقه
محمد عايش، ودعا الله أن تكون ندا من قبيلة الفواخرة مثله .

حمل إليه سعد صينية، عليها كوبان من الشاى، وحين رأى كوب ماء
أيضاً، أدرك أنها لمسة من ندا . سألها بغتة :

- فواخرية

- نعم

هدأ وجيب صدره . تناول كوب شاى، ونفخ سطحه مبرداً، ومتحاشياً
نظراته المتسائلة .

اقتربت ندا . هل لتأخذ الصينية، أم متلهفة لتسمع ما يقولان .
أحس حمدي أن الفتاة الواقفة أمامه، لم يرها من قبل، أو لم يتمكن
من رؤيتها جيداً كما تلوح له الآن . خذاها خوخة وانشطرت نصفين .
بياضهما مورد، واحمرارهما فى نعومة وسخونة الزغب تحت جناح
الطائر . شفتاهما نصفاً برقوقة.. احمرارهما من احمرار العقيق مشعتان،
متقدتان . نظرت إلى سعد، وانبعثت ابتسامة . أحس حمدي أن الابتسامة
تكاثرت إلى مئات الابتسامات، تماماً، كما يحدث حين تلامس ريح
الصباح الهادئة، صفحة ماء البحر الزرقاء الهائلة بملاطفة شمس هينة،
فترتعش صفحة البحر بابتسامة، سرعان ما تتولد عنها آلاف الابتسامات،
تومض أشعة ذهبية، يمس سناها أغوار النفس فتسبح فى حلم يقظة.. آملة
.. واعدة .. طفولية .

أحس بحنين طاغ إلى صفية . وتعجب لأمرها معه . لماذا كانت تضيق
عليه الخناق إذا ضبطته ينظر لامرأة عابرة، أو تلتكأ نظره فى المقهى، عند
فتاة جالسة . مع أنه كلما تملى الفتنة، امتلأت نفسه بالوجد، وهاجت
جوانحه، وأقبل عليها بشوق لا يصد .
آه .. لو تعرفين يا صفية ..!!



تردد صفوت .. هل يتبع نصيحة حمدية، ولا يذهب إلي حمدي، أم يجازف ويذهب إليه . لاحت له نظرة الخوف في عينيها، خشية أن يتطور النقاش بينهما، وتحدث جفوة . جره حمدي في الكلام . قال صفوت :
- بعد التاسع من أكتوبر، جاءت الأوامر أن مهمتنا انتهت، وعلينا العودة . انتفض حمدي :

- بعد أن سيطرتم على الجبال والمضيق .. ؟!

خفض صفوت نظراته، فتابع حمدي :

- السادات في حسابه حرب محدودة فقط، ليبدأ التفاوض .

رد صفوت :

- ربما قدراتنا، لم تسمح بأكثر مما فعلنا .

قال حمدي :

- لتكن حربا محدودة، ولكن كخطوة على الطريق إلى فلسطين عربية،

ومما اتضح فإنها الخطوة الأولى والأخيرة .

أفصحت نظرات صفوت عدم استيعابه لكلماته، فتابع :

- قوات الثغرة كانت في أيدينا، فلماذا تركناها تفلت .. ؟!

- أمريكا ستتدخل .

- كسينجر ضحك عليه .

ضحك صفوت، وردد في نفسه : كان معجبا بالسادات .. خدعهم

وأعطاهم ..

- سأجاريك .. أكلها السادات بمزاجه، لأن عينيه علي المفاوضات.

حتى لو كانت عيناى على التفاوض، فلماذا لا أقوى موقفى، وأضعف العدو مستقبلا . أدمر ثلاث فرق مدرعة، قلب الجيش الإسرائيلى، كانت فى غرب القناة، وأكسر نفوسهم .

رافق بعض حاخامات اليهود، ومعهم بعض الجنود الإسرائيليون وعدة كلاب، جاءوا بعد الحرب للبحث عن قتلاهم . كانت معهم صور لدباباتهم المدمرة التقطت جواً . حددوا لهم مئة متر حول الدبابة المدمرة، ليفتشوا فيها . تششم الكلاب الدبابة، وتنطلق .. إذا توقفت ونبشت، أسرع الجنود إلى الحفر، وأخرجوا الجثث .

وقف أحد الحاخامات مصعوقا : جثة ضابط وذكره فى فمه !!..
جاء القائد للاطمئنان على سير العمل . أخبره صفوت أن المهمة كان ممكن الانتهاء منها فى ساعة زمن، ويحملون قتلاهم وينصرفون . لكنهم جلسوا، وتناولوا الطعام والمثلجات . وأقاموا احتفالا، وعزفوا موسيقى جنائزية .

جاء أحدهم إلى القائد، وأبدي رغبته فى التقاط صور له معهم . تأملهم القائد مليا، وقال :

- مع الكلاب فقط .

قال صفوت :

- كانوا على وشك محاصرة السويس والجيش الثالث .

قال حمدي :

- وكنا نحاصرهم أيضاً .. أنت نفسك قلت لى أن الكتيبة 143، احتلت جبل عتاقة لتمنع القوات الإسرائيلية من الاتجاه إلى محور السويس القاهرة .

قال صفوت فى صوت خفيض، كأنه يفكر بصوت مسموع :

- من يحاصر من .. ؟!
- حين يندلع القتال .. يُحسم الأمر .
- جاء صوت حمدية :
- ألم تجوعا .. ؟!
- قال حمدي :
- تأخرت رئيسك ..

أطرق صفوت، وقد عضه الجوع بغتة . أحضروا لنا علب خضراوات باللحم . وكلما ظننا أننا شعبنا، عاودنا الجوع ثانية . أمرنا القائد، أن نكف، وإلا انفجرت بطوننا . طلبنا ماءً، وكنا قد طرحنا من الشدة أنابيب بلاستيكية، بها ماء معقم.

لمح علي وجه حمدي، نفس السؤال، الذي كاد ينطلق من ألسنتهم، وهم في طريق العودة، إلي رأس كوبري الجيش الثالث عند عيون موسى، يسيطر عليهم الأسى: لماذا لم نستمر .. ؟!

لا بد من الذهاب إلى العريش وحسم الأمر . يعلم أنها مهمة بغیضة، خاصة وقد عرف رأيه فيه، مما انتثر من كلام حمدية . أخذ عليه أنه عسكري مستبقي . هذا العسكري المستبقي وصل إلي رتبة رقيب، وهذا نادر الحدوث بين المجندين . لا ألومك، فالمجنّد الذي يتطوع بعد انتهاء فترة تجنيده، ينظر له المجندون، علي أنه لا أهل له، وإلا ما قبل المرور وتطوع في الجيش، وهم ما يصدقون أن تنتهي مدة خدمتهم . كان يعمل في ورشة لحام أكسوجين، بعد حصوله على الدبلوم، حتي طلب للتجنيد، ظل ست سنوات كاملة مجنّداً قبل الحرب . أثناءها توفيت أمه . هل كان يترك نفسه عالة علي صفيّة، بعد تركه الجيش، حتى يوفق إلي عمل، خاصة والتعيين في الحكومة موقوف، وكانت صفيّة خارجة وقتها

من زيجة فاشلة، ولم يرد أن يحملها همه . هل كان يذهب إلي أخيهما الأكبر، المقيم في بورسعيد، وعنده أولاد في الجامعة .

علي أية حال، ها هي السبعة سنوات، مدة التطوع، قاربت النفاد . ولعله بالمكافأة، وبما أذخره، يستقل بنفسه، ويفتح ورشة للحام بالأكسوجين، في المنصورة، حيث علم من حمدية أن صناعة قطع غيار السيارات، مزدهرة منذ توقف الاستيراد أيام الحرب العالمية الثانية، والآن ازدهرت بجوارها صناعة مكن ضرب الأرز وعصارات القصب، ومناشير الخشب، وكل هذا يحتاج لحامًا بالأكسوجين .

لا يحق لك أن تعيرني، ولا يحق لصفية، التي تعيرني لأنني لم أنتهز فرصة وجودي في الجيش وأذاكر ثانوية عامة، كما فعل كثير من زملائي، وألتحق بالجامعة، وأكون جامعياً مثلها ومثل أخي الأكبر .

ماذا ستجديني الشهادة الجامعية، وأنا أري أخي يستجدي طوب الأرض ليكمل تعليم أولاده ..؟! عدة أيام عمل في أية ورشة تساوي مرتب السيد خريج الجامعة . ولماذا أجبر نفسي على دراسة نظرية وأنا لا أحب إلا الأشياء العملية.

فعلا يا سيد حمدي، تليق بك هذه الصفية، كلاكما قلبه حجير، وهل أنسي موقفها في أيام أمي الأخيرة، وهي في حاجة لمن يسندها إلى الحمام، ولمن يطعمها، وهي تصر على إرسالها إلي أخي في بورسعيد، ليتحمل نصيبه من تعبها، كما تقول.

- البنت أولى بأمتها

- هو أيضا ابنها

- تُكشف على غريبة .. زوجته ..

هزت كتفيها، وخرجت .

ولست أدري، هل سمعتها أمنا أم لا . لكنني وجدتها ولم تملك نفسها، هل تعرف هذه، الغبية ماذا ألم بي، وماذا أحست به الأم، وأنا أنظف عورتها، بينما تهرب بعينيها. يجب المواجهة، دون أن تهرب عيناى من عينيها، ويجب أن يسمع كلامي .. ربما غير رأيه .. حتى الآن لم أعلن فكري بوضوح . عن الشقة، فلن أتزوج فى شقتهم المتداعية.

قبل تركه الجيش، قدم طلباً للحصول علي شقة في المنصورة، مكافأته من الجيش، وما أذكره أثناء تطوعه، طبعاً لن يكفي للحصول على شقة ومحل في وقت واحد . كانوا حاجزين فى مجلس المدينة عمارتين للقوات المسلحة . أعطوا الضباط، ولم يصب ضباط الصف من الحب جانباً . علي أية حال . المحل يحضر عشرين شقة . سوف تدبر، المهم أن يكون لي عمود أرتكز إليه .

أيام حرب الاستنزاف، جاء فريق من الصاعقة علي طريق أبي عمود، إلى موقعنا . عبروا القناة ورفعوا العلم . التقط الإسرائيليون، تهليلهم بعد عودتهم. في الصباح بدأت المدفعية الإسرائيلية فى القصف . كانوا قد احتاطوا للأمر، بعمل حفر أسطوانية . وحفروا تحت الدبابات خنادق صغيرة، غطست فيها أثناء القصف، الذي استمر طوال النهار . وفي اليوم التالي أشعلت الطائرات الموقع كله بالنابالم. غطوا الفتحات الأسطوانية حتي لا تطولهم النيران . استمر القصف عدة أيام . فقرر القائد تغيير الموقع، مع عدم إغفال حراسة العلم المرفوع قبالتهم على الضفة الشرقية، أحاطته النيران المصرية كالسياج طوال أسبوعين، دون أن يتمكن الإسرائيليون من إنزاله . تقدمت وحدة من الدبابات إلى موقع العلم . ركزوا القصف عليها من الضفة الغربية . قصفهم الإسرائيليون بمدافع الهاون ذات الأعيرة

الثقيلة. أصبح قضاؤهم لحاجتهم لا يتم إلا كل بضعة أيام . بين غارة وأخري للطائرات أو خلال هدوء نسبي لقصف المدفعية، يتسلل بعضهم إلى الجبل، والغريب أنهم أثناء اشتداد القصف، لم يشعروا برغبة فى ذلك . حاول القائد عمل أدبخانه (مراحيض) فى الموقع، لكن توالى القصف، لم يمكنهم من ذلك .

أغلب طعامهم جاف . معهم أقراص من كحول بيضاء، لتسخين الطعام. ومعهم أكياس لبن جاف .

مرة اشترى أحدهم موقد كيروسيني، ولكن القصف لم يمكنهم من استخدامه .

رأوا الدبابات، تكاد تطبق على العلم . تقدمت وحدة إلي موقع قرب مياه القناة، وقصفتهم . سرعان ما حومت الطائرات الإسرائيلية، وأحرقت الموقع بالنابالم . خلع قائد المجموعة سترته، وعبأها بالرمال، وعمل به ممرا وسط النار، سار عليه جنوده.

لا داعى لذهابي، لتذهب حمدية، لعلها تمهد لي الطريق، وأخطف رجلي، لمنطقة الورش بحي الحسينية بالمنصورة، أتفقد محلا يصلح، وأسأل عن الأسعار .

حضرت طواقم من الورش المختلفة، تمتت على المعدات، وأصلحت الأعطال، أحسوا باقتراب موعد اقتحام قناة السويس، إلى سيناء . اشترى طعاماً إضافياً. وضعوه فى أجناب الدبابات . كانوا يعزمون على المشاة من طعامهم وشرابهم . وعندما كانت تحترق أية دبابة، كان كل همهم إنقاذ جراكن الماء .

وبعد أن كان صفوت وزملاؤه من رجال الصاعقة، يحمدون رجال المدرعات، على تحصينهم فى قلاعهم الفولاذية، أصبحوا يشفقون عليهم

من نيرانها، حين تدمر، وحين عبرت القناة وحدة دبابات على الـ G.S. أيقنوا أن العبور للجيش كله بات وشيكاً.

نزلت وحدة من الـ G.S. إلى الماء . وقد فردت كل منها جناحيها . كل جناح تقف عليه دبابة . ما أن وصلت إلي البر الغربي، حتى انطلقت الدبابات، وضمت الـ G.S. أجنتها .

أخذت الدبابات فى قصف حصون خط بارليف . توقفت طويلاً أمام تبة استعصت عليها، رغم تعزيز المدفعية، من الشاطئ الغربي، ورغم كذا طلعة طيران .

عادت الدبابات، بين تهليل الجنود، والقادة يحذرونهم . سرعان ما جاءت الطائرات الإسرائيلية، وأفسدت فرحة عبور وحدة ثقيلة، وعودتهم بثلاثة من الأسرى. أخذوا يستجوبونهم، لمعرفة سر التبة الحصينة . أخذ كل منهم يردد:

- لا أعرف شيئاً .

رأى أحدهم المنظر .. الطائرات التى عبرت من دقائق عادت سالمة، صاح غير مصدق :

- الله أكبر .

ورأى آخر شاطئ القناة الغربى، وقد ظهر فجأة مكتظاً بالجنود والمعدات والمركبات، فصاح :

- الله أكبر .

وانتبه آخرون لما يحدث، والمدرعات تدمدم، وفوهات أكثر من ألف مدفع، تنوهج، فانطلقت من الحناجر، وأصبحت صيحة القتال :

- الله أكبر .

تذكر موعده مع فوج، لمشاهدة أحد حصون خط بارليف، لماذا لم

تنسفها قواتنا كلها، نسفت أغلبها، خشية أن يعود إليها الإسرائيليون، أثناء الحرب، عند أية هجمة مضادة، وتركت بعضها شاهداً علي ما كان، ولتعبي، ولأظل أعيد : ليست هذه الشبكة الحديدية كعيون نسيج العنكبوت، وما بها من حجارة جيرية بيضاء، كل شئ . خلفها عربات سكك حديدية . نعم.. عربات قطار العريش.

صبوا في داخلها، خرسانة، ووضعوا فوقها قضبان السكك الحديدية، وفوقها دشمن من كسر الحجارة والرمال، تحيط حجرات الحصن، بينها ممرات ضيقة كما ترون، مبطنة بألواح الصاج المضلعة .

أثناء حرب الاستنزاف قصفت قواتنا حصون خط بارليف بالمدافع الثقيلة، فلم تنل منها . قال بعض الخبراء أنه لا يمكن هدمها إلا بقنبلة ذرية، وعندئذ لابد من رجوع القوات المصرية إلى الوراء . كيف نعود إلى الخلف ونحن نريد أن نتقدم إلى الأمام ؟!..

ينظر له الزوار في تساؤل . وكأنما يترقب هذه اللحظة، يتسم ويقول :
- في حرب 73 حاصرتها قواتنا بالنيران من الخلف والأجناب لمنع أية نجدة، وتقدم المهندسون ومعهم قنابل البنجالور .

- أفندم .. ؟!

- متفجرات في ماسورة طويلة، تشبه ماسورة المياه، ويمكن توصيل المواسير ببعضها بعضاً، ودفعها في الرمال، من تحت الأسلاك الشائكة، لفتح طريق إلي الحصن، الذي تحيط به الألغام .

تبادلوا النظرات، فعاجلهم :

- في الحال تم فتح الطريق، وتقدم المشاة واستولوا على الحصن يدّاً بيد، وطهروه من الإسرائيليين . بعضهم هرب، وبعضهم اختبأ في هذه الممرات الضيقة المتعرجة، التي نقف فيها الآن، وتم أسرهم .

و غلب الضحك صفوت، تذكر ما رواه له أحد أصدقائه من المشاة، حين دخل الحصن فوجد جندي الملاحظة مشوشاً، وقد سقط من ارتفاع ستة وثلاثين متراً، وتعثر في دلو بلاستيكي بجواره صابونة، وفي الحجرات وجدوا علب الشيكولاته، والثلاجات عامرة، وسخانات وأسرة مريحة، وعثر أحدهم علي ملابس داخلية نسائية، فصاحوا جميعاً في نفس واحد . يا أولاد الأبالسة، وقد زال عنهم التعب فجأة .

أشار أحدهم إلي حائط، قائم وسط الصحراء .

- تركناه أثراً يدل على حصن كان موجوداً

تنقلت أنظارهم بين الحائط، والحصن الذي يشاهدونه، غير مصدقين أنه كان هناك حصن ضخّم مثل الذي يقفون جواره، وأدركوا المغزي من ترك الحائط .

وقال صفوت في نفسه : هذا هو حائط المبكي الحقيقي، لو أراد اليهود البكاء ، وليس حائط المبكي في القدس .

صحح له ضابط التوجيه المعنوي :

- حائط البراق .. وهناك قضايا رفعت بشأنه وحكم فيها بملكية العرب له .

لكن نظراً لتعود اليهود الحضور وتلاوة الصلوات، والبكاء، حيث المكان هادئ، والحائط ذو التواء يبعث في النفس الخشوع، ونظراً لأنهم كانوا لاجئين، مطرودين من أسبانيا المسيحية بعد سقوط الأندلس ونزوح العرب منها، فقد تركهم العرب .

وأنا أريدكم أن يبكوا هنا . وماذا لو قالوا بعد حين .. الحائط ملكنا، وقناة السويس التي يطل عليها لنا .. ؟! أحقا هم بنوا الحائط .

- حائط البراق، بناه السلطان سليمان العثماني، وهو جزء من سور بناه حول مدينة القدس لحمايتها، وسرعان ما روجوا أن هذا هو الحائط الغربي لهيكل سليمان .

إذا كانوا قد فعلوا هذا بشأن حائط لم بينوه، فماذا هم فاعلون بشأن حائط بنوه فعلا..؟! خاصة وبكاؤهم هنا سوف يكون حقيقياً .. أما بكاؤهم هناك فهو «علي فشوش». سأل أحد الدارسين :

- هذا عن حائط فماذا عن المستعمرات التي يسمونها مستوطنات بينونها في الضفة الغربية ..؟!
انبري لسان صفوت منه :

- يستاهل العرب .. قبل حرب 67 كانت القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة في أيديهم فلماذا لم يقيموا دولة للفلسطينيين ..؟!
قال الضابط، ساخرا :
- آخرة فرقة التوجيه المعنوي ..؟!



سأل عنها في المجلس المحلي. أخبروه أنها لا تحضر مبكراً. نصحوه، إن كان يريد لها في أمر مهم، أن يذهب إلي منزلها، وتطوع أحدهم ووصف له مكان بيتها، ولم يكن حمدي بحاجة لذلك. طلب من سعد أن يقود العرب، إلي مزرعة الزيتون خلف العريش. وقبلها بقليل، عند شارع جانبي، قال :

- أعتقد أنه شارعها.

تمهلت العرب، وهو يتطلع إلي البيوت.. أشار إلى بيت انفراد بعيداً عنها، تحيط به النخيل. طرق الباب. قادت امرأة عجوز، إلي حجرة فسيحة، تركت بابها المطل علي صحن الدار مفتوحاً. فبانت له أبواب الحجرات من كل جانب. وفي الوسط أشجار النخيل. واستوقفت نظره شرفة، اعترضتها نخلة، بدلاً من قطعها لف البناء حولها، وبدت كأنها مطلة من داخل البيت، فأدرك أن صاحبه عريشية أصيلة.

أحضرت العجوز صينية عليها فنجانان صغيران. صبت القهوة من إبريق فضي رقبته طويلة، دقيقة عند العنق، تحيط بها وعند قاعدة الإبريق نقط صغيرة مدقوقة، وبزبوزه منحني صريح كإبهام المرء عندما يثنيه إلي الخارج.

غادرت العجوز، وطالعت قائمة امرأة، متينة البنيان، فارعة، لم يفلح جرح في خط مائل علي خدها الأيمن، أن ينال من بقايا ملاحظة متشبهة. لمت شعرها تحت غطاء رأس حديث مما تستعمله نساء المدن في الوادي. ووضعت عباءة سوداء فوق جلاباب داكن، أغلب الظن أزرق اللون. حواف

العباءة مطرزة بزجاج أحمر، حبكت العباءة حول جسدها، جلست على كنبه قبالة كنبته وأتكأت بكوعها علي مسند خلفها، وأطلت ذراعاها من كمي العباءة الفضفاضين القصيرين.

تحممحت وقالت:

- يا مرحبا

- مرحبا بك يا ست هانم..

- التقينا من قبل..

ظنها نسيت، أو تشكك أنها ما زالت تذكره، فلم يلتقيا أكثر من لحظة خاطفة. وصل مديرية الزراعة، فلم يجد أحدا في استقباله. حقا.. الوقت متأخر.. ولكننا أرسلنا إشارة.. نفى عامل التليفون علمه بذلك. هل كان هناك عطل، فلم يستطع عاملنا إبلاغها.. ليتنى تفحصت سلك التليفون الميداني. لحظ العامل حيرته، فنصحته بالذهاب للست حميدة.. لم تكدر تعرف مأموريته، حتى دبرت له مبيتاً في استراحة المحافظة، وفوجئ بعد أن دخل الليل برجل من طرفها يطرق بابه، حاملا طعام الكرماء.

- لم تُتَح لي فرصة لأقدم شكري.

- العفو.. أنت وغيرك على الرحب والسعة.

لحظت تردد، في الحديث فيما جاء من أجله. فأومأت إلي القهوة وابتسمت.. تناول رشفة، أذابت جمود لسانه، وقال :

سمعت أن المجلس المحلي في سبيله لتقديم مشروع لبيع الأراضي الصالحة للزراعة من العريش إلى رفح.

- تقدم كثيرون للشراء بالفعل.

- الأرض المعروضة للبيع صالحة جداً لزراعة الخوخ.. فهلا أرجأنا الأمر.. حتى نتأكد من صحة ما زرعناه منه.. فإذا أعطى ناتجا جيدا أرشدنا الناس إلي زراعته.

تناولت السيدة فنجان قهوتها. رشفت بتؤدة، معطية نفسها مهلة للتفكير، وقالت:

- لكن الموالح صحت..

- لاحظت انتشار زراعة اللوز.. ورأيت حباته صغيرة وخشنة.. وبعضها ليست به ثمرة.

أتت السيدة على فنجانها، وضعت على الصينية ونظرت مباشرة فى عينيه وقالت:

- لا أعدك بوقف البيع.. فلا نريد أن يفتر حماس الأهالى للزراعة.. لكننا سنطلب منهم الاسترشاد بما تقوله مديرية الزراعة.

وضع فنجانه على طقطوقة لصق الكنية، كأنما خشى أن ينحنى إلى الأمام ويضعه فى الصينية قبالتها. وقال حتى لا يحط الصمت:

- كيف حال محمد عايش..؟

- مُقعد ولا يغادر بيته.. صَبَّحه الله بالخير.

اعتزم زيارته فى بيته، ناحية الساحل غرب العريش، قبالة الفندق الذى تعمل فيه بنتها، ولحظ أنها ذكرت العبارة الأخيرة بزهو وقد تألقت عيناها، المتماوجتان بين الأخضر ولمعة صفراء بنية، أورثتهما بنتها. أول أمس كان فى فندق مارينا العريش على الشاطئ.. لفتت نظره مضيغة جميلة. من تنف الكلام، كلما أحضرت شيئاً لمائدته، علم أنها حاصلة على بكالوريوس تجارة. وحين استفسر عنها من أحد العمال، أجابه ضاحكا:

- أمامك المضيفات كلهن.. إلا هذه..

رفع حاجبيه دهشةً، فأردف العامل:

- بنت حميدة جلبانة.

نهض مستأذناً، وشكرها لحسن استقبالها، وهو يغادر لام نفسه.. هل حقاً زارها من أجل زراعة الخوخ.. مع علمه أن كثيراً من الموالح أعطت

نتاجاً عاليًا. وهل يتوقع حقًا أن يكون الخوخ أفضل.. أم هو عود من الريحان، نما خلسة في ظل شجرة ويتلمس بعضًا من الضوء.. هل لقاء عابر مع تلك المضيئة، يجعلك تتعلق بها. وأين حبك لصفية إذن. وهل أصبح من الضعف بحيث يزيحه لقاء عابر. أم هو الزمن.. وعدم التيقن من التحقق.. جعل النفس تهفو لرائحة الريحان.. حينما عبت في الجوّ.. قدرها في الثلاثين من عمرها.. فلماذا تأخر عنها الزواج.. هل هي ظروف الحرب.. ربما كانت في القاهرة تدرس في الجامعة ولم تستطع العودة إبان احتلال سيناء لمدة اثني عشر عامًا.. أم الناس يترددون في الاقتراب منها خوفًا من صلابته ونفوذ أمها، الذي سمع عنه.. لكنها قابلته اليوم برقة.. ولم ير منها سوى دماثة وإجابة معقولة لما طلب.. هل في الأمر سر لا أعرفه..؟!

صعد إلى العربية، وعينا سعد عالقتان به :

- فندق مارينا

- ليس وقته..؟!

- يا بني آدم.. قلت فندق مارينا..

وأخذ يتخيل منظره، عندما يوليان ظهرهما للفندق، ويذهبان إلى الجهة الأخرى. مرت العربية بمطبخ، فنظر إليه في غيظ.. قدر وقد سلكا في شارع البحر.. أن توتره، سوف يذهب بعد قليل.. ناغشتهما النسومات المنعشة.. وإلى يمينهما صفحة الماء هادئة.. ولحظ حمدي أنها هادئة جدا.. كما بحيرة.. فلا موج ولازبد..

أحس لهذا الهدوء رجفة، سرت في أعطافه.

في وقت بين العصر والمغرب، توقفت العربية، وكانت قد وصلت إلى مشارف بحيرة البردويل. نزل بعض الركاب يبحثون، عن كوب من الشاي، أو مشروب مثلج، ونزل حمدي، ليفك عقدتي ركبتيه، ويمشي الدم في أوصالهما.

ترامت مياه البحيرة هادئة تدغدغها أشعة الشمس، وتنساب في تعرج متداخل مع ألسنة الصحراء.

حلقت أسراب العجاج، بحذاء الأفق المواجه للشاطئ. انحرفت قليلاً فحجبت ضوء الشمس. وعمت الجور مادية منذرة. مال لون مياه البردويل إلى اللون الرصاصي. وبدأ أن أسماك موسى والقاروص والدينس، قد أصابها الاضطراب، فقد تعكر الأديم الرصاصي. منذ ظهور العجاج، تعطلت «الخارجة»، تلك الطواير من الدينس الخارجة من البحيرة، في مطلع الشتاء من كل عام، لتضع بيضها في عرض البحر.

أقام العجاج جداراً صليداً عند البواغيز، والمخارج. ما أن تلوح الطلائع، حتي ينقض عليها موجة في إثر أخرى.

ولما كانت الأسماك لا تستطيع الانتظار، وقد ناءت بطونها بما تحمل، وخشية أن يفوتها موعد الوضع، فقد جازفت بالخروج، معرضة نفسها لمناكير العجاج، التي أخذت تلتقطها، ملتهمة إياها في سرعة ويسر. وتسرع بعيداً، متيحة المجال لسرب آخر للانقضاض.. ولتتيح لأنفسها فرصة أخرى للمعاودة.

زادت عكارة الماء. أحست الأسماك أنها محاصرة، فغاصت إلي الأعماق. ولكن العجاج لم تخدعه المناورة. انقضت أسرابه تحت الماء، وسرعان ما عادت طائرة، وقد تدلت من مناقيرها أسماك الدينس، تومض قشورها الفضية المشربة بالحمرة، من أشعة شمس، تلوح حيناً، وتختفي حيناً.

ويبدو أن أسماك القاروص وثعبان البحر، ظنت أن هناك فرصة للسباحة، والبحث عما يرد جوعتها. لكن العجاج، الذي انتهى لتوه من وجبة الدينس الشهية، تاركاً من أفلت من حصاره، إلى عرض البحر، عمل جداراً دائرياً، ساعده في ذلك الهدوء المريب الذي عم البحيرة، وعدم

خروج أي مراكب للصيد فى هذا الوقت، حيث البحيرة مغلقة، لتطهير البواغيز، ولعمل صيانة فى المعدات والمراكب، وحيث موسم التزاوج والتفريخ.

انقضت أسراب العجاج، وظهرت فجوات بين أسرابه، أطلت منها أشعة الشمس مرتعشة. طارت أسراب العجاج تحمل فى مناقيرها سمك القاروص. ويبدو أن ثعبان البحر قد زاغ إلى الأعماق. وحلقت أسراب العجاج نشوي، ترقب الماء من أعلي، وكلما لاحظت تغير لون الماء، حددت البقع الدسمة، وصنعت جداراً دائرياً، وانقضت تلتهم الأسماك المدعورة.

أوشكت الشمس على الرحيل. وبات من المتعذر على العجاج، تحديد بقع الماء الغامقة، فأخذ ينتظم فى أسراب للانسحاب، ولم يشأ وهو ينسحب، أن يمر الأمر بسلام، فكان يهبط ويرتفع، ملتقطاً زريعة السمك.

عبث حمدي بمؤشر الراديو، ليسمع موجز أنباء الشرق الأوسط، التى تذيعه كل ساعة. بيان عن جماعة من الإسلاميين المتطرفين اقتحموا محل ذهب فى شبرا وقاتلوا أصحابه، ويؤكد البيان وجود عناصر غربية مدسوسة.

أغلق الراديو. أنتم تصدرون بياناً.. ونحن نصدر بياناً.. ولم يصدر الإسرائيليون بياناً.. علقوا على باب المعسكر من الداخل، مقتطفاً من حديث لديان وزير الدفاع الإسرائيلى مع جريدة أمريكية. سألته الصحفي الأمريكى :

- كيف أمكن أن تكررُوا فى حرب 67، ما فعلتموه فى حرب 56، وتضربوا الطائرات المصرية على الأرض.
أجابه ديان :

- العرب لا يقرأون.

الأمريكي :

- هل يمكن أن يفعل المصريون مثلكم ويضربون الطائرات الإسرائيلية علي الأرض.

ضحك ديان وقال :

- بالرغم أننا نعلم أن هذا ليس في إمكانهم، إلا أننا نتخذ احتياطات كأنهم يستطيعون ذلك.

وأنتت الصحيفة، علي اختيار ساعة الهجوم الجوي، في التاسعة من صباح الخامس من يونيو 67، ساعة تواجد الضباط المصريين في الحمامات.

احتل الإسرائيليون سيناء في حرب 1956، بعد انسحاب الجيش المصري وقد أعلن أنه اضطر لذلك بعد أن اكتشف تواطؤ انجلترا وفرنسا مع إسرائيل، لضربه من الأمام والخلف. لكن في حرب 1967، القوات الإسرائيلية وحدها.. ولن ينسحب من أمامها.

وكان أن أوهموا بوجود عدوان ثلاثي، علي غرار ما حدث في 56 واتضح فيما بعد أن العدوان في 56 كان رباعياً، وأن أمريكا شاركت فيه، وبالفعل كان تواجد الأسطولين، البريطاني، والأمريكي السادس، في مواقع قريبة من ساحة المعركة. وزودت أمريكا الطائرات البريطانية بجزء من موتوراتها، يمكنها من الطيران من قبرص إلى مصر، حوالى 400 كيلومتر، والعودة، دون أن تحترق، كما وقفت الطائرات الأمريكية فوق البحر المتوسط لتزويد الطائرات العائدة بالوقود في الجو.

وتفتقت أذهانهم، عن سبب لاندلاع الحرب، والفرصة سانحة لأن ثلث الجيش المصري في اليمن. أذاعوا في وسائل الإعلام المختلفة عن وجود حشود إسرائيلية على الحدود السورية، خاصة والتوتر كان حاداً

معها ومع الأردن. وتم تسريب هذه المعلومات إلي مخابرات الدول الصديقة لمصر، خاصة روسيا.

وأرسل الرئيس عبد الناصر رئيس أركان الجيش المصري إلي سوريا ولم يجد شيئاً غير عادي علي حدودها مع إسرائيل، وأنبأت صور الاستطلاع الجوي يومي 12 و 13 مايو عام 67 عدم وجود أية حشود عسكرية. ونفت الاستخبارات في القيادة العربية الموحدة هذه المعلومات.

- إذن فلا بد من استفزاز جمال عبد الناصر..

نسبوا تصريحاً لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية أننا (في مصر) سوف نلقي باليهود في البحر.

وأخذت وسائل الإعلام المختلفة، تتهم ناصر بالتقاعس، عن نجدة سوريا والأردن، وأنه يتخفي خلف قوات الطوارئ الدولية. وكان أن طالب بسحبها، ودفع بالجيش إلي سيناء.



أخرج سعد العربى من الحظيرة. رفع الغطاء الأمامى. صب بعض الماء. وضع إصبعاً بين الأسلاك، وتملى من أحدها، وضع الغطاء وأمسك ببطانة، وأخذ يطوق العربى، وهو يدعو فى سره، ألا يجد عامل التموين بالوقود فى هذه الساعة.

كثيراً ما قال للباشمهندس حمدي، لا داعى للتردد على بيت النائبة. أنت لم تحسم أمرك بعد، وهذه لا يجدي معها مقالك، يقهقه مهوئاً، وتلمع عيناه الرماديتان، فيظهر اخضرارهما، بلون المغات، وقد نشع علي بياض عينيه ويردد: السر فى بئر، الآبار هنا كثيرة، إذا شرب واحد من إحداها، عرف نصف سكان العريش، من، ومن أين. يستمر في قهقهته، ويقول : يبقى النصف الآخر. تقصد القبيلة الأخرى.

مصيرها مع الوقت أن تعرف، ولو أخفت السر، فإلى حين. يتوقف حمدي عن الضحك ويقول.. تقصد مع الوقت أن تعرف، ولو أخفت السر، فإلى حين. يتوقف حمدي عن الضحك ويقول.. تقصد أن القبيلة تظل ساهية، مثلك، متحينة سقطه للقبيلة الأخرى. فيقول سعد، أنه لذلك يجب عدم التردد.

يحاوره حمدي : لست متردداً، ولكنى أفكر. تساءل سعد فى نفسه : إلي متى.. وكأنه قرأ ما جال فى خاطره فقال : فى الجورة نضع بذرة الخوخ بعيدة عن الأخرى، حتى إذا كانت بها آفة، لا تضرها. فهم سعد تلميحه عما يثار من شائعات عن التعاملات فى الفنادق، وربما كانت إحداهن.. ود لو يقول له كل واحدة ولها عقلها، وتختار كيف تسلك، لكنه خشي

سخريته. كانا يستظلمان بفروع شجرة، أكاسيا، وقد سرت في الجو طراوة،
فجأة نهض سعد وقال :

- أحضر الغداء

تأمله حمدي وقال :

- نفسي أكون مثل هذه الشجرة.

- في وسط الصحراء.

- الشجرة تصنع غذاءها بنفسها.. تمتص بعض الضوء، وجذورها
تمتص بعض الماء، وما تيسر من التربة، على القد بالضبط.

قال سعد ضاحكاً :

- لأن الشجرة لا تذهب إلى السوق، تريد أن تفعل مثلها..

- ولا فضلات لها

- نسيت شيئاً..

- ماذا يا فالح

- هذا من ستر ربنا لأنها لا تتحرك من مكانها.

- ناقصينك..؟!

- غلطت..؟

- وجع في بطنك.. نحن نتحرك.. إلى أين..؟!

نظر سعد في ساعته.. تقترب من الرابعة بعد الظهر..

في الرابعة تماماً، وكان يقوم بالخدمة، لمح شخصاً آتياً من وراء تبة
مرتفعة، عارضه فوقف. كلمة سر الليل. قالها. تقدم. ضابط احتياط من ك
27 أ، كان في فرقة بأسوان، فاجأته الحرب في طريق العودة، ويود اللحاق
بوحدة في الجبهة. سمى له ضابطاً بكتيته. الاسم صحيح. ركنه معه حتي
الصباح، وقدمه لقائده. احتسب الشاي معاً، فاطمأن سعد قليلاً. طلب منه

القائد أن يذهب معه بالذخيرة، إلى مكان دبابه مغروزة، رآها في الطريق. أثناء العودة، استأذن ليفك ماءه. غطس في حفرة، وسرعان ما شنت الطائرات الإسرائيلية غارة مركزة على سرية دبابات بالقرب منها. انبطح سعد أرضاً وتساءل: لماذا الغارة الآن وهذا الموقع لم يتعامل بالنيران منذ الأمس، والسرية مموهة جيداً. انتهت الغارة ورجعا. سأل ضابط تعيينات عن إحدي كتائب المشاة، وذكر له رقمها. استغرب الضابط السؤال. هذه الكتيبة لم تعبر إلا من مدة وجيزة. احتلت مواقعها ولم تتعامل مع العدو حتى الآن. سألته:

- من أي وحدة أنت..؟

- 27 أ

قهقهة ضابط التعيينات:

- أنا من الوحدة 27، ولا يوجد في الجيش كله أ.

وضع سعد مفتاح التشغيل، على المغمض. ظل يحاول، إلى أن تمكن من الفتحة، وأداره. وضع قدمه اليميني علي ضاغط الوقود، في وخزات سريعة متلاحقة، حتى علقت المكنة، وتركها تدور في رتابة. أمسك عجلة القيادة، وثبت قدمه علي ضاغط الوقود، ولسان حاله يقول: أمرنا لله.

تري.. هل تكون النائبة هناك في هذه الساعة. أم خرجت لتلحق بأحد اجتماعاتها. الشمس تلملم أشعتها التي سبق وفرشتها فوق المدينة. رققتهما، وسحبتهما عند الأفق، وفوق البحر، ولن يمر وقت طويل، حتى تخضب نطف السحاب باللون الأحمر، وهي تمعن في الرحيل، حتي تتحول إلى نقطة صغيرة في عمق البحر، وتستطيع أقلها موجة أن تغرقها. استدار بالعربة، ليدخل في الطريق المؤدية إلى شارع العريش الرئيسي. لف بجوار قلعة العريش. تاهت في عينيه معالم الحجارة المتداعية،

والطوب الأحمر القديم. هل كانت هناك محاولة إقامة شيء جوارها، لكنه تداعي هو الآخر.

عند المنعطف، فى طريق، اعتقد أنها تؤدي إلى سوق الخميس، وفى غبشة الظلام الوشيك، خُيل إليه أنه لمح ندا. هل يستدير خلفها، ويهمل موعد الباشمهندس، أو حتى يتأخر عليه قليلاً. لكنه غير متأكد منها. نفس القامة، لكن هذه عيب جلاببها، عند حزام فى وسطها، فبانت ككرنب.

هل هى ندا وقد اشترت قماشاً، أو فستاناً، ووضعت فى عباها، أو لفته حول وسطها، ولماذا تفعل ذلك.

لعل شيئاً آخر فى يديها، لم ألحظه جعلها تفعل ذلك. هل لمحتنى. كانت لفتى عند المنعطف سريعة. أكاد أقطع أنها هي. نظرتى السريعة خطفت نور عينيها.

ما ينبعث من عيني ندا، ليس مثل ما ينبعث من عيني أية امرأة أخرى. خرج القائد من مخبئه، كالكرنب، كتمنا ضحكاتنا التى كادت تفضحنا، وأدركنا أن فى الأمر شيئاً.

علموا أنه تسلم علماً مصرياً، لفه حول وسطه، تحت ملابسه، وتسلم مطروفاً، وعليه ألا يفتحه قبل الواحدة والنصف ظهراً، ويبلغ جنوده، بفحواه.

هل حانت اللحظة أخيراً.. انتهت مدة التجنيد الأصلية لسعد وكثير من زملائه، وبدا أن مدة الاستبقاء لا نهاية لها. كل عام يتدربون على ما أسموه الخطة ألفين. استدعوا بعض الجنود ممن أحيلا للاحتياط من مدة وجيزة، وضموهم إليهم. قال الجنود : مناورات الخريف المعتادة. كانوا يتدربون على صد الإسرائيليين إذا هاجموهم.

هذه المرة، تدربوا على مطاردتهم إلى الضفة الغربية، فى أرض تشبه

أرض سيناء، بصحراء الفيوم، خلف الهرم الأكبر. قال القادة : ستكون هناك قوارب مطاطية.

قال أحدهم وهو يشخر :

- قال يعنى سنركب قوارب، ونعبر فعلا.. !

تصاعد الشك فى نفوسهم، فسبع سنوات، استبقاء فى الجيش. كل يوم فى موقع، وكل يوم يحفرون الرمال، ويعدون مواقع، ويجهزونها هندسيًا، ثم يتركونها، ويقيمون سدوداً من الرمال والتراب، ويحدثون فيها ثغرات، وأحياناً يتدربون علي عبور السدود بسلا لم من الجبال، وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم. وبترتيب، هذا وراء ذلك. وهذا يتجه يمينًا بزاوية معينة، وهذا يعمل ساترا ويتنظر زميله. وتُحدد لكل منهم مهمة : ماذا سيفعل بالضبط، ومتى، وإذا حدث شئ غير متوقع، ماذا يفعل، ومن أين يجئ العون. وتساءل أكثر من جندي: هل يلقون فى روعنا، بهذه الدقة المتناهية، أن الأمر جاد، حتى لا يزمزأ أحد.

استلقوا ذات مرة على الرمال، بعد العشاء، وما زالت تبخ حرارة، اختزنتها طوال النهار، وحين هبت نسيمات من ناحية مجاري الفيوم المائية وبحيرتها ومزروعاتها، سري فى أجسادهم المتعبة خدر لذيذ. قال زميل، وهم من الإرهاق، لم يعلقوا على مقولته :

- من يراهنى.. لن تقوم الحرب.

يسم سعد.. حين فار الدم فى عروقه، وقد خف جسده، وكاد يطير فوق صيحة «الله أكبر». ودقتها لو يري الزميل المراهن.. وفيما بعد.. خفف من غلوائه.. ولماذا.. وأنت نفسك لم تكن متأكدا. وحين يتذكر عناوين جرائد تلك الأيام، يتصاعد فوران النشوة فى عروقه. قطعت الدول العربية النفط عن أوروبا الغربية واليابان.

- الله أكبر.

البحرية المصرية تغلق مضيق باب المندب.

- الله أكبر.

رفضت مطارات أوروبا، هبوط الطائرات الأمريكية، التي تحمل عتاداً حربياً لإسرائيل، لتزود بالوقود.

- الله أكبر.

المسؤولون الأمريكيون يصرحون، أنهم سيبحثون عن بدائل للنفط مستقبلاً.

لم يتوقعوا أن يحدث ما حدث. وهل كنت أنا في الميدان، رغم العلامات أمامي، أتوقع شيئاً..؟!!

غيروا القوارب التالفة والمثقوبة.. ألم تكن هذه علامة..؟!!

عززوا الجبهة بالمدفعية الثقيلة.. ألم تكن هذه علامة...؟!!

عبرت وحدة إلي سيناء وقضت العيد، بين نقطتين حصيتين من خط بارليف، وتم إمدادها بالتعيين والذخيرة، بالقوارب..لا.. هذه ليست علامة.. لكن إشارة واضحة لقرب العبور، فكيف لم نلتقها، أو يتلقها أحد..؟!!



تخلل حمدي ظلال أشجار الكافور والجازورينا الباسقة، وقد ألقـت
بها على الرمال.

وصعد الربوة إلى بيته، من دور واحد، مبنى بطوب أسمنتى، بقي على
حاله دون بياض من الخارج.

رمى سترته فوق أول كرسي قابله. أخذ نفساً عميقاً.. وأطلقه.. يا لك
من ساه يا سعد. تعرف الرجل ولا أعرف.. تتركنا نذهب، ونتكلم، وخلال
الحديث أكتشف أنكما صديقان قديمان. كيف مرت مرور الكرام حرارة
اللقاء، ولم تلفت نظري. لا داعي للوم نفسك. كان بالك مشغولاً بإنهاء ما
حضرتما من أجله.. وكان قلبك تتسارع دقاته، حين أتى إلى مجلسكما،
علي مصطبة أمام الدار، تري منها فندق سمية. واعتزمت أن تزور الرجل
ثانية. وعندما أخذكم الحديث، صممت فى نفسك.. إذا زرت الرجل..
فمن أجله.. وليس من أجل شئ آخر.

سأل حمدي العجوز عن عائلة سمية. قلق عندما عرف النية، والحديث
يأخذ ويعطى، قال محمد عايش :

- البنت، مخطوبة، أو شبه مخطوبة، لشاب من الإسكندرية يعمل
معها..!!

دق قلب حمدي بعنف، وقد أخذ علي غرة، وبصعوبة استفهم :

- شبه مخطوبة..؟!!

لا شئ رسميًا بعد.. وأمها لا تمنع .
فرك الرجل أصابع يديه ببعضها بعضاً، وأصلح من وضع جمرات النار
فوق المعسل، وضرب بمبسم عاجى الملمس، على راحة يسراه السمراء
المدبوغة، فى تأن، وقال :
- يبدو أن أمها تشجعه..

انتظرا توضيحه. جذب نفساً عميقاً من الدخان. توهج الجمر فوق
الحجر، وأحدث صوتا كطرقعات الملح الخشن إذا مسته نار، وبان ألق
فى عيني العجوز الضيقتين.. وشع وجهه المغضن. نفث الدخان علي
مهل وقال :

- أفردت له حجرة فى بيتها، يقبل فيها.. وكثيرا ما يتغدي عندها.
تناول فنجان قهوته، وتلقائيا فعلا مثله، وناول سعد المبسم، وهو
يقول:
كل ما تطلبه المرأة.. أن يستقر فى العريش.. فهى لا تريد لبنتها الوحيدة
أن تغادرها.

سحب حمدي كرسياً قاعدته قماشية، استرخى عليه جوار شباك
مطل على البحر. سرح ببصره. بينه وبين البحر شاطئ عريض، رماله
ناعمة. قرب الماء ثلة من أشجار النخيل، متضامة من أسفل، كأنها
نابعة من بعضها بعضاً. تذكر ثلة مثلها فى قلب بيت عايش والجدار
يفسح لها الطريق. وتخيل نفسه يعيش فى بيت مثله، تطل عليه سعف
النخيل، وتتدلى سباطات البلح، براعم خضراء. يشاهد تحولها،
إلى اللون الأحمر، أو الأصفر. بدت له نخيل الشاطئ وحيدة. كم
استراح علي جذوعها، حين كان يهرب مع زملائه من قيظ المعسكر.

وساعة العصري، يزقون أي باب، من أبنية المصطافين، المتناثرة على الشاطئ. لا يعرفون لمن هى. وإن خمنوا أنها لعلية القوم. يستريحون بين جوانبها، ينعمون بالاستلقاء على حشايا أسرتها اللينة، وبعد تعسيلة، يشطفون وجوههم. وعبثاً يبحثون عن صابونة، أو بقايا صابونة. يعدون نقودهم. ويكشفون عن رغبة دفيئة لتذوق طعام مطبوخ. يذهبون لأحد مطاعم العريش. وحمدي يغسل يديه وجدها فرصة.. صابونة وحنفية. وضع رأسه تحت الحنفية، غير آبه بمن يلاحظه. لم ترغ الصابونة فى شعره، مسح رأسه بسرعة فى فوطة معلقة. تلفت وهو يشعر بالخلجل. عاد لمقعده. زميله الذي حل محله، فعل مثله وعصته الصابونة. كتم ضحكته. دفعوا الحساب، واقتراح أن يذهبوا إلى البحر. يتقافزون بين الأمواج، وبين وقت وآخر، يغطس أحدهم بجسده، ويدعك يديه تحت إبطيه، وباقي جسده، محاولاً إزالة العرق. يخرجون وقد علق الملح بأجسادهم.

أحس بخذلان فى أطرافه، خشي أن يغفو.. ذهب إلى الحمام.. تناول صابونة من رف علوي. نزع غلافها. دقق فيه، محاولاً فك الرموز العبرية. ألقاه فى سلة للنفايات تحت الحوض. فتح الحنفية وصب رأسه، ودعك بالرغوي رأسه ووجهه. تذكر أنه لم يأكل منذ الصباح. وجد فى المطبخ بقايا سمك بلطى، أحضره بالأمس، فوجئ به فى السوق. وأخبره البائع، أنه لم يظهر فى البردويل من زمن بعيد. نزع رأس السمكة، ليلقيها.. لحظ حبات من البطر وخ عالقة بها.. مصمصها.. وهو يتحسر على بلطى بحيرة المنزلة العامر بالبطارخ دائماً.

كانت أسراب البلطى تخرج من المنزلة إلى البحر وتسبح باتجاه

البردويل، تضع بيضها عند صخور فى منتصف الطريق.. وتأتى الذكور لتلقيحها. وإذا لحظت الأنثى بيضا غير ملقح، أو فاسدا، شفطته. ويبدو أن سمكته ما أن فعلت حتي وقعت فى شبكة صياد.

بعد الفقس، يعود البلطى إلى موطنه فى بحيرة المنزلة. وبعضه يأنس فى نفسه قوة، تمكنه من السباحة إلى بحيرة البردويل، حيث نقاء مياهها. لكن.. يبدو أنه أحس، بما يقع للدنيس فى بحيرة البردويل، طوال فترة وجود الإسرائيليين فى سيناء، فعزف عن الذهاب.



بينما يتفقد حمدي الزرع فى الأغوار، لحظ تراباً أحمر ناعماً، غطى السيقان. لحظ العمال السيناوية قلقاً بادياً علي وجهه. طمأنوه ألا خوف منه. وجوده يدل على تربة جيدة. ما أن يأتى عليه ماء حتى يهبط، ويتماسك، مختلطاً بالتربة.

قلب الأمر فى رأسه. من أين يأتى بالماء. هل يرش الزرع، وكيف، وهو يعتمد على الماء الجوفى. هل يسحبه إلى خزان، ويوصله إلى خرطوم رش. أم لا داعى للتحوف كما قالوا. هل تتكفل الرطوبة به، وعاجلاً أو أجلاً، سوف يهبط إلى التربة. أخرجه من أفكاره الفراش الذي ينطف بيته. أخبره أن ضيفاً فى انتظاره. استفسره. علم أنها ضيفة. من يا تري..

هل قامت صفية، أخيراً، بمبادرة. أم تراها أحست بقرون استشعار خفية، بسمية.. كانت تبقى حكاية. هل هى حميدة جلبانة. وصلتها وشاية بخصوص بنتها. لا.. حميدة لا تحضر.. كانت أرسلت فى استدعائه. وصل إلي البيت. ما أن وضع المفتاح بالباب، حتى وجدها واقفة أمامه. حمدية. بحضورها، وطبيتها، وإقبالها. آخر من كان يتوقع. احتضنته قبل أن يفعل. وقبلته على وجنتيه قبل أن يعى الموقف. تراجعت وقالت متصنعة الدهشة :

- كأنك غير مرحب بى.

- يا خبر..

- مفاجأة.. !!

تمالك نفسه، وقال :

- أجهز لقمة.. أم تشرين شيئاً أولاً.

- استرح أنت وسأصنع الشاي.

وارب الشباك المطل على الشاطئ.. ترامت له الموجات من بعيد..

كل تحاول ركوب الأخرى، دون زهق أو ملل. ما زالت فى انتظار موافقتى

على زواجها من صفوت. تريدني كآب.

لا تود عمل شئ كهذا دون موافقتى. وسوف تسفه حجتي : معه دبلوم

صناع، وأنت خريجة كلية، بقولها : لم يعمل بالدبلوم وسيفتح محلا

للحام بالأكسوجين. كيف تقولين، لا تهمل درجة التعليم. المهم الشخصية.

عندك.. خريجو كليات، كثيرون، ولا يفهمون السماء من العماء. فى هذه،

والله عندك حق. مديرنا الإداري، خريج آداب لغة عربية، يخطئ فى

الإملاء، ولست أدري ما الذي رماه على الزراعة.

- الشاي.

تطلع إليها، كأنه لم يرها ساعة أن حضرت.. عيناها باسمتان، وجهها

الناعم الذي يفصح بشفافية غريبة، عما يعمل فى أعماقها، يبعث فيه

طمأنينة وراحة، رغم كل شئ.

- نورت يا حمدية.

بسخريتها، التى تفعلها دوماً، بود مازح، فلا تبدو جارحة :

- والنبي صحيح..

- والله العظيم..

- بكاش..

رشف من كوبه، وقد اعتزم ألا يقودهما الحديث إلي نفس ما اجتراه مراراً دون جدوي، وفي كل مرة ينوي ذلك ويسرقه الحديث إلى مالا يريده. أزوجك سيد سيده. تضحك في تودة، وترمقه بنظراتها المازحة، زوج نفسك. خائف عليك. خف على نفسك. وعندما تطهق منه : يا سيدي.. أحبه ويحبني، حياتي وأنا حرة فيها. ويتصاعد النقار.

تناولت كوبها بين راحتها، ولمعت عيناها السوداء وان وقالت :

- ليس ما تفكر فيه

مستنجداً

- إذن ماذا..؟!

- البيت.

رشف رشفة كبيرة. لسعه الشاي في فمه، بينما أردفت :

- علي وشك السقوط

آه.. المشكل الأزلي. معهم قرار إزالة، وعاجزون عن الحصول علي شقة جديدة، في العمارات التي تقيمها الوحدة المحلية لمدينتهم. بعد التوزيع على محاسبين كبار الموظفين، ومحاسب أعضاء مجلس الأنس، الشعب، وأعضاء الحزن الوطني، الحزب الوطني، لا يبقى شئ لأمثال حمدية وأمها..؟!

تعرف عجزي، فلا أملك ما يسد أحد البطون الواسعة من السادة موزعي الأقدار. آه.. سوف تمسكني من يدي التي توجعني. تتزوج وتترك أمها معي.. وسوف تعد بدعوتها للإقامة معها بعد فترة. الأم لا تستريح إلا عند بنتها، وأنت مصيرك إلى زواج.. ومهما كانت زوجتك.. فلن تستريح معها.

- حاضر .. حاضر يا حمدية .

قطبت جبينها وقالت :

- وماذا تنتظر .. ؟!

قُطبت الجباه، وعلت الشمس، واختنق الجو، والقارئ يردد في رتابة:

«أعد الله لهم عذاباً شديداً، إنهم ساء ما كانوا يعملون، اتخذوا أيمانهم جُنةً فصودوا عن سبيل الله فلهم عذاب مُهين، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

بدأ المشيعون يسحبون أرجلهم .. وتلكأ بعض الإقارب، وخاصته، يترحمون على والده. أحس، ولا يدري كيف بعيني حمدية تنغرس في رأسه، التفت فطالعه وجهها، أو مأت إليه، فاقترب منها. همست :

- أعطيت الرجل أجرته

حاول أن ينزع نفسه من حزنه، وعصته الكلمات .

قالت في لهجة سريعة مؤنبة :

- ماذا تنتظر ؟!

ناولته ما تيسر، وإذا بالرجل يصدق بالله العظيم، وبسم الله الرحمن الرحيم:

« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، ومن دونهما جنتان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، مدهامتان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهما عينان نضاختان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهما فاكهة ونخل ورمان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، فيهن خيرات حسان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، حور مقصورات في الخيام، فبأي آلاء ربكما تكذبان، لم

يطمئن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان، متكئين علي رفرف خضر وعبقري حسان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام».

صبرك على.. نأكل لقمة أولاً..

- وبعد..

- يفعل الله ما يشاء

قامت لتعد الطعام، وهو يخبرها أن عندها كذا وكذا في الثلاجة وكذا في المطبخ.. واضطجع علي كرسيه..

حار بماذا يجيئها. خاصة إذا أصرت على سفره معها لينهيا المشكل. وليست لديه وساطة.. أو معرفة.. وحتى لو وجد.. فهذه المسائل حبالها طويلة.. وإذا ذهب ليشرح الأمر لرئيس الوحدة المحلية.. فلمن تقرأ زبورك يا داود..؟!

هل يسافر معها، والسلام.. لكن ماذا يقول لأمه، وقد أمهلها المرة تلو المرة. وكيف يحصل على شقة في القطاع الخاص، وخلو الرجل لن يقل عن عشرين أو ثلاثين ألف جنيه، والإيجار الشهري يساوي راتبه وراتب حمدية معاً. هل يكون الحل في السفر للعمل بالخارج كما اقترحت صفية مرة. أتراها مترددة حيالي، لأنني لم أشد عجلي، وأسافر معها عندما جاءتها فرصة، لتكوين قرش محترم، ولأكون محرمًا لها.

معك حق يا صفية. وعلى استعداد لأن أبصم بالعشرة. لكي أدخر خلواً، يلزمني عشرون عاماً، وعلى فرض، ألا أصرف قرشاً واحداً من مرتبي. هل أخبر أمي بالحقيقة، بدلاً من التسويف، والتعلق بالحبال الذائبة.

كان أول شئ فكر فيه، بعد عودته من الأسر، أن يذهب لزيارة أهل الهواري، خُيل إليه أن الشوارع ضاقت، والميادين صغرت. ومع أن ذهابه كان بغيضاً إلي نفسه، ولكن.. لابد أن يخبرهم أحد بالحقيقة، وإلا ظلوا، متعلقين بأوهام كاذبة.. شأنهم شأن أهالي المفقودين، والذين لم تصلهم خطابات رسمية عن استشهاد آبائهم.

دلف من سوق الخواجات، إلى شارع على محمود طه. كان الهواري يفاخره دوماً بشيئين، مكتبته العامرة، وسكنه في الدور الأرضي من بيت الشاعر على محمود طه. وكثيراً ما شكاه الهواري أن البيت آيل للسقوط وأنه لا يدري أين يذهب مع عائلته إذا سقط.

يضيق الشارع في نصفه المؤدي إلي سوق الخواجات، بعد تقاطعه مع شارع سيدي عبد القادر. وبيت الشاعر إلى يسار القادم من سوق الخواجات قبل التقاطع. طالعه بيت حديث البناء، في دوره الأرضي عدة محال. ذهب وجاء لعله يكون قد أخطأ. وبعد أن تغلب على خجله، سأل عجزوا في محل بقالة في مواجهة البيت.

- كما تري..

- وجماعة الهواري.

- عزلوا.

وقف برهة، غير مستوعب الأمر. حانت منه التفاتة إلى أحد المحال الجديدة. كان لمنجد أفرنجي.. وقد وضع الكارينة أمام المحل.. وصبياناه يعدونها للتنجيد.

اشتكوا من أرضية العنبر. أخذوهم إلي الخلاء، حيث يجففون كومة من التبن في الشمس. ولما كانت الكمية قليلة، سرعان ما تعاركوا، كل

يود أن يحظى بقليل يضعه تحت جنبه، يقيه، رطوبة الأسمت، والحفر والقلقزة. تخاطفوا التبن، والحراس يصخبون ويضحكون. وعندما جري أحد الأسري، وقد ظن أنه استأثر ببعض التبن، عاجلته رصاصة في فخذه، فجلس مكانه.

وضعت الطعام أمامه. أحس بنفسه عزوفاً. لم يستجب له، خشية أن تفسره بما يجرحها. بعد الغداء، اعتراهما خمول. لم يكادا يستسلمان له، حتى طنت ذبابة.

قامت خلفها مطاردة بفوطة. وارب الشيش، ليتيح لها أن تغور، وحمدية تحاول القضاء عليها، بضربة مباغتة، دون جدوى.

خارج المستشفى الميداني، الذي أقاموه على عجل، من الخشب، في جانب من معسكر الأسري، قعدوا فوق نجيلة مهملة. طنت ذبابة.. أعقبتها أخرى.. فأخرى. تسرب بعضهم إلي قاعة المستشفى وفي أثرهم حمدي، لكن الذباب لم يعتقهم. لوح حمدي بيده في عصبية، فاصطدمت بمريض إسرائيلي على سرير جواره، برطم مهدداً.

- ليس غريباً على من يطلقون النار كالمجانين.

- إنها الحرب... !

- يكون الموقع قد سقط،

جاء ممرض إسرائيلي وهش الذباب بفوطة في يده، ماراً بالأسرة على الجانبيين. لمح عدة ذبابات إلى يمينه على الحائط، هوي عليها بشدة. أصابها فلمعت عيناه.

- يموت جنود دون داع.

-

- فعلتم ذلك مع الفلسطينيين، لتركوا قراهم.. لكن ما جدواه معنا فى سيناء..؟!

رفع المريض رأسه قليلا، ووضع تحتها مخدة إضافية، وقال :
- اعتقلتم اليهود وعذبتموهم.

- تقصد أيام نوري السعيد فى العراق، والملك فاروق فى مصر، كنا محتلين من بريطانيا.

وتساءل حمدي. هل تم ذلك، بضغط من البريطانيين، لإرغام اليهود على الرحيل إلى إسرائيل، ولتخلص من اليهود الشيوعيين الذين طالبوا برحيل القوات البريطانية عن مصر فى مظاهرات الطلبة والعمال يوم 21 فبراير 1946 واضطرت بريطانيا إلى سحب قواتها من أنحاء مصر وركزتها فى قاعدة قناة السويس.

أم أن الحكومة المصرية فى عام 1948، وقد ضايقها أن بعض اليهود المصريين شيوعيون، وقد دفعوا مع زملائهم العمال فى شبرا الخيمة والمحلة الكبرى إلى الإضراب، لزيادة أجورهم، أرادت التخلص منهم. لو كان ذلك قصد الحكومة، فقد جاء نقبها على شونة. كسب البريطانيون برحيل اليهود الصهاينة إلى إسرائيل، وخسرت الحكومة برفض اليهود الشيوعيين، ليس مغادرة مصر، بل مغادرة معتقل الهايكستب، وظلوا متضامنين مع باقى زملائهم من الشيوعيين المصريين، ثمانية شهور، حتى طردوهم من مصر.

وانبثق سؤال فى رأس حمدي :.. لكن لماذا تركت القوات البريطانية المعسكرة فى قناة السويس الجيش المصري يعبر سيناء إلى فلسطين؟!..

حطت ذبابات أخرى على الحائط. باغتها الممرض. أفلتت إلى أعلى وإلى الخلف. استدار بعصبية ملاحظاً. ظن أنها في متناول فوطته، ضرب بشدة، فراغت. أخذ يهوي بالفوطة في هذا الجانب وفي ذاك الاتجاه، وقد جحظت عيناه، ونضح جبينه بالعرق، وكاد يتعثر في أرجل الأسرة، أكثر من مرة، وفي الجالسين أرضاً، ويختل توازنه.

برطم بالعبرية وقد انقلبت سحنته. أغلق باب القاعة ونوافذها، وفتح باب دورة المياه في صدر القاعة. أخذ يهش الذباب في اتجاهها. ناوله ممرض آخر بخاخة رش مبيد. وعندما أيقن أنه حصر الذباب داخل الدورة، دخل وأغلق الباب خلفه.

- وماذا عن رئيسكم عبد الناصر..؟!!

أحس حمدي بزققة. فنهض ونقر باب الدورة. بعد قليل خرج الممرض.

أثناء حرب 56، اعتقل عبد الناصر مواطني مصر من اليهود، وكان الشيوعيون من اليهود المصريين، الذين سبق طردهم من مصر، قد أصدروا بيانات بتأييده، واستنكروا العدوان الإسرائيلي البريطاني الفرنسي على مصر. وأبلغ أحدهم من فرنسا، هنري كورييل، عبد الناصر قبيل العدوان بخطة الجيش الفرنسي في حرب 56. ورغم ذلك لم يفرج عبد الناصر، إلا عن قبل مغادرة مصر.

وقعت عينا حمدي، على بقع دم قمیئة تلوث الحيطان. فتح شباك دورة المياه حتى لا يختنق. مشى وهو فاقد للاتزان. تساند علي شبابيك الأسرة. أسرع عسكري لمساعدته على الجلوس. هز رأسه رافضاً، فأخذه إلى خارج العنبر، جلس على إفريز جواره. عاد العسكري يحمل كوبين

من الشاي، أعطاه واحداً. لفت نظر حمدي، أنه يرتدى بنطلونا أسود، وقميصاً أبيض، ويضع غطاء رأس أسود. ربما من الشرطة المحلية، ولعله في زيارة لأحد أقربائه. ابتسم الجندي مشجعاً ليشرب الشاي، الذي عافته نفسه. طالعه سحنة سمراء، بها بقع أكثر دكنة كبعض أبناء الحارات في مصر.

تناول رشفة من الشاي، حتى لا يكشفه. لدهشته، وجده شاياً حقيقياً، فخمن أنه أحضره من مقصف المعسكر، أو من مطعم الحراس. ها قد جادت الظروف بكوب من الشاي، طالما هفت نفسه إليه، بدلاً من الشاي الذي يحضرونه لهم. ماء فاتر، ماسخ، لونه مثل اللون الذي يكتسبه الماء عندما ينقع فيه الحذاءون جلد النعال. مدد قدميه علي النجيلة. تقافزت بالقرب منه بعض العصافير.. تحرك رؤوسها بسرعة.. ترفرف علي ارتفاع منخفض وتحط ثانية.. اقتربت من سور الأسلاك الشائكة، الذي يحيط بالمعسكر.. سرعان ما رفرفت بأجنحتها.. وطارت في الفضاء الرحب.

ردد في ذهنه مقطع شعري، سمعه من فؤاد حداد في معتقل واحة الخارجة: ملكني.. لكنني البراح..



الشتلات انتصبت..
 رقص قلبه من الفرحة.
 أمسك نفسه، حتى لا تتماذي، وتساءل..
 أهو انتصاب الراحة في التربة، وامتداد الجذور إلي الماء..
 أم هي الصحوة قبل الذبول، وهو الانتصاب قبل الانكسار.
 اصبر قليلاً.. وسوف تري..
 لا. لقد انتصبت هكذا بالقرب من القناة. الأرض تشبه الأرض.
 تشبه..؟!..

إنها امتداد لها، وما القناة إلا عارض، وياله من عارض. كثيراً ما
 ارتاحت نفسه، وهو يتأمل زرقة مياهها، يحف بها السلام والدعة. وصفاء
 السماء، يحنو عليها. ولا ينس منظر مراكب العالم، يراها وهو قادم من
 بعيد في اتجاه القناة..
 كم من المصريين نفقوا وهو يشقون هذه القناة.. وكم ينفقون الآن
 وهم يحرسونها.

انتصبت الشتلات.. ولم تعباً بالقذائف المتبادلة، عبر القناة،
 تحاول أن تطول المتخندقين خلف السواتر الترايبية والرملية، علي
 الضفتين.

بغته، تحول القصف المتبادل، إلى قصفة هائلة، قام بها ما يقرب من
 ألف مدفع، جعلت من المستحيل على أي شخص أن يرفع رأسه في
 الضفة الشرقية، أو يطل من أي مزغل للرؤية.

وعقد ديان، الذي عاد وزيراً للدفاع، مؤتمراً صحفياً. كان جهماً، وأعلن أنه لا بد من القيام بانسحاب كبير إلى عمق سيناء. وواجهه الصحفيون بما تردد عن انهيار «جونين» قائد جبهة سيناء. اكتفى بالقول أن الموقف صعب.

وحين التقى هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي، اللواء محمد عبد الغنى الجمسى، بعد الحرب، قال كيسنجر ضاحكاً:

- هل تعلم أين تلقيت خبر اندلاع الحرب..؟!!

ابتسم الجمسى وقال:

- فى فندق والدورف استوريا بنيويورك.

- حتى هذه «جنرال»؟!!

فالجسمي، كرئيس للعمليات، لم يدرس فقط حركة المياه فى القناة من مد وجزر، لاختيار أنسب الأوقات لنزول القوارب المطاطية المحملة بالجنود، ولم يختار الساعة الثانية بعد الظهر، ليخالف الموعد التقليدي للهجوم مع أول ضوء. كان الأهم (من ذلك، أين سيكون كيسنجر عندما يصله النبأ..؟! وقدر أن تكون نيويورك قد تخطت منتصف الليل، حين يصله الخبر، ولن تتمكن عربته من السير بسرعة فى شوارعها المزدحمة، ليصل إلى البيت الأبيض، وحتى يتصل بوزارة الدفاع، وحتى يقيمون الموقف ستمضى عدة ساعات..). الجيش المصرى فى حاجة إليها، ليكمل عبوره وعندما يصلون إلى اتخاذ اجراء، يكون الليل قد دخل فى مصر، والنهار طلع فى أمريكا وحين يكون الضباط الأمريكيون فى الحمامات، تكون الدبابات المصرية قد أكملت عبورها وترس الجيش المصرى فى سيناء.

وعندما علم الأمريكيون أن ديان اقترح انسحاباً كبيراً إلى عمق سيناء، فرملوا انسحابه، وأرسلوا بعض كبار ضباطهم لحث الإسرائيليين على

التماسك، وشجعوهم على القيام بهجوم مضاد، وصنعوا جسراً جويّاً حمل إلى العريش دبابات وطائرات لم تستخدم من قبل.. ورغم إحساس حمدي، بما أحس به الناس من فرح، إلا أنه كان في قرار نفسه.. يحس بغبن ما.. هل قدره أن يشارك في حربى 56، 67 حيث الهزائم ولا يشارك في حرب 73 حيث النصر.. أي قدر هذا؟! سأل عن سعد الدرى، فأخبروه أنه لم يحضر اليوم. ألقى نظرة على الأغوار القريبة.. أطل في الخصى الذى اعتاد أن يشرب الشاي فيه. لا أثر له والعربة مركونة في جانب. هم بسؤال ندا، لكنه تراجع. هكذا أنت يا سعد.. عندما يريدك المرء، حتي لمصلحتك، لا يجدك. أرسل له محمد عايش مبكراً، فاغتسل سريعاً، وذهب إليه. كان الهواء منعشاً في الصباح، وبحر العريش، شفاف الاخضرار، تتدلل مياهه علي ألسنة الشاطئ. استقبله عايش منتصباً بقامته القصيرة المتينة. إذن فقد استعاد عافيته. وأسفرت غضون وجهه عن ابتسامة مرحبة. نفس الابتسامة، حين رأي الشتلات قد اشتدت عند ضفة القناة، لم يشأ ساعته أن يشرح له ما فعله. قلم الزوائد، وأبقي علي الساق من زرع الوادي، وعليها فقط فرع مقلّم من شتلة سيناء.

قال عايش :

- على وشك أن تزهر.

ربت حمدي بيمنه علي كتفه البعيد وأودع ظهره في صدره وقال :

- عما قريب تذوق ثمارها.

أشار عايش إلي سيناء، حيث المواقع الإسرائيلية :

- يا هناء من يعيش ..!!

أدرك حمدي من بشاشته، أن وساطته قد نجحت. سأل :

- وافقوا..؟

هز رأسه بالإيجاب، وصفق فحضرت صينية الشاي. قال حمدي :

- بقي لنا طلب بسيط

تطلع عايش إليه، وقد ضاقت حدقتها. استمر حمدي :

- أنت والد العريس

خفض عايش بصره،، وقد اغرورقت عيناه الصغيرتان. أردف حمدي،
كأنما يستدرك شيئاً فاته :

- بل والدنا جميعا.

ركن حمدي فى الخصى الذى يتناولون فيه الشاي. مهما غرب سعد
وشرق، لن يغيب كثيرا عن ندا. فوجئ بها تدخل وقد حملت صينية
الشاي. كاد أن يقول، هذا ما أردته وفي هذه الساعة بالذات. وغبط فى
سره سعداً عليها. تناول منها الصينية، وإذا بسعد أمامه. رفع ناظره فى
دهشة. جلجلت ضحكة سعد، أغلب الظن، مُتوهّجا، حتى لا يسأله عن
غيابه. قال :

- حماتي تحبني.

ما زال حمدي مأخوذاً، من توقيت حضوره، وتساءل.. تري.. هل
لمحتة ندا قادماً من بعيد... فأعدت الصينية. قال سعد :

- تبحث عنى..؟!

لم يغادر حمدي، ضيقه، من عدم تواجده، لحظة أن أراده، فقال :

- لأتملى بالرؤية..!!

جلجلت ضحكة سعد ثانية، مفوته عليه غرضه، وانسحبت ندا، متيحةً
لهما الفرصة للكلام. ناوله سعد لفة فى ورق جرائد، سرعان ما فاحت
منها رائحة شواء سمك.

- رشوة..

- توقف بالله عليك.. وطمنى..

أثرت فيه لهجته، فذهب غضبه وقال :
- أدع لعائش .

قفز سعد طائراً وغادر الخص، هز حمدي رأسه فى أسى .. لم تتح له الظروف قبلاً مرة واحدة شكره . سمع باسمه أول مرة من صفوت صبور . والمرة الثانية، حين كان يمشى فى الأرض قلقاً، يتفحص الزرع . لحظه قائد الموقع الذي يزرع أرضه جواره، فأسر له بحاجته إلي شتلات لوز من سيناء . تفكر القائد قليلاً، وقال :

- سنري .. حين يحضر محمد عائش
ظنه يسخر منه . هل يحدثه حقاً وهو المشغول بتأمين، قواته، فى الطرق والمدقات الوعرة، إلي مواقع الإسرائيليين .
سأل وهو يدقق فى عينيه :
- الدليل ..

- نعم
ويبدو أن القائد، لمح تساؤلاً شاكاً .. عالقا فى وجهه، فأردف :
- إذا لم يتمكن .. عندنا أدلاء آخرون .

عندئذ زال شكه، وتأكد من جدية القائد . وتأكد أكثر، حين أرسل فى طلبه، وأخبره أن يسرع للقاء صفوت صبور، قبل انتهاء موعد تصريحه بالغياب عن وحدته، وأن عنده من يود لقاءه . ووصف له بيته فى الإسماعيلية، أسرع دقات قلبه وخمن أنه لا شك محمد عائش، وأنه لا بد قد أحضر ما طلبه . وعندما وصل إلى البيت، كانا قد غادرا . استقبلته صفية وعلم منها أنهم رقوها على درجة خالية فى جهاز المحاسبات بالمنصورة، وأنها غالباً تقضى الخميس والجمعة فى الإسماعيلية . ولا يدري لماذا ذكرته بشجرة الأكاسيا . هل لأنها هيفاء، كجذعها، أم لأن شعرها تدلى فيما يشبه صفائر، كثيرة ومتنوعة، غطت رقبتها كفروع الشجرة الفارهة، ذات الأوراق الصغيرة، تهمس حين تتخللها الريح .

لم تبد حياءً كاذباً، وتعتذر عن استقباله. رحبت به فى تحفظ، وأحضرت
لفة فى ورق جرائد، أطلت أجزاء من جذورها البائتة فى تربة متماسكة
بالكاد، من جهة، وأطلت ذؤاباتهما من جهة أخرى. نقل بصره بين طلعتها
المشرقة، وبين ما تحمله، وأسعفه النطق :

- محمد عايش.. ؟!

هزت رأسها، وانحنت تضع اللفة على تراييزة واطئة، عن كراسى الطقم
الأسبوطى، فبانت معالم ثدييها، لينة، حانية، لبنية، مشربة بالسمرة.
استأذنت، كأنما ترفقاً به، لتحضر له شيئاً يشربه. اعتذر، واعدأً
بالحضور مرة أخرى، حين يكون صفوت موجوداً. جاء صوتها، فى نعومة
ودفء فروة قطة:

- تشرف.

شكرها، فأردفت :

- الرئيس عايش يود، معرفة النتيجة.

أولته ظهرها، تقوده إلى الباب. خمن تحت الثوب ردفين أثيين.
هل عايش الذي يود معرفة النتيجة، أم هى التى تود أن تعرف.. أو
بالأحرى تود له أن يتصل.. أم لا هذا ولا ذاك..
انساب صوت راديو على البعد.. أنا قلبى إليك ميا.. يا سلام يا
فايزة

غادر، مغمغماً، ولم يستطع التملّى فى العينين. حملها سلامه لصفوت،
قبل أن يمديه بالسلام.

أنزله الباص بالقرب من الطريق المؤدية إلى الأرض. انتظر مرور
سيارة عسكرية تأخذه فى طريقها. بعد قليل خشي على ما يحمل، من
شمس أخذت تسخو بما لديها. أحاط اللفة بيمينه ضاماً إياها إلى صدره،
محاذراً انفرط التربة المحيطة بالجذور والملفوفة بقش أرز أصفر، وحاذباً
بجذعه، حتى لا تري الأشعة ما ظهر من الجذور.

توكل مشياً على قدميه، وقد خففت من وحشته، بضعة من أشجار النخيل، تناثرت فى الجنبات، وهذه أكاسيا إن لم يخني النظر، ود لو يستريح فى ظلها قليلا. خاف من الكسل، وأن تسخو الشمس أكثر، فواصل المسير، وهو يستشعر، رغم البعد، نسمات طرية، تنساب من بين فروع الأكاسيا. وحين عقب الجو برائحة زهور الفواكه، أيقن أنه اقترب من منطقة الحدائق. ما ضر لو ركن قليلا.

حط طائر العريش زاهى الألوان فى حجم العصفور، بين الأشجار.. ولم يلبث أن حط جواره طائر آخر.. رمادي اللون، أكبر قليلا.. خطر ممسكا فى منقاره زهوراً بنفسجية وحمراء.. ذكر طائر العريش، فيما يبدو.. والأنثى لا تطاوعه.. طار.. وحين عاد كان فى منقاره زهور من الياسمين، بأوراقها البيضاء الدقيقة.

مشيت الأنثى فى دلال.. وعندما طار ثانية، لم تتبعه.. سرعان ما عاود، وفي منقاره، عيدان خضراء.. خطر أمامها.. يلوح بما فى منقاره، وطار. رفرفت بجناحيها فى تكاسل، وبعد قليل حلقت فى اتجاهه.

أخذ حمدي يتخيل شكل العريش، وقد ازدان بزهور حمراء وبنفسجية، وبالياسمين والعيدان الخضراء.. والأنثى تتبخر، فى المدخل بألوانها الزاهية، تتأمل تنسيق العريش، فإذا أعجبها، دخلت...



سار علي قدميه، فى الطريق المسفلت، الذي يحد العريش من الشرق. اقترب من مزرعة الزيتون، إلي يساره، يظهره البحر، تنسم عبق الشجر، وقد فعلت فيه شمس الضحى، وحمله هواء التباب الرملية من الجنوب والشرق.

لم تمكنه المرأة من لمس ثمرة، جاعلة بينه وبينهما مسافة. عليه فقط أن يشير. كانت من الخفة، بحيث خيل إليه أنها بمجرد وضع راحتها تحت الثمرة، تسقط وحدها. ذكرته بخفة ندا، لكن شتان، فهذه نحيفة، تائهة داخل جلبابها الأسود. حاول مساومتها. هزت رأسها فى رفض، لا يخلو من رقة، فمد يده بالثمن الذي طلبته.

دفع بابًا خشبيًا جوار المزرعة، فأحدثت مفصلاته صريرًا، وناول الجردل لأحد العمال. أفرغ الثمار فى غربال من السلك، دون أن يصغي لكلامه، أنها منتقاة، وليست بها واحدة معطوبة. غمر الغربال فى حوض به ماء، عدة مرات، ووضعه تحت رشاش من الماء. ناوله لعامل آخر، دلق الزيتون فى طاحونة حجرية، أدارها بكلتا يديه، محاذراً أن تنكسر النواة. حمل الثمار المهروسة إلي أبراش، أغلب الظن، مجدولة من الحلفا. رص الأبراش فوق بعضها بعضاً، لكبسها بمكبس، لا يعرف، إن كان حجرياً، أو معدنياً، فسماره لا يبين.

صّرت مفصلة الباب، فالتفت بسرعة، ظاناً الباشمهندس استغيبه، فجاء. رأي من فرجة الباب «خيال مآته» بين أشجار الزيتون، ذكره

بخيال المآته ذى الدوائر السوداء، الذي كان الإسرائيليون يطلقون عليه الرصاص، فوق الساتر التراي.

فى الثامنة مساء السابع من أكتوبر، علموا أن فجوة أمامهم فى الساتر التراي تسمح بعبور الدبابات. كانوا حتى هذه الساعة لم يتعرضوا للمعاكسة جدية من الإسرائيليين، مما أثار الهواجس فى نفوسهم. ركبوا الدبابات، كانت دبابته التاسعة، فى فصيلته المؤلفة من عشر دبابات. وجدوا الطريق المؤدية إلى المعبر مشغولة بالقوات. لجأوا إلى الطريق الاحتياطية، كما أخبروهم فى التدريب.

وسرعان ما جاءتهم أوامر بالانتشار. بعد نصف ساعة، قامت دبابة بالاستطلاع.

علموا أن الدبابات الإسرائيلية قصفت المعبر، وأن برطومتين من مكوناته، وقفتا على جنبيهما.

زارت المدفعية المصرية فى منطقة المعبر، فخمّنوا أنها تغطي تقدم المهندسين لإصلاحه. ورأوا عربة المهندسين تقترب بظهرها من حافة القناة، لئسقط القطعتين المطلوبتين فى الماء. بعد ما يقرب من عشرين دقيقة، أبلغوا أن الكوبري تم إصلاحه. تقدمت السرية. سمع سعد فى اللاسلكي. الهلمت على أذنيه، وفاتح على الخارج ليكون فى الصورة. سمع أن دبابتين من دباباتهم على الضفة الشرقية، أصيبتا بصاروخين. وكأنه لم يسمع شيئاً، لم يبلغ أفراد الفصيلة، حتى لا تضعف روحهم المعنوية. وباقي الدبابات تتقدم، طلب منهم عقيد شرطة عسكرية، أن ينتظروا قليلاً، وسمح لكتيبة من الدفاع الجوي أن تتقدم أولاً.

- يا أفندم ستأخر عن موعدنا.

علموا أن معبراً آخر أصيب، وجاءت قواته لتعبر من هذا المعبر، وعبور هذه الكتيبة ضروري قبلهم. تحملوا الانتظار وأعصابهم تحترق.

خرج سعد من الدبابة ومدارياً في جنبها أشعل سيجارة، كور راحتيه حول شعلتها. فلأوامر تقضي بمنع أية إشارات أو ضوء، خاصة والليل دخل. باستثناء ضابط الشرطة العسكرية، الذي يمسك عصاً تشع ضوءاً من مقدمتها، لمدة ثوان، ويتغير لونه تبعاً لنوع القوات التي يشير إليها، لتأخذ دورها في العبور. ويقف جواره ضابط مهندس، مستعد لأي طارئ. أشار لهم الضابط بالتقدم، أطفأ سعد سيجارته بسرعة، وقفز إلي دبابته، وقعت الدبابة التي خلفه في حفرة، أحدثها قذيفة زنة ألف رطل. طلب قائد الفصيلة من سعد، وكان ساعاتها، قائد دبابته، أن يعود ليسحبها فرفض.

- نفذ الأمر.

- آسف.. توجد دبابة نجدة في الجيش، تأتي وتسحبها. وذكره بقول قائد الكتيبة: أنت وحدة مستقلة، ولا يشغلك أي شيء عن الحرب.

- نفذ الأمر.. أنا مسئول الفصيلة.

- مهمتي أن أحارب فقط

غادر الملازم أول الدبابة، وركب دبابة أخرى، وذهب لسحب الدبابة الواقعة، بينما تقدم سعد بدبابته، لم يستطع الملازم جر الدبابة، وتعطلت دبابتان. عندما وصل سعد إلي المعبر، كانت باقي الفصيلة قد عبرت. أخروه قليلاً، قبل أن يسمحوا له بالعبور.

قذيفة مباشرة حطمت برطومة. تقدم المهندسون لإصلاحها، وارتد سعد بدبابته إلي الخلف، محاولاً الاحتماء في أحد نتوءات الأرض، رجع المهندسون بسرعة. إسرائيلي خلف مدفع نصف بوصة، يطلق من أحد حصون خط بارليف المطلة على المعبر. وجهت المدفعية المصرية قذائفها إلي مصدر النيران، وعاد المهندسون إلي عملهم.

تقدم سعد بدبابته شرقاً، فلم يعثر لباقي الفصيلة علي أثر، تقدم عدة كيلو مترات دون جدوي. سعد ينادي باللاسلكي علي قيادة السرية، علي قيادة الكتيبة، علي قيادة اللواء.. صمت تام. خشى أن يرسل أية إشارة ضوئية، خوفاً من صواريخ ومدفعية العدو. لا يدري كم أحرق من السجائر، وعندما تعب من النداء، أعطي الهلمت لزميله، وقال له أن يستمر في النداء. عند منتصف الليل، رد قائد السرية، فطلب منه سعد أن يحدد موقعه.

- لا.. اطلق أنت طلقة حمراء.

أطلق ما أراد، وقال :

- حدد موقعك يا أفندم.

- لا.. سأطلق طلقتين بيضاوين، متتابعتين، اعرف مكاني واحضر فوراً.

تحرك سعد بأقصى سرعة، فور رؤية الطلقة الأولى، ليكون قبل الثانية هناك.

وجدناهم جهزوا لنا مكاناً. أعطونا الكواريك لعمل مهجع للدبابة، وتمويهها جيداً، استعداداً للصباح وقد توقع الجميع أن تكون معركة شرسة.

أعطي سعد تماماً لقائد السرية بما حدث من ضابط الفصيلة، فقال:

- طول عمره هكذا.

عُين سعد وسائق دبابة أخرى خدمةً لما بقي من الليل، فأسرعا لأخذ قسط من الراحة، قبل النوبة وأخذ يراجع موقفه من الضابط. وجد نفسه علي حق.

والآن لا يجب أن أفكر في شيء.. لقد عبرنا وانتهى الأمر، وليحدث ما يحدث. رفع العامل رأسه أخيراً. وضع الزيت في برميل به ماء، ليفصل

الشوائب العالقة به. طلب منه وعاء، ناوله جركناً بلاستيكيًا. فتح العامل صنبورًا علويًا في البرميل. نزل الزيت رائقًا، صافياً، كأنه ماء من الذهب. وزحزح بإحدي قدميه جردلاً بجانب البرميل، وفتح صنبوراً سفلياً، فتدفق الماء.

نقط من الماء فوق صفحة وجهه. هب من النوم وهو لا يدري كيف غلبه النعاس. والمعمّر يضحك، بينما يدوي القصف المدفعي والصاروخي. انتفض سعد مسرعاً، وزحف مع المعمّر تحت دبابته، وكذا فعل باقي الزملاء. نظر سعد إلي ساعته علي وميض القصف. الرابعة والنصف، والشظايا تتناثر حولهم. جاء صوت قائد السرية ضاحكاً في الهلمت :

- يقصفون حصون خط بارليف، ظناً منهم أننا نبئت داخلها.

أخبرهم سعد بما سمعه، فانطلقت ضحكاتهم، تدفع الدفء في أجسادهم، وشيئاً من المرح في نفوسهم، في رطوبة البكور.

حاولوا الدخول إلي الدبابات. كلما هموا تناثرت حولهم الشظايا، وطلقات المدافع. نظروا في وجوه بعضهم بعضاً. لا بد من الدخول، فربما صدر الأمر بالتحرك. مد سعد يده لرفع شبكة التمويه. لم يكد يلمسها، وإذا بصاروخ 240 مللي يمر جواره. انبطح أرضاً فوراً. تتبع بعينه الصاروخ، الذي يشبه طائرة صغيرة، خمن أنه في طريقه لحصن الفردان.

سمع في اللاسلكي أن لواءً مدرعاً للإسرائيليين يتقدم في اتجاههم. وقد أرسل مفرزة للأمام لجس النبض. أمرهم قائد السرية بالاستعداد للتعامل معها.

في لمح البصر كانوا داخل الدبابات. لا يدرون كيف حدث هذا رغم الشظايا والقنابل. وأخذت فصيلته مواقع للقصف، وتحسر سعد.. نحن تسع دبابات.. آه لو كنا إحدي عشرة دبابة، لزادت كثافة النيران.

أعد المعمر الدانات جواره، وحشا مدفعه، فغياب الضابط جعله يقوم بمهمتي المعمر والقاذف معاً. ونادي أفراد فصيلته فى اللاسلكي :

- يا جماعة.. نريد الطلقة بدبابة.. رجاء ألا تهيف طلقة واحدة.

دمروا سبع دبابات، وانسحبت خمس. هم تشكيلهم اثنتا عشرة دبابة فى الفصيلة. أعطي قائد سريتهم تماماً لقائد الكتيبة، وسرعان ما جاءهم صوته مهتئاً، فقد كان يراقب الضرب من مكمنه.

وبينما يأخذون أماكن استعداد جديدة، فوجئوا بدبابات فصيلة أخرى تشتعل بالنيران. كانوا على بطن تبة. آه. فى الموقع الخاطئ. كان ينبغي أن، تكون التبة ساتراً لهم بدلاً من اعتلائها. رآها العدو فرصة فالتهمهم. بقيت ثلاث دبابات. صدر لهم الأمر بإصلاح موقفهم.

أدنا سعد علي اللاسلكي، وهو لا يري كيف سيمر النهار. سمع قائد الكتيبة ينادي قائد اللواء :

- سيادة العميد جورج، أعلم أنك معلمي، بعد إذن سيادتكم، العدو ثبت نيراناً فى الأمام وسوف يتقدم من الجنين.
..- شكراً يا ممدوح.

ومن أين يوجعك. تقدمت دبابات اللواء كلها، وصنعت منطقة قتل للعدو المتقدم. انتظروهم، حتي تقدموا بثقة، وقد ظنوا أن النيران التي ثبتوها فى الأمام، ستجعلهم يرجحون أن هذه طريق الهجوم الرئيسية. سمعوا طلقات مكتومة، فأدركوا أن الدبابات فى مواجهة بعضها بعضاً.

أبصر سعد أمامه، فى مساحة لا تتجاوز كيلو متراً مربعاً، أكثر من ثلاثين دبابة للجانيين، تبارز بالمدافع. طلب قائد السرية من فصيلة سعد أن تلزم أماكنها ولا تشترك فى القتال، وأن تراقب الموقف، وأي دبابة إسرائيلية تنجو، وتحاول المرور وسط خطوطهم، يدمرونها فوراً. بعض أفراد يطيحون بأبراج الدبابات ويقفزون هرباً من النار المشتعلة، فأطلقوا

عليهم قذائف ش ف الخاصة بالأفراد. لمح سعد دبابة باتون تقترب من جنبه الأيمن..

رتب المعمر القذائف جواره. وضع قذيفة ش ف المضادة للأفراد، فى متناوله، ليعالجهم بها، لو خرج طقمها من البرج بعد القصف، وتردد.. هل يقذفها بقذيفة خارقة للدروع، تحيله إلى عجينة. خشي إن فعل ذلك، أن يعطي فرصة للأفراد، للقفز منها، قبل أن ينالهم، وقد يحدثون اضطراباً بين فصيلته. توكل، وعمر مدفعه بقذيفة «سابو» التى تنفذ من الدرع وتعربد فى الداخل، فلا تعطىهم أية فرصة.

انتظر حتى أصبحت الدبابة فى جيبه.

شاهدها تشتعل، ومدفعها عيار 110 مللي يلتوي كعود من البوص . نصف ساعة، من تصادم الصلب الرهيب. وعندما جاء المساء، أعلنهم قائد الكتيبة، أنه تم أسر قائد اللواء المهاجم. أغلب دبابات اللواء تم تدميرها، وبقيت عدة دبابات سليمة، أسروا أطقمها، وطلب القائد تدبير عدة أفراد، لتوصيلهم إلى المؤخرة فى الغرب. ودفنوا جثث العدو خشية التعفن والأوبئة. دفع سعد الباب برفق، فلم يحدث صريراً. عبقته رائحة أشجار الزيتون. إحداها أطلت بفروعها، فوق سور أبيض لا يصل إلى نصف قامته. أمسك بغصن.



عبثت أصابع حمدي بلفة السمك. أحس فجأة بالجوع. سعد..
وقد التقي ندا، ينسي نفسه. وهو يقشر السمك، طالعت بعض العناوين.
لفت أحدها نظره. «أحمد بهاء الدين» يعالج في مستشفى البحرية
الأمريكية.

ذات صباح فى الأسر، فوجئوا، بصفتين معلقتين، علي باب المعسكر
من الداخل. الصفحتان منتزعتان من مجلة «المصور» المصرية، وبهما
مقال لـ «أحمد بهاء الدين»: تجمع الأسري، بفضول شديد، فمنذ أسرهم،
لم يطالعوا صحيفة أو مجلة مصرية.

أرجع الكاتب، سبب هزيمة حرب 67، إلي الفارق الحضاري بين
مصر وإسرائيل.

انصرفنا، والسؤال يلح علينا :

- لماذا هذا المقال بالذات..؟!

وعلق أحد زملاء :

- علقوه لأن فيه مصلحة لنا..

خطر فى باله الهواري. ترحم عليه. كان معجباً بالكاتب.. لو كان معنا،
ربما فاز هذه المرة، وقتها، علي ما يذكر حمدي، كان معجباً بالمقال،
فالكاتب يسوق حججه بترتيب مقنع. ومن المنطقي أن يهزم المتحضر
المتخلف. ولكن هل تستطيع أن تجيني يا هواري.. كيف انتصر علينا
الهكسوس، وكانوا بدوا رعاة..؟! وكنا سادة العالم القديم كله. أترأى
تقول :

«امتلكوا وسيلة واحدة، تفوقوا بها علينا. العرب الحربية، وكانوا قد عرفوا الحصان، دبابة ذلك الزمان، قبلنا. وعندما عرفناهما طردناهم من بلادنا».

ويبدو أنهم اهتموا إلى سبيكة معدنية صنعوا منها أسلحة أصلب مما فى يد المصريين.

لكن.. ماذا امتلك الإسرائيليون فى عام 48 وتفوقوا به علي العرب...؟!

هل هو سلاح الهدنة التى يفرضها مجلس الأمن علي العرب، بمؤازرة أمريكا وبريطانيا. كلما أوشك العرب علي دحر الإسرائيليين.. والغريب أن يوشك العرب علي ذلك رغم عدم استعدادهم، ففي مصر، كان النقراشي رئيس الوزراء، لا يريد دخول الحرب، فمعاير الجيش علي قناة السويس، يحرسها البريطانيون، المعسكرون فى قاعدتهم بالقناة، ويستطيعون تهديد إمداداته فى أي وقت. وكان الجيش يتسلح بدبابات قديمة وعربات تم إصلاحها بقطع غيار من وكالة البلح بروض الفرج، وأثناء المعارك كانت تتوقف المحركات، لضعف البطاريات. أما عن خبرة الجيش بالحرب الحديثة، فهو لم يدخل أية معركة منذ الحرب فى إفريقيا أيام الخديو إسماعيل، وتشرف علي تدريبه وتسليحه بعثة إنجليزية من قوات الاحتلال...!!

لكن اجتماعاً مفاجئاً، عقده الملك فاروق مع الرؤساء العرب فى مزرعته بأشخاص، لم يحضره أي مسئول مصري، ولا حتي رئيس الوزراء، صدر بعده الأمر بدخول الحرب..!!

وصلت القوات المصرية إلي أشدود فى الشمال وإلي بئر سبع، وبيت لحم فى الشرق، وهكذا شطرت شمال إسرائيل عن جنوبها، واستولت

القوات الأردنية علي ضفة نهر الأردن الغربية، وعلي اللد والرملة، وأصبح
العراقيون وباقي القوات العربية علي مشارف تل أفيف (تل أبيب)..
هدنة...

التزم العرب بوقف القتال، وانتهز الإسرائيليون الفرصة.. حصلوا علي
أسلحة جديدة، وانتزعوا أحد المواقع، وسارعوا بإبلاغ مندوب الهدنة أن
الموقع تابع لهم..
هدنة..

أغار الإسرائيليون علي قوافل الإمداد والتموين، وذبحوا رجالها حيث
تسليحهم بسيط..
هدنة..

حاصر الإسرائيليون اللد والرملة، فانسحب منها الجيش الأردني
الذي يقوده الإنجليزي جلوب دون قتال..!!
الآن أستطيع أن أفحملك يا هواري، وأقول لك، لماذا احتفوا بهذا
المقال.. أيستغرق منك الأمر ما يقرب من عشرين عامًا.. حتى تفهم سبب
تعليق مقال.. وضحك ساخرًا من نفسه. الفجوة الحضارية ستظل بيننا
قائمة، نحن دولة تسمي بالنامية.. نموها بطيء، وهم دولة تسمي عصرية..
نموها سريع.. أي ستظل الهزيمة مكتوبة علينا..

لكن لماذا هم أكثر تقدمًا منا.. هل عدد المتعلمين عندهم أكثر..؟..
إن عدد طلبة الجامعات عندنا يوازي عدد سكان إسرائيل تقريبًا.. وعندنا
علماء مشهورون.. أحد علماء برنامج هبوط الأمريكان علي القمر
مصري.. أحسن طبيب قلب في إنجلترا مصري.. أين الخلل إذن..؟!..
هل هو في توظيف قدراتنا..

نفذ يمانه إلي أعلي وقد انغرس فيها شوكة سلسلة ظهر سمكة. كاد
يقضي علي نصيب سعد. لفه بيسراه، ونهض ليبحث عن ماء، يشطف يده،

خاصة، وقد انبثقت قطرة من الدم حينما نزع الشوكة. داعيًا الله في سره،
ألا يحدث تلوث، فلا توجد مستشفى، أو صيدلية، قرية من مكانه.
أخذ حمدي وزميل له، أحد العاملين في المطبخ إلى العيادة. احترق
ذراعه من هبة نار من الموقد. قعدوا علي دكة، أمامهم ترابيزة خشبية، في
انتظار الممرض الإسرائيلي. انحنى الزميل. تفحص أسفل الترابيزة وهما
ينهيانه، ليكف عن فضوله. اعتدل وقال :

- قطعة من شنبر مستعرضة، بين القائم والقرصة، عندنا..
قاطعاه :

- اسكت يا نجار الغبراء

ضحكوا، وقد ركنوا علي الترابيزة بأكواعهم. فانشئت رجلاها، في
مواجهتهم، وسقطوا علي الأرض. غضب الممرض. طلب من الحارس
أن يعود بهم إلي العنبر. لفا الذراع المحترق بخرقه منتزعة من كفه.
بعد إغلاق العنابر في المساء، أحس عامل المطبخ بألم شديد. تحسس
حمدي ذراعه، فاقشعر جسده، ويده تمر فوق فقائيع مائية. نادي الزملاء.
تخطوا في الظلام في الطريق إلي الباب وخطوا بأكفهم. صاح الحارس
بلهجة فلسطينية:

- ماذا تريد يا أcha «الشمروطة».

- مريض

- في الصباح

عاودا الخبط علي الباب. سرعان ما حضر الضابط النوبتجي ومعه
حارسان. سلط أحدهما كشاف ضوء قويا داخل العنبر. صاح الحارس
ذو اللهجة الفلسطينية:

- وينو (أين) فرج أخته المريض.

رفع المريض ذراعه المحترق. فجأة انقطع التيار الكهربائي.

دفعوا المريض داخل العنبر وأغلقوا الباب. وانطلقت طلقات الرصاص بشكل محموم، واخترقت بعضها الجدران الخشبية، فانبطحوا جميعاً علي الأرض.

حين عاد التيار، بعدما يقرب من ساعة، عاودوا الخط علي الباب، أجاب الحارس، بقذف قطع من الحجارة فوق سطح العنبر، سرعان ما تندرج، فوق الصباح المخروطي المضلع إلي الأرض.

في الصباح سمحوا لزميل واحد باصطحابه إلي العيادة. وعندما عاد وحده، التفوا حوله يسألونه عن حال زميلهم. أراهم قطعة من السلك، تخلفت عن إصلاح عطل الأمس، تحسس مقدمتها بباطن العقلة الأولي من سبابة يمينه. لامس ثلاثة فروع عارية، أطلت من غلافها البلاستيكي وقال :

- عندنا لا نضع حزمة السلك أقل من خمسة فروع، انفجر حمدي في غيظ:

- لا نسألك عن هذا.

لمح ندا وسعد قادمين، أوماً لسعد ناحية الخص. لحظت ندا يديه، فأسرعت لإحضار ماء إليه. جفف يديه في منديله، ومشى بعيداً عن الخص.. طالعه أشجار اليوسفي، علي تلال غير متساوية في الارتفاع، وخلفها بالقرب من الشاطئ، تمايل سعف النخيل، لاحت له النخيل في الواطئ، فباتت براعم البلح وقد بدأت تميل من الاخضرار إلي الاحمرار، والجداول الحاملة بدأت تميل إلي الاصفرار.

وتساءل : أين الجمال.. ؟!

كان رجال الهجانة، يربطون جمالهم إلي جذوع النخيل. ينتظر حمدي وزملاؤه حتي ينصرفوا، ثم يركنون علي جذوع النخيل وقد امتدت سيقانهم أمامهم، يتأملون البحر. وحين يحسون بتنميل في أجسادهم، ينهضون في

تكاسل، ويدفعون باب أقرب «فيلا» إليهم، لم تكن مسكوكة. فليس فيها ما يخشي عليه.. ثم من الذي سيحضر هنا..؟! كان من يعبر قناة السويس يحتاج إلي تصريح خاص، فسيناء كلها منطقة عسكرية. ورحلات التلاميذ إلي غزة تفتش في جمرك القنطرة شرق.

يرقدون علي الأسرة، العارية من الملاءات، يريحون جنوبهم من نومة الخيام العسكرية علي الأرض. وهم يغادرون.. يضحكون.. ويتندرون.. أه.. لو رأيهم عقيد، أو عميد ممن اعتادوا الاصطياف هنا..

لاك ذهنه ما يتردد في الصحافة هذه الأيام. لا يوجد عداء أبدي. لماذا لا تقولونها صراحة، أنه لا داعي للاستمرار في عداء إسرائيل. لو لم يكن عداء المصريين للهكسوس، أبدياً، هل كانوا طردوهم من الوجه البحري، بعد أن مكثوا فيه، ما يقرب من ثلاثمئة عام..؟!

تري.. هل كان كتاب ذلك الزمن، ينادون ألا نكون همجاً.. ونشن الهجمات علي الهكسوس، وعلينا، كمتحضرين.. أن نكتفي فقط بالكلام والأخذ والرد..

أحس فجأة أنه مزنوق. أسرع رغماً عنه ينادي سعداً، ليأخذه إلي بيته. ينهض في الصباح، ويكون مزنوقاً، إلا أنه يتحایل علي نفسه. في هذا الوقت تكون دورة المياه ممتلئة. في جانب من المعسكر، حفروا حفرة مستطيلة، وضعوا علي جانبيها ألواحاً من الخشب. بكل جانب عشر عيون. وحين حضرهم الشتاء، سوروها بصاج مضلع فحجبت من بداخلها عن العيون في الخارج. ولكن، ظل الهواء يسف من تحت الصاج فترتعش أجسادهم، ويعوقهم، مع المطر الذي يهطل فوق رؤوسهم، فينهضون في ضيق.

كان حمدي ينتظر حتي الضحي، ومع ذلك يجد من فعل مثله.. فيدخل وأمره لله.. يجلس في جانب.. محاولاً أن يغفل عما حوله..

ينتبه فجأة علي من يجلس علي العين قبلته. يضح يديه أمام عورته، ومحاذراً النظر في عيني من يواجهه، وسارحاً بقدر الإمكان، حتي لا يري عورته، أو يراه وهو يفعل. ينظف بورقة من شيكارة قديمة، أو ورقة منتزعة من إحدى العلب الكرتونية في المطبخ، بعد أن يحيلها إلي رقائق. ولم يكن له حيلة مع قدميه العاريتين. كثيرون أصيبوا بإسهال.. ودو سنطاريا.. وأبلغوا الصليب الأحمر بذلك. بعدها حضر ممرض ووزع عليهم حبوباً زرقاء، علموا أنها لمقاومة الدوسنطاريا. ولم يستجيبوا لطلبهم توصيل المياه إلي المراحيض. طلبوا مقابلة مندوب الصليب الأحمر. فوجئ حمدي بالعربة تقف خلفه، انتفض وقال :
- في عرض النبي زمر.

ركب بسرعة جوار سعد. لمح طائر الرفراف، بلونه الذي لا يبين من السماء، لولا بقع سوداء علي رأسه، واقفاً في الجو كالهليكوبتر، محركاً جناحيه بسرعة. عادة يفعل ذلك عند البحر، حتي يلمح سمكة فينقض عليها. تري.. لماذا يفعل ذلك بعيداً عن البحر..؟!



دقات عجلي على الباب فى البكور. تمطي حمدي، مصدرًا صوتًا،
يطارد الوخم. وإزاء إلحاح الطارق، فرك عينيه، ومشى إلى الباب.. اللهم
اجعله خيرا.

- من طرف محمد عايش.

- تفضل..

اعتذر الطارق عن الدخول، وأبلغه أن محمد عايش، أصيب بقرى
وإسهال، ويستسمحونه فى العربة، لتقله إلى المستشفى.
- لحظة واحدة.

أسرع إلى تشطيف وجهه.. كيف أتصل بسعد الآن. ليس عنده تليفون
فى الاستراحة.

إذا ذهبنا مشياً.. قد يستغيثونا.. دس قدميه فى بنطلونه.. مبني المحافظة
قريب.. هناك ألتقط أى سائق معرفة..

سارا، وهو يقنع نفسه، أنه بالتأكد سوف يتصرف.

قرى وإسهال، وضع يده على قورته. جفلت يده من شدة الحرارة. سأل
الأب، بصوت ضعيف آله:

- مرتفعة.

لم يستطع النطق.

بصوت متهدج:

- خذنى بسرعة إلى مكتب الصحة

زاد ارتجاف جسده، وتحاشى حمدي النظر إلى عينيه. فهو يعلم، أن

الناس عند أي اشتباه، يسرعون بالمشتبه به إلي مكتب الصحة، أو إلي أقرب مستشفى. ولم يسبق أن سمعوا عن عودة أحد. وبالأمس تناثر من أفواه الجيران أن رجال الشرطة حفروا حفرة كبيرة عند المقابر، رشوها بالجير الحي. وضعوا فيها الجثث، وغطوها بالجير، قبل أن يردموها بالتراب.

واليوم قبل العصر بقليل، فور خروجه من مدرسته الابتدائية، وبينما يسير بحذاء السور، صاح فيه الناس أن ابتعد. ارتبك وهو يغادر الطوار. لاحظ شخصاً ممدداً، مغطي بورق الجرائد.

نهنت أمه، ولم تفلح محاولتها في التماسك، بشنقت وجهها ورأسها بطريقة سوداء شفيقة، لكن حمدي زام معترضاً علي ملازمتها. اتكأ أبوه علي ذراعه.. مرا بالسوق، كانت الشرطة تقلب كثيرا من عربات الخضراوات والفاكهة وتعدمها.

كاد حمدي يتعثر، وقد ازداد اتكاء والده عليه. أترأها.. بسيطة ويعود به. ويعود الرجل الذي كان.. مدرس إلزامي.. حازم النظرات.. والذي لم يغفر له اللحن أثناء درس المطالعة.. فتكونت عنده سليقة تميز الصواب من الخطأ، حتي دون أن يعي السبب.

وكان يلتقط ما يحضره من جرائد ومجلات، ويراجع في سره ما تعلمه ليستوثق بنفسه.. ولم ينتبه إلي أنه قد أصبح مدمناً لها.

وهل تعود الأيام، التي يغسلونها فيها، الخضراوات والفاكهة بالماء البارد، دون سلقها، ودون نقعها في الماء، وإضافة البرمنجنات التي تصبغه باللون الأحمر. ومتي يشرب من الحنفية، دون أن يغلي الماء.

في مكتب الصحة، طب قلبه، والطبيب يفحص أباه. وحين رفع رأسه، أسرعت دقات قلبه، وأحس بجفاف لسانه. شيئاً فشيئاً، نشعت عينا الطبيب بابتسامة دافئة، وقال:

- اطمئن يا حاج.. نزلة برد.
رفع الأب رأسه، وتملي حمدي في عيني الطبيب، ليتأكد أن كلماته لا
تعني غير معانيها الظاهرة. ووسع هذا من ابتسامته وقال :
- لا تقلق.
تبادل حمدي مع أبيه، نظرات مفعمة بالفرح، غير مصدقين، النجاة من
سطوة المرض اللعين. أردف الطبيب :
- الكوليرا، ضعيفة جداً.. عصير الليمون أو الخل، يقتلها.. وقليل من
الרטوبة يقضي عليها.
ولما كانوا في أواخر الصيف، فقد تطلع الجميع، لقدوم الخريف.. أو
لتغير درجة الحرارة، وهم علي أبوابه.
عس بعينه أمام باب المحافظة، وهو يرجو أن تكون نزلة برد خفيفة،
وتعيش ياعم عايش وتأخذ غيرها.
فجأة.. اقتربت عربية مسرعة منه، قبل أن يقفز جانباً، توقف السائق.
- لا مؤاخذه يا باشمهندس
- ألم تر سعداً
- خير أية خدمة..
- عم عايش تعبان.
لم يدعه يكمل، واستمهل لحظة. قفز من العربية، وأسر لموظف
الاستعلامات في مدخل المبني كلمتين وعاد مسرعاً.
- تحت أمرك.
عند بيت عايش، وجد سعداً، راكناً بعربته في جانب. ظنه علم بالأمر
وسبقه. لكن هذا بادره بالقول، أن رسولاً من المحافظة بيت عليه ليحضر
مبكراً، للمشاركة في نقل وفد من الطلبة، لزيارة معالم سيناء.

وحانت منه التفاتة، إلي الطلبة المتجمعين، أمام الفندق المقابل علي الشاطئ.. المشرف يحاول صفهم في طابور. وهم لا يهاودون بسهولة. أخذه والده في الصباح الباكر إلي المدرسة الابتدائية عند الكوبري السفلي، ليدخلا مبكراً قبل الزحام. لدهشتهم وجد طوابير ممتدة من الرجال والنساء، وبعضهم أمسك بأذرع الأطفال والصبية، الذين كانوا يتملصون في محاولة للإفلات، والهرب في الحوش، الذي كثيراً ما لعب فيه الاستغماء، والمساكة، وشاهد مباريات كرة القدم بين مدرسته والمدارس الأخرى قبل عامين. وامتدت الطوابير عبر البوابة الحديدية، محاذية سور المدرسة، وسور المدرسة المجاورة، حتي نهاية الشارع. وحين اقترب طابوره، لفتت نظره رخامة بيضاء في السور، عليها نقش رمادي تأسست عام 1835 م. عقق أبوه ذراعه بشدة، وفي الداخل شمر كفه عن أحد ذراعيه. لكن الممرضة قالت يكفي الجزء الأول من الساعد. غرست الإبرة فوق الرسغ بقليل.

جز حمدي علي أسنانه وكلبش بيده الأخرى في جذع أبيه. ظل مكان الحقن وارماً لمدة أسبوع. ومكبرات الصوت تطوف شوارع المنصورة، تحض الناس علي التطعيم ضد الكوليرا. قال الطبيب :

- نزلة معوية بسيطة.

وكتب علاجاً، وأوصاه بالدفع، وتناول المشروبات الساخنة. تركه. أمام باب بيته، ولم يلتفت لإلحاحه عليه بالدخول. أوقف عربة أجرة بالنفر، ونزل بالقرب من غور قريب من جراحة. مشي بحذاءه، وهو يتأمل شجيرات الخوخ. إياك أن تفعلها يا عايش، قبل أن تتذوق ما زرعناه من خوخ. مثل عايش لا يفعلها بسهولة، وأنه متين البنيان مثل زملائه من أبناء الجيل السابق. أكلوا السمن البلدي، بالملعقة، وزلطوا البيض

المسلوق دون حساب. بخلاف الجيل الحالي الذي أصغي، لتحذيرات تناول السمن والسمن، وبيضة واحدة فى الأسبوع كما أفتى الإنجليز، حتي لا تتجلط الدماء فى العروق. هل كانوا أحسن صحة من الجيل الحالي.. طبعاً توجد نماذج عائشة، الواحد منهم زي الفلق.. لكن.. كم مات جوارهم فى سن صغيرة، ولم يسمع عنهم أحد شيئاً، أو عن سبب موتهم.

وهل حقاً يأكل الإنجليز بيضة واحدة فى الأسبوع..؟! أخبرهم عمه، الذي كان يعمل ميكانيكا بمعسكرات الإنجليز فى التل الكبير، عما يتقوله الناس فى القرين التى يقطنها بالقرب من التل الكبير، أن الكوليرا جاءت من معسكرات الإنجليز. بعض المقاولين، اشتروا بقايا أطعمة الإنجليز، وباعوها للفلاحين، وكانت ملوثة. منعت الحكومة الناس هناك من تناول أي شئ من الإنجليز، ومنعت التجار من نقل بلح نخيل هذه المنطقة، إلي مناطق أخرى، وأعدمت ما جُمع منه. وأكد العم أنه ترك العمل عندهم، وكثيرون فعلوا مثله، وإذا لحق به المرض، فلافضل أن يموت فى مدينته المنصورة، بدلاً أن يموت فى معسكرات الإنجليز.

كانت أغلب البيوت، وقتها، تغلق أبوابها من المغرب، والناس تخشي المسير فى الشوارع، محاذرة من الموت المتربص فى جنباتها. ولم يوجد شارع أو حارة خلت من الموتى، ومع ذلك لم تقم أي سرادات لتلقي العزاء، ولم تجتمع النساء للنوح والبكاء والتعديد. ولطفت الطبيعة بالناس، فأتي الخريف مبكراً.. ولم تكد الناس، تسترد أنفاسها وتتشهد.. كان حمدي يجلس علي عتبة بيته العالية، مدلياً قدميه، وموليّاً ظهره للفسحة، وقد أعطته أمه طبقاً به ملح خشن، وسكيناً. خبط الطبق بالسكين، فخشخشن الملح وتناثر بعضه، وهو يقول:

- يا بركة رمضان لا تطلعي من الدار.
- يا بندق أول وجديد.. يومنا الوقفة وبكره العيد.
وإذا ما عاكسه أحد الصبية، عاجله :
- بكره العيد ونعيد ونذبحك يا شيخ سيد
وإذا بالأب يحضر وقد اربدت سحته. جلس قبالة الأم في الفسحة،
التي رددت بصوت خفيض :
- خير.. اللهم اجعله خيرًا .
قال الأب :
- اليهود فى غزة، خطفوا امرأة حاملاً، وبقروا بطنها.
خبطت الأم صدرها، وشهقت :
- يا مصيبي .. !
توقف حمدي عن الدق، سحب قدميه والتفت إلي الداخل. سمع
أخاه الكبير يسأل:
- وماذا فعل الإنجليز الموجودون فى فلسطين..
رد الأب :
- إنجليز... هه. قري كاملة.. شبع اليهود فيها ذبحاً وتقتيلاً..
عاد الأخ يسأل :
- والإنجليز..؟!
قال الأب :
- أذن من طين وأخري من عجين.. !!
قام الأب ليفتح الراديو، الموضوع علي رف خشبي معلق بالحائط إلي
يساره. أدار المؤشر إلي إحدى المحطات الأجنبية وهو يقول :
- لا أفهم، لماذا يثير اليهود ضجة حول فلسطين، وهل هم فى حاجة
لينشدوا «فى العام القادم سنذهب إلي القدس»

وسأل الاخ :

- هل منعهم أحد

- يا بني قطار العريش يقوم يوميًا من محطة مصر إلى القدس.
عاد بالمؤشر إلى محطة مصر، ليتأكد مما يتناقله الناس، أن الجيش
المصري فى طريقه إلى فلسطين. لم يكن موعد نشرة الأنباء قد جاء،
وانساب صوت عبدالوهاب:

«أخي.. جرد حسامك من غمده.. فليس له بعد أن يغمد».

صعد الجنود الساتر التراي، شاكي السلاح. نزلوا بسرعة من الاتجاه
الآخر. انتشروا، ليلتفوا حول الحصن المواجه. لكن.. مدفع مكنة، من
فتحة ضيقة، أطلق النار بغزارة، جعلت من المستحيل الاقتراب منه.
تساقط الجنود كالحمام، يصيبه رشق البنادق، وزنت الشمس فوقهم.
فجأة، اختفي الرصاص. بسرعة البرق، أحاطوا بالحصن واقتحموه.
لم يدركوا ما حدث إلا فيما بعد. أحدهم زحف، إلى أسفل فتحة المدفع،
وسدها بجسده.

حامت الطائرات، وألقت بحمولتها فوق متسلي الساتر التراي. كلما
أحدث فجوة بينهم، رتقتها الجموع المتسلقة.

ومن بعيد، انطلقت، بشكل مخيف، قذائف المدفعية، لضرب
تجمعات الجند فى الضفة الغربية، وتساقطت بعضها فوق المراكب
المطاطية العابرة فى مياه القناة، وتصاعدت تلال من الماء. أشار بعض
الجند إلى حمدي، ليداري نفسه، خلف أي ساتر. أسرع للاحتماء
بباطن ترعة جافة، بالقرب من مزرعته. أصمت أذنيه القذائف، فأحاط
رأسه بذراعيه ليخفف من الدوي. خُيل إليه أن الفتحات فى وجهه
انفجرت وانبثق منها الدم. هداً القصف قليلاً. تحسس وجهه، وهو
يتساءل.. هل يئس الإسرائيليون..؟!.. جاءه الجواب بقصفات

مركزة.. أصابت بعضها أماكن تجمعات، غادرها الجند منذ قليل..
وأصابت بعضها جنداً علي وشك التحرك. أعقب ذلك هدوء مشوب
بالتوتر. فتح عينيه في رقده علي أحد جانبيه وقد ضم ركبتيه إلي بطنه.
رأي عشا للدبابير في نتوء من جانب التربة أمامه. أقراص شمعية ذات
عيون مسدسة، متجهة فتحاتها إلي أسفل. تدلت منها بعض اليرقات
المعلقة من مؤخراتها. ولمح طواير من النمل. رفرت الدبابير،
بسرعة محمومة، وانخفضت للقضاء علي النمل. كلما حدثت فجوة
في أحد الطواير، سدها النمل الزاحف في الحال.. دون تردد.. ودون
أن يحيد عن طريقه.. ينقطع الخيط حيناً.. ثم لا يلبث أن يلتئم.. سائراً،
في تودة.. إلي اليرقات المعلقة.. الدبابير تكثف هجومها.. والنمل..
عائد ببعض اليرقات تتراقص بين كلاباته الدقيقة.. كفت الدبابير عن
ملاحقتها. ووجهت جهدها إلي طواير جديدة، في الطريق إلي عش
الدبابير.



فتحت الأم الباب وقالت :

- بنت حلال

- خذي أولاً.

تناولت منها شنطة الخضراوات، وقالت :

- حمدي أرسل زجاجتين من زيت الزيتون، مع مرسل سيأتي ثانية عصرًا، حضري له بعض الملابس، واكتبي له كلمتين. سمعتا فرقة.

أسرعت حمديّة إلى الشرفة، فوجدت من سبقنها، من ستات البيوت وقد تناثرت تعليقاتهن.

- الشرطة تحاصر التجار في شارع بورسعيد.

- ثانية

- هذه المرة تصدى التجار وأطلقوا الرصاص.

- في عز النهار.

أفرغت الأم الشنطة من الخضراوات في المطبخ، ورجتها ألا تنزل ثانية، فلا بد أن عربات الأمن المركزي تقف في ميدان الشيخ حسنين، وتقطع المرور حتى تنتهي الحملة.

- لا تخافي.

دق جرس التليفون، طويلاً. أسرعت حمديّة، وهي تقول :

- «ترنك» يا ماما.

بالفعل كان شقيقها فى ألمانيا على التلفون. بعد السلام والسؤال، قال:

- ها.. فكرتِ
- فى ماذا
- لن نعيده، احضري، وسأجزيك أضعاف أضعاف مرتبك.
- يفتح الله.
- بالله عليك، ماذا تفعلين عندك..؟
- وماذا تفعل أنت..؟!
- وأمك..؟
- حمدي عندك
- حمدي الذي يقوم بنفسه بالعافية، سيقوم بأمه.
- طيب فكري.
- وضعت السماعة غاضبة، وأمها تؤنبها، لأنها لم تناولها لها.
- الخط انقطع.
- وبرطمت وهي فى طريقها إلى حجرتها.. يظهر كل الرجال من طينة واحدة. اقترح صفوت تأجير حجرتين مفروشتين، فنبهته أنهما لن تسعهما مع الأم، فقال: حمدي وحيد وهو أولى بها. ردت قاطبة: هذا آخر ما كنت أنتظره منك. وخشية من تصاعد غضبها، استدرك: يا ستي علي الأقل فى الشهور الأولى.
- أخذت حمدية الشنطة، والأم تلح فى عدم نزولها.
- اطمئني، زمان الزوبعة انتهت.
- وسرعان ما جاءت التعليقات من الشبا بيك والشرفات.
- لماذا سمحوا باستيراد القماش.

- لتصنيعه، لا لبيعه.

- التجار يدفعون، ويهربونه من بورسعيد.

وهنا وحياتك سيدفعون.. فهم يكسبون ذهبًا من بيعه خامًا.

- لماذا يصدعون رؤوسنا؟!

ويعود التجار إلي محالهم بالزغاريد، ولا يمضي وقت طويل، حتي يظهر القماش الخام من جديد، يباع في حراسة البلطجية. وتشكو الحكومة علي صفحات الجرائد، من تفشي العنف، وتحث علي علاج ظاهرة البلطجة.

كانت الساعة قد تعدت الثانية بعد الظهر بقليل، ذهبت حمدي لتدلي بصوتها، بعد خروجها من العمل. علمت أن الانتخابات ماشية آخر تمام. قالت في نفسها: الحكومة صدقت هذه المرة. فجأة جاء مرشح حزب الحكومة، نزل من عربته، يحف به بعض البلطجية، وقد شهروا الجنازير والخناجر والعصي، أحاطوا باللجنة. وجاءت في أعقابهم عربة، نزل منها أحد ضباط أمن الدولة. حاول أحد مندوبي الأحزاب الاعتراض. صاح فيه الضابط :

- يا روح أملك منك له.. لا أريد أحدًا هنا.

وانهال عليهم البلطجية ضربًا، وحملت عربة الشرطة بعضهم إلى القسم.

اعتزمت، أن تمر على كواء يعمل سمساراً بشارع سندوب، وعدها بمحل في نفس الشارع، لعلها توفق وتكتب ذلك لحمدي. وبالمرة، تلحق بالسوق الذي ينصب في ميدان الشيخ حسنين، في هذا اليوم، الثلاثاء، قبل أن تنصرف الفلاحات، حيث بضاعتهن طازجة، وأرخص.

أخبرها السمسار عن المبلغ المطلوب. حاولت زحزحته. أشار إلى المحال على جانبي الشارع، وقال :
- بأضعاف ما عرضته عليك.

سارت وهى تطالع المحال، كانت بها مصانع صغيرة، تصنع قماشاً شعبياً، دمر وبطسطه، ودبلان، وشرابات، وفانلات وطواقي قطنية، بيضاء، وملونة. وتحولت إلي تجارة البقالة، وأخري إلى مخازن لتجار شارع بورسعيد، وبعضها هدمت بيوتها فوقها وكانت قديمة، وقامت مكانها عمارات سكنية حديثة، أسفلها محال حلوي، ومقهى، ومحال تجارية، وصيدليات. دخلت إلي الحارات المتفرعة، لعلها تجد شيئاً فى حارة جانبية، أو فى زاوية مهمة. أغلب المحال هنا، احتلها ميكانيكية السيارات، والعربات أمامهم علي قارعة الطريق، تناثرت أحشاؤها، والصبية ينظفونها فى أوعية من الصباح ملأى بالنفط، وباقي المحال تبيع دهان السيارات، أو قطع غيارها.

عرجت يساراً من شارع سندوب، عند التقاطع، إلي شارع بورسعيد، وقد غلبها الفضول. أدهشها الهدوء وقد عاد إلي الشارع، وكأن شيئاً لم يكن.

اقتربت من ميدان الشيخ حسنين، حيث البائعات، افترشن جوانب الميدان، ومطلع شارعى السلخانة وسندوب، ببضاعتهم من الجبن القريش والقديم والمورثة والبيض والسمن البلدي والطيور من دجاج بلدي وحمام، وخضراوات الطبخ من طماطم وباذنجان وقرع وبطاطس وكذا جرجير وفجل وشبت ومقدونس..

ذهبت لامرأة، تعودت أن تأخذ منها البيض، تجلس علي رصيف صيدلية بالميدان، تركها تنقى حبات البيض، فهى وأمها تفضلان مذاق البيض الفلاحى، عن مذاق بيض البقالين المصفوف فى الكراتين، رغم كبر حجمه.

- بكم

- لا يغلي عليك.

لا تراوغي يا امرأة، أعرف أنك تستلقطين بعضه بسعر التراب.

ذات مرة برفقة حمدي لمحت بنت الهواري الكبيرة، وقد تذررت بمعطف حائل اللون. أعطت علبه سمن فارغة، ملأى بالبيض، لامرأة جالسة غير بعيدة عنها. ودارت نفسها فى مدخل الصيدلية، حتى تعد المرأة البيض، وتجهز الثمن.

لكزت حمدي فى ذراعه فانتبه. أمسك عن الخطو، وتراجعا، بينما كانت المرأة تناولها النقود. وانصرفت بسرعة، دون أن تنظر فى وجه أحد. شدها حمدي من ذراعها مبتعداً، وهو يسأل :

- رأئنا..؟!!

تصعبت بشفتيها، وتمتمت :

- عيني علينا.

بعد مساومة قصيرة، اشترت بالسعر الذي أرادته.. وتسوقت لباقي الأسبوع.

صعدت السلم إلى شقتها، وهى تنفث الهواء فى تنهيدة طويلة.. الجبان يريدني خادمة لأولاده ولزوجته الخواجاية.

جاءها صوت التلفزيون، وأمها مسمرة أمامه، يعلن عن موافقة شيخ الأزهر الإمام طنطاوي علي لقاء حاخام إسرائيل الأكبر. وضعت ما تحمله فى المطبخ، وهى تصيح :

- ماذا تشاهدين..؟!!

غيرت الأم القناة، فتصاعد صوت فائزة فى أغنية مرحة من أحد أفلامها:

- بيت العز يا بيتنا.. علي بابك عنبتنا.

دخلت حمدي غرفتها، وتخففت من ملابس الخروج. اضطجعت علي كنبه مواجهة للشرفة، التماساً لنسمة طرية، وفائزة قد وصلت إلي آخر أغنياتها :

- ابعديا شيطان.. ابعديا شيطان.. ابعديا شيطان.
ابتسمت، متخيلة فائزة في أغنياتها الأولى، بوجهها النحيف،
وتسريحة شعر زمان المضحكة. أين هذا من وجهها الذي استدار، والشعر
المستعار، الذي كان يزيد حلاوة، لكنها يا قلبي، في أيامها الأخيرة، بأن
أثر المرض علي تقاطيع وجهها، رغم مساحيق الطلاء الثقيلة. كان حمدي
يشاهد معها، ولحظت التأثير في عينيه.
تناولت ورقة، لتكتب كلمتين لحمدي، وأخذت مجلة مهمة، مما
يحضرها حمدي، نفخت عنها التراب، لتسند عليها، طالعت عنوانها
«روز اليوسف»، وهي تقول لنفسها: حمدي مثل القرع يمد بره. وهي
تفكر، ماذا تكتب له، أخذت تفر الصفحات. تخطت المقالات والأخبار
السياسية، إلي الصفحات الخفيفة. استوقفتها طرفة.
ذهب قبطي معمر، إلي البابا شنودة وقال له :
- قداستك منعت الحج إلي القدس، طالما ظلت تحت الاحتلال
الإسرائيلي، وأنا علي عتبة القبر، فهلا استثنيتني لأزور السيد المسيح.
قال البابا :
- لا ترعل.. إذا مت، سوف تلقي أيضا، السيد المسيح.



تفقد حمدي الأغوار قرب الحدود. تأمل الزرع، ونهي نفسه، عن تكذيب ما يري. السيقان ليست منتصبه. وإن صدق ظني، على وشك الذبول.

هل، لم تمتد الجذور، بما فيه الكفاية، إلي عمق التربة.. ؟
أم أننا، لم نحفر، في عمق الأغوار الأخرى.. ؟
استعاد في مخيلته، أرضية الأغوار البعيدة، واسترجع مسافات العمق، وبعد المقارنة.. انتهى إلي أن مستوي الحفر واحد تقريبًا. هل الماء الجوفي ليس علي مستوي واحد. كيف والمسافة بين الأغوار ليست كبيرة، ومستوي ارتفاع أو انخفاض التربة، ليس كبيرًا أيضًا.
تسلل بناظريه، عبر الأسلاك الشائكة. ثمة أشجار مورقة، والأرض معشوشبة بينها.

فجأة أقلقه تساؤل. أتراهم.. يسحبون المياه الجوفية..؟! يكفي أن يحفروا أعمق منا. طافت نظراته بربي خضراء، عالية في مستوي أعالي الأشجار. كيف وهم في العالي.. لا.. الشجر وبعض الخضرة في الواطئ.

هل يتقدم بشكوي إلى المسؤولين.. ؟.. لكنك لست علي يقين.
إحساس داخلي، وما رآه من أشجار نامية هناك، وشجيرات علي وشك الذبول هنا. هذا لا يثبت شيئًا. وهل سيسمع لك أحد. ولن ينوب المخلص سوي تقطيع هدومه.

هز رأسه ساخرًا. وهل لو أرسلت شكوي.. سيحققون فيها..؟!

أولي ظهره للحدود، وواصل تفقده للأغوار، ودندن، بما شدا به عبد الوهاب.. «وليسوا بغير صليل السيوف.. يجيئون صوتاً لنا أو صديّ. نادراً ما كذبنى إحساسى الداخلى. ولكن.. كيف أثبتته. التفت مرة أخرى نحو الأسلاك الشائكة. بانت علي البعد ربي رفح فلسطين. هدوء مخيم علي «الفيلات» فى الأعالي، وعلى الأشجار والخضرة. لا يغرنك هذا الهدوء.

ما أن تعبر، لترى، وتتأكد من وجود آبار عميقة، حتي ينهال الرصاص من كل مكان، وربما انفجرت ألغام أرضية.

«وليسوا بغير صليل السيوف.. يجيئون صوتاً لنا أو صديّ».

تري.. هل كتب علي محمود طه هذا البيت لنا.. أم لهم..

وحين وجد بعض الأغوار، صحت شجيراتهما، أخذ يقيس بنظره، على البعد، بين مستوي الأرض التى يقف عليها، والأرض قرب الحدود. خامره شك أن الأرض هنا منخفضة، ولذلك، لم يستطيعوا سحب مائها. آه.. من يجعلني أعبر الحدود، لأتأكد بنفسى..

فى كل مرة، يعبرون حدودنا، ونحن.. ويا للعبط.. لا نفعل.. لنثبت للعالم أننا لم نبدأ بالاعتداء.. وكأن وجودهم علي أرض فلسطين ليس اعتداء.

الأرض..

ثم.. الماء..

واستعاد ما يشدو به عبد الوهاب..

«أنتركهم يغضبون العروبة.. مجد الأبوة والسودا»

تركناهم.

كلف العمال، بنزع الشتلات التى علي وشك الذبول. وطلب منهم تعميق الغور. وقبل وضع شتلات جديدة، يعملون مجسات، للتأكد أن الماء ستطوله الجذور.

طال الماء المتدفق من الخراطيم، كالبراكين، قامه الساتر الترابي. وجرف التراب، صانعاً فتحات، سرعان ما عبرت منها الدبابات، وعربات نقل المعدات.. وانكشفت مواقعهم أمام الجنود.

وكان ما عجب له حمدي، أن المعدات، من خراطيم، وقوارب مطاطية، ومركبات برمائية، نقلت إلي الضفة الغربية للقناة، والإسرائيليون يركبون الساتر الترابي المرتفع فى الضفة الشرقية، ويراقبون من أماكن الملاحظة، بخط بارليف، فكيف لم يدركوا ما يحدث أمامهم..؟!

تمهل حمدي فى مشيته. كان فى الطريق إلي بيته، عابراً ميدان الشيخ حسنين. رجل واحد استأثر باهتمامه، من كل ما يزخر به مولد الشيخ حسنين. وقف علي منصة عالية، نصفه الأعلى عار. بانت عضلات صدره وذراعيه وكتفيه مفتولة، سمراء، أمسك سيخاً حديدياً مبروماً فى طول إحدى ذراعيه. غرز سنه فى خده الأيمن، وظل يضغط حتى خرج من الخد الآخر.. تملي من النظارة بعين محايدة، لا تطرف. وتناول سيخاً آخر، وكرر نفس العمل، والناس تتجمع حول المنصة.

حرك الرجل رأسه ذات الشعر الطويل المجعد، ملتصق برأسه بفعل الصابون، الذي أعطاه لوناً يميل إلي الاصفرار، وعينه السوداء وان تحركتا مع حركة الرأس. والسيخان يتذبذبان مع حركته كبندول ساعة دون أن ينشع الجلد بالدم. ودون أن يصدر عنه ما يشي إحساسه بألم.

تساءل حمدي ذاهلاً :

- كيف..؟!

قال رجل إلى جواره :

- خداع بصر..؟! -

كاد أن يسأله.. وهل لا تري ما أراه، لكنه أمسك، وقد لحظ عيون الناس المشدودة إلي الرجل. عيون العالم كله على الشرق الأوسط. وظلت المياه راكدة في قناة السويس.

وقد انقطع الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر. والإسرائيليون يدلون أقدامهم في مياه القناة، ويسبحون فيها أحياناً، ست سنوات كاملة، من 67 حتي 73.

الغريب أن الرجل، لا يتكسب من عمله هذا، فلا هو، أو أحد معه، طلب نقوداً ولا أحد بادر بإعطائه شيئاً.

فلماذا يفعل نلك..؟! -

وحين سأل بعض الحاضرين، عن هويته، أخبروه أن أحداً لا يعرف عنه شيئاً، وأنه يأتي إلي المولد دائماً، يقدم فقرته في صمت، ونادراً ما يحدث أحداً.

رجح حمدي أن يكون من أتباع إحدى الطرق الصوفية، التي تدين بالتقشف والزهد، وأن ما يفعله نوعاً من المجالدة.

في ميت دمسيس، اكتشفوا حجراً مدفوناً في الأرض، في جانب من صحن كنيسة هناك، عليه نحت بارز باسم محمد بن أبي بكر. كان من الحجر الجيري الأبيض، أسطوانى، في طول جذع شخص متوسط الطول.

وأقبل حمدي مع الناس التي حضرت خصيصاً، ورواد مولد ميت دمسيس لمشاهدته، وحين حط الليل، استأثر باهتمامهم جميعاً.. مار جرجس.. خيال له، أعلي الحائط من الداخل في مقدمة الكنيسة، وهو فوق حصانه، ممسكاً رمحه. يتراقص علي ضوء المشاعل المتسرب من المولد إلي صحن الكنيسة. هلل الجميع من أقباط ومسلمين..

«شئ لله يا مار جرجس.. شئ لله يا مار جرجس..»

المشاعل علي عربات الترمس وحمص الشام، وأقماع الحلية المنبثة الخضراء، ذات الذؤابات البيضاء، وسرداقات صغيرة، مقامة من قماش سرادقات الأفراح، ذات الزخارف المربعة والمستديرة، يغلب عليها اللون الأحمر، مقامة في ميدان الشيخ حسنين، والشوارع المؤدية إليه، وهنا في الباحة أمام الكنيسة.. وعند شاطئ النيل بالقرب منها، يؤمها السامعون للانشاد الديني، يتلي علي مسارح مصنوعة من دكك خشبية، أو براميل فوقها مستطيل عريض من الحديد المبسط، وخلف المنشد فرقة موسيقية لا تزيد على أربعة أو خمسة أشخاص، تصاحبه بكمات أو أكثر وطبل ورق، وصوته يلعلع في مكبر للصوت بالسيرة النبوية.. على ألحان شهيرة لبعض أغاني أم كلثوم، ينتشي الوجدان، على ايقاعها المألوف، والذي سبق أن أطر بهم. ويتغلغل الطرب في نفوسهم منعماً بما يزيد من سحر النشوة، سماعهم لقصص كرامة الأتقياء ومعجزات القديسين.

وعربات اليد، مصطفة في مواجهة السرداقات، عليها، الطواقي والطراوير، المصنوعة من الورق الفضي، والذهبي، تحف بها شرط (جمع شريط) من ورق الكوريشة الأخضر والأحمر والأصفر. ولعب الأطفال الخشبية، الرخيصة، ذات الألوان الغامقة، تمثل طفلاً يلعب على العقلة، جانبها، عصاتان من الجريد، إذا ضُغطتا تشقلب الطفل. أو عروسة بلاستيكية، إذا ضغطت بطنها زمزت، أو صفقت بيدين بهما قطعتان مستديرتان من صاج رقيق. وحيوانات بلاستيكية، صماء. وزمامير بأحجام مختلفة. بها خروم، لتضبط الأصابع النغم. وطبول صغيرة للأطفال وأخري كبيرة، دُھنت أيادها الفخارية باللون الأحمر، وصناديق ذات واجهة زجاجية علي حوامل خشبية، رُصت فيها عقود وحلقات من الخرز

الملون، وخواتم فضية وذهبية «قشرة» . وباعة كتب السيرة والمدائح النبوية، قد فرشوا كتبهم علي جانب من الرصيف، جوار باعة الحمص وحب العزيز. وفي قلب الزحام انتصبت دُورِيّة، علقت في قوائمها الحديدية المدلاة من سقفها، بدلاً من الخيول الخشبية، صواريخ، مكتوب عليها أسماء البلاد العربية.. اليمن.. العراق.. فلسطين.. السعودية.. فوقها الأولاد والبنات، يعاكسون بعضهم بعضاً.. بينما تدور بهم. والأراجيح، لا يقنع الأطفال، بما يبلغونه من علو.. فيجاهدون في الأرجحة، بالانشاء والقيام، لتعلو أكثر.. بينما الأهالي يحذرون.. ويرسلون من طرف خفي، إشارة لصاحب الأراجيح.. فتمتد يده فجأة تشد حديدة الفرامل.. فيحتك أسفل الأرجوحة بقاعدة النصبه الخشبية، مزيقاً بصوت مشروح، فيهلل الأطفال محتجين.

وأمام سرادقات الطرق الصوفية، التي علقت لافتات قماشية بأسماء الرفاعية والبراهيمية والشاذلية، وضعت باعة الفاكهة أقفاصهن الجريدية، يبعن الخوخ والعنب البناتي.. بينما تأتیهن أكواب القرفة والشاي من داخل السرادقات، حيث جلست نسوة متآخيات، في ملابس فضفاضة بيضاء، يعد لهن بعض الرجال الجمرات، لوضعها في طرابيش المعسل فوق الجُوز.

وثمة من أشعلت قطعاً من الخشب، تطقطق بين حين وآخر، وتسوي عليها كيزان الذرة. وجلس جوارها رجل يعرض تماثيل من الجص، ولوحات مستديرة من الجص أيضاً عليها آيات قرآنية ملونة. وحين ناولت إحدى النسوة، كوباً من القرفة إلي حمدي في سرادق علي النيل، تسأل.. أتراها من المتآخيات. أخذها جمال وجهها الفطري.. ليتها تؤاخي. وتذكر ما قاله له أحدهم.. يعرفون مواعيد الموالد وأعياد القديسين وينتقلون من مولد لآخر.. حيث الطعام والشراب.. والتبرعات تصل إلي شيوخ الطرق الصوفية، خاصة من تجار الناحية.

وبعد أن دارت أكواب القرفة، والشاي لمن طلبه.. وُركنت الجُوز إلي جانب.. نهضت المرأة، وقد امتلأ السرادق بالجالسين.. ووقف الكثيرون خلفهم.. وأنشدت:

واشرب مدام كرفقتي من نور عين الذات^(١)
يا بنت سمعان يا حنونة خشي الدير خبانات
وافتحني باب الدير وفرجيني علي السادات
قالت حنونة بنت سمعان :

وانت فين ياللي تنادي في دجي الليل على القدمات.
قلت لها : أنا مغرم وعاشق في النبي صاحب العلامات.
مشى حمدي باتجاه الكنيسة، في الشوارع والأزقة الضيقة، وقد افترشها الناس، وتكدست أبواب البيوت خلفهم بالزوار، وفي باحة أمام الكنيسة افترشها المرضى.. مئات من الرجال والنساء والأطفال والشبان، بالملابس البيضاء. نام بعضهم علي الأرض، وعيونهم شاخصة إلي السقف ذي القباب العديدة.. صوت هذه، المرأة ليس غريباً عليّ، وأخذ يدندن : وحياة جمال النبي أبو مقام غالي.
ما يقطف الزهر في الجنة إلا التايب الغالي.

تدافع بلطف بين الجموع، يود الدخول إلي صحن الكنيسة، لمشاهدة مار جرجس ثانية. تمهل في جانب من الباحة، حيث يبيع رجل ملتج صور كبيرة للقديس، وهو على حصانه يطعن التنين بالرمح. ومض في ذهنه.. الخيال الذي رآه لم يكن به تنين.. تأمل القباب من الخارج.. من أين يأتي الخيال. وهو يدخل، أكد لنفسه أنه فعلاً لم ير التنين. وجاءه إنشاد بعض المنشدين :

كبادوكيا بلدنا.. نسبتنا في فلسطين
وفيها مربانا.. وفيها مقيمين.

شاهد الخيال أمامه أعلى الجدار المواجه.. وقد رفع الحصان رجله الأماميتين، وأمسك الفارس برمحه، والناس تهلل.
أين التنين.. يمسح بنظره السقف.. ضغط الأجساد، جعله يتزحزح من مكانه.. يعيد النظر.. لكن ضغط الأجساد، لا يمكنه من التملي جيداً.. دفعه الضغط إلى باب جانبي.. حاول العودة.. لكن التيار الزاحف إلى الخارج، لم يتح له فرصة.. طالعه تيار هوائي بارد.. ورأي خلف السراقات علي جسر النيل أشرعة المراكب، التي كلما اقتربت، وغزتها أنوار مشاعل العربات، كبر حجمها.. واتضحت بعض ملامحها للرأي.. أين التنين..
علقوا مار جرجس المزاحم علي ساري مركب، من عنقه ورجليه، وضرب بالسياط، ولم يتنازل عما اعتقده. سلموه للوالي، فقطع رأسه، وتناقل الناس سيرته، وحملت كنيسة في قرية بساط النصراري اسمه..
إذن فهو خيال مار جرجس المزاحم..
لا .. مار جرجس المزاحم كان فلاحاً.. أما هذا ففارس علي حصان..

إذن هو مار جرجس السكندري..
لكنه ابن تاجر، وليس فارساً.. طمع خاله والي الإسكندرية في ماله، وأراد أن يزوجه بنته.. لكن البنت آمنت بالدين الجديد..
وأنت يا صفية.. ألا تؤمنين.. لماذا.. عيناك علي المال دائماً.. كم تكسب.. وبكم ستكلف..؟! طبعاً يوجد خطاب جاهزون.. هل توقعت مني المزاحمة.

جرفه الزحام، باتجاه أحد السراقات. لعل مكبر للصوت داخلها :
ولما دعانا الغرام فتنا الوطن وبلينا
ولما قابلنا النبي ردت أرواحنا فينا
فعدنا نريح البدن بان التعب لينا

الله يعلم بظاهرها وخافينا
ماذا تخفين يا صفة.. هل تخفين شيئاً لا أعلمه.. أم أن كل شيء ظاهر،
وأنا الذي لا يستطيع القراءة.
حاول أن يخرج من التيار، ليستششق نسمة باردة، وقد أحس صهداً في
مستوي رؤوس الناس، رغم رطوبة تسري في الليل المتقدم..
ليتك كنتُ معي.. يا رجل.. كان الناس أشبعوها عبثاً بجسدها، وغرفاً،
كما يقول بعض محترفي المداعبة في الموالد..
إذا كان مار جرجس سُمى بالمزاحم، لأنه زاحم ثلاثة أخوة.. فماذا
يسمي السائر هنا..؟!
اقترب من فتحة سرادق.

أول ما نبدأ القول نصلي علي المصطفي ولد عدنان.
كان ياما كان يا ميت دمسيس كنت تمسبوتي في العهد الفرعوني
وجدوا في جوفك حجر بنقش الوالي ابن أبي بكر في عهد أبي الطالب
الفارس القرشي

حاول الإنجليزي الخسيس بيني جسره على النيل ويغرق الكنيسة.
رفض الناس وقالوا أبدأ يا ابن اللثيمة.
ذهب المصري وأحضر جسد الشهيد من اللد بفلسطين.
وقال ما يدفن غير في مصر ودمعت العين
لكن الشهيد دفن في مصر القديمة وزاد الحنين
ذهب المصري وأحضر ذراع الشهيد من فلسطين
كان الكفرة، قطعوا جسده، وقال ما يدفن غير في ميت دمسيس
لأجل دائماً، نذكر كيف قيدوك بسلاسل الحديد
وكيف وضعوا الجير الحي علي جروحك ولم يعبأوا بالألم والصديد
وأحموا المسامير في النار ووضعوها في لحمك الضنين

والبسوك حذاء من حديد دقوه بالمسامير فى قدميك
وأجبروك علي المشي ووضعوا الشظايا فى جسمك ولم بكيت
وخلعوا أظافرك ووضعوك علي سرير من المسامير المحماة فى النار
ولم شكيت وظنوك تنازلت عما فى رأسك..
وجدوك رفعتها وقلت أبداً أنا على العهد إذا بقيت.
واليوم فى مايو والزهر يفتح عيد الشهيد، وغدا فى الخريف عيد
كنيستك

يا فارس يا نبيل
ولن نصغي لما قاله الصليبي أنك جاور جيوس وساعدتهم فى حصار
أنطاكية
ولن نصغي لما قاله الإنجليزي أنك سان جورج حامى وشفيع بلادهم
فى الملمات

وكيف تساعدهم وهم على الشر فى اتفاق ومعاهدة
وكيف تساعدهم وأنت الخضر ابن الشام
وكيف تساعدهم وأنت الكباووكي وأمك فلسطينية
وكيف تساعدهم يا شهيد ولنا من الشهداء آلاف
علي أرض سيناء والمجدل والدم الذي يروي ما يبقي جاف
رمحك معنا يا بطل.. لأجل يركع التينين ولانخاف
وصلوا علي خاتم الرسل ولد عدنان
كانت الشهامة طبعه والرحمة له غية
لفح وجه حمدي تيار هواء بارد. أدرك أن ثمة انفراجة، ترك نفسه لها
فطالعه صفحة النيل، بعتمة مشعة، جعلته مختلياً بنفسه، وفي الوقت
نفسه، متصلاً بما حوله.

المياه الداكنة، تتوالي طياتها، بفرحة مضمرة، هل تهش للصباح
الوليد..

والباعة أبداً لا يذهبون. والرجل لا تنقطع، والأزقة المحيطة بمسجد
الشيخ حسنين، علي صخبها، ورجل نصفه العلوي عار، وضع ظهره علي
لوح خشبي، نهضت به مسامير كأشواك الصبار الإبرية. سأل رجلاً سميناً
أن يدوس فوق صدره، وأشار له ألا يخلع حذاءه.

أراهم ظهره.. لم ينل شئ من لحمه، ولم تنبثق نقطة دم واحدة.
صعد في شارع العباسي إلي شارع النيل. فكر حمدي أن يعود إلي
ميدان الشيخ حسنين، ويعرج إلي شارع محمد فتحي، يتملي سرادقاته،
كما كان يفعل وهو صغير. كان يشاهد الصعايدة بقاماتهم الفارعة في
الجلابيب البيضاء، وقد وضعوا عمائم علي رؤوسهم تشبه أغطية قدور
القول المدمس. وقد أمسك العازفون بالأراغيل. عدة غابات متجاورة،
في طول العازف، يحرك أصابعه علي خرومها، بينما تنتفض عروق رقبتة،
وهو ينفخ في مبسمها.. مصدراً أنغماً رتيبة، ممتدة، لم يدرك وقتها، كم
كانت راسخة، وحزينة، وكم كانت الأصوات البشرية التي تصاحبها، تنن،
غائصة في قرار مظلم.

وأبو حلاوة ينادي على كل دار بدار
من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه نار
من يضمني عندك يا صفية. المال ضامنك وشفيعك، أم هذا قصر ذيل
مني.

من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه ...
استمر في سيره، يلتمس نسيمات، تخفف من لفح الأنفاس في المولد.
وتساءل.. لماذا الموالد دائماً في الصيف وغالبًا في أغسطس.. لم يصادف
مولداً في الشتاء أبداً.. خُيل إليه أن الهواء سيقتلع الخيمة. أخرج يمينه من

جبيه، وكانت ما تزال باردة. سلم علي النقيب، قائد الموقع، الذي دعاه إلي الدخول.

أخبره عن اختياره أرض جوار موقعه، لزراعة شتلات خوخ. استفسره بتقاطيع وجهه، فوضح له الأمر. وعده بالدراسة.

وعندما التقاه حمدي ثانية، خُيل إليه أنه بالغ في الترحيب به، مما أثار دهشته، وشجعه، فيما بعد، أن يخبره بحاجته إلي شتلات من لوز سيناء. وعده كعاداته بالدراسة، وظن حمدي أنه أصغى إليه من باب المجاملة، وخجل من نفسه، لأنه زادها علي الرجل، لكنه فوجئ به، وقد دبر له لقاءً مع محمد عايش، دليل قواتنا العابرة لبعض العمليات في سيناء.

وكاد يقفز من النشوة.. عندما طالعتة الجرائد، بما فعلته قواتنا من تمويه.. جعل الإسرائيليين لا يدركون ماهية ما يرونه أمامهم من قوات ومعدات علي الضفة الغربية..

لوح بقبضته اليميني في الهواء. الآن فقط.. فهتم سر اهتمام قائد الموقع عبد السلام فاروق بي..

أكد، كان يريد لنقاط الملاحظة الإسرائيلية علي الضفة الشرقية أن تري المزرعة.. ولعل هذا أوحى لهم باسترخاء القوات، التي سمحت بإقامة مزرعة في موقعها.

يا خبر.. وأنا الذي ظننت، أنني لم أشارك في الحرب..؟! تملكه شعور، أسكره عدة أيام، ومع توالي الأيام، عشنش في الأعماق، يرسل بين حين وآخر أشعة ذهبية، تضئ جوانحه.

وصل حمدي إلي بيته. جذب كرسي الشاطئ في مواجهة الشباك. داعبته نسيمات بحرية منعشة. أراح جسده مع ميل خلفية الكرسي القماشية.

مجري مائي، تحت الأسوار السلكية. سال فيه الماء، حاول النفاذ،
ليعرض طريقه.
نبحت كلاب بشدة. تدلي لعاب لزج علي جانبي أفواهها. وبرزت
أنيابها حادة كلما علا نباحها.
تحركت القوائم الحديدية، بما بينها من أسلاك عنكبوتية، وبما أعلاها
من أسلاك شائكة.
عدت الكلاب، خلف الأسوار، وأخذت تنبح كأنما أصابها سعار..
تحركت الأسوار فتبعتها الكلاب، وقد تحول نباحها إلي عواء مخيف.
وكلما تحركت الأسوار، تبعها الكلاب..
انتفض، وقد كادت تطبق عليه الأسلاك العنكبوتية، وخلفها السحن
المخيفة للكلاب تزوم وقد تساقط لعابها.
هل غفوت..؟!



ذهب إلي النفق آملاً أن يري سمية.

كانت شمس ما قبل الغروب الهينة، تضفي شفافيةً علي الأشياء.
فضل أن يجلس تحت شمسية علي الرمال، مولياً ظهره لمبني الفندق.
انبسط الشاطئ أمامه، وطيات المياه، تداعب بعضها بعضاً، في خفة
ومرح.

حمل إليه الهواء، رذاذاً خفيفاً، أنعش وجنتيه، وهو يتأمل مياه البحر،
عند استدارة الأفق، وأحس بخفة، واندغام فيما يحيط به.
لم يتعجل الإشارة إلي أحد، يُحضر له طلباً. تعشم أن يساعده الحظ
وتحضر هي. خف الوهج الأصفر، ومال قرص الشمس إلي اللون
الأحمر، وقد تحددت استدارته، بينما يشرب الماء، في محاولة للمسح
علي وجهه.

لماذا حضرت إلي هنا..؟!!

هل رميت طوبة صفية.

إنها لم تتصل بي منذ عرفتها. دائماً المبادرة من جانبي. هل هذا هو
المفروض. وماذا لو كنت مريضاً، أو مشغولاً، أليس من الواجب أن تتصل
لتطمئن.. أو حتى لتعرف أخباري.. لم يحدث مرة واحدة، أن نسيت
واتصلت. هل هو التمتع الكاذب، من قبل المرأة المصرية «ياخي»..
كأنك خبرت نساء العالم.

لا.. لتترك هذا لغير المتعلمات.. هي تعلمت وسافرت إلي الخارج

وراحت وجاءت. أم أن كلهن سواء فى هذه الناحية. ويتركز المبادرة للرجل، حتى لو كن الراغبات. لست أدري.. ولكن فى حالتى.. وقد خبرتها، لا أظنها هكذا.. والمعنى واضح كالشمس..

نشعت الحمرة على حافة الأفق، وصبغت نتفاً من غيم فى قبة السماء. ونجحت جبال الماء، أخيراً، فى ابتلاع القرص، وبأن أنها مأخوذة بجبروتها الأثيث، وعلاها زبد أبيض، يجاهد فى محو بقايا الشعاعات الواهنة. هي لا تعبأ بي.

لكن لماذا فى كل مرة، التقينا، حثني على مداومة الاتصال. هل هي المجاملة العادية. إذا لم يكذبني سمعي، فى صوتها شئ ما. لا.. ليس رجاءً. ولكنه وشاية برغبة، تجاهد، فى الإفصاح. أو ربما.. لا.. لست متأكداً بالضبط. وماذا عن نظرة عينيها العسليتين، تنظران إلى الداخل، إذا أطريت جمالهما، مشفوعة ذلك بابتسامة ودیعة، واحتجاج ناعم :
- وبعدها معك.. !

ولا تقوي على سحب نظراتها الداخلية. هو الخجل.. الخجل الذي يمنعها من الإفصاح.. أو الاستجابة، هل تريدني أن أدفعها إلى ذلك. أم أنني أخدع نفسي، وليس شئ من هذا فى دماغها. وماذا عن لهفتها وهي ترد علي التليفون، خاصة، عندما أطلبها مبكراً، ويأتى صوتها لم يتخلص من أثر النوم، فأعذر بصدق، عن إيقاظها، فيأتيني صوتها، وهو يتملص سريعاً من الغشقة :
- أبداً أبداً..

تشبث بتواصل الصوتين، فأستمر فى الحديث، وينجو صوتها، شيئاً فشيئاً مما يشوبه، ويصبح وديعاً، ناعماً، راعباً فعلاً فى مواصلة الكلام. لماذا لم تسأل...

هل تحتم علي أن أكون السائل دومًا..؟!
 مازلت أذكر، كلماتها في عرض حديث، أنها لن تتردد في مصارحة
 أحد، لو صادف هوي في نفسها.
 هل قالت ذلك، لتشعرنني بمدي حريتها، وامتلاكها لدفة حياتها، أم أن
 الكلام شيء والعمل به، شيء آخر.
 دائماً، أنا الذي يعرض.. وهي لا تقبل ولا ترفض.
 تنزوج. تُسوف في الرد، وتنشغل بأي شيء، وإن كانت حمرة خفيفة،
 تنشع من وجنتيها الحريرتين، تفضح انفعالها الداخلي.
 أحبك. تنظر إلي بعيد، وتحول الحديث إلى اتجاه آخر، وعبثاً أحاول
 استبقائها في الدائرة. ومع ذلك. لا ترفض اللقيا، وتأتي في الموعد
 بالضبط، على غير عادة النساء، اللاتي يملن إلي التأخر.
 أتراها.. تحتفظ بي، احتياطاً للطوارئ، ولست أنا النموذج الذي توده،
 فإذا لم يحضر مرادها، فأنا أحسن من لا شيء..
 أم هي كأنتي، مطلقة، تستعذب الإحساس أنها مرغوبة.
 ولكنها، وهي على مشارف الأربعين، إن لم تكن تخطتها، ألا تشعر
 بالقلق. لعل هناك خطأ، وهي تفاضل، وأنا لا أعلم.
 قلبي شيئاً.. يرحمنا ويرحمك الله.
 أحس بمن يقف خلفه. التفت مرتبكاً، كمن ضبط متلبساً بفعل منكر.
 كان الظلام قد غشي الأشياء. ولم تكن سمية.
 - أفندم
 تردد.. هل يسألها عن سمية.. أم لا داعي للتسرع، حتي يستوثق بنفسه،
 وحتى لا يتسبب في انتشار أفاويل، لا داعي لها.
 - أفندم
 - قهوة سادة.

غادرته. خيل إليه أنها هزت كتفيها. سرح يبصره عبر الترابيزات، لعله يلمحها آتية، ونمل المساء، يغش المرثيات. تساءل.. هل المضيفة التي جاءت.. استلمت ورديتها لتوها.. أم هي نهائية، ولم تسلم بعد..

هل سلمت تمامًا في أمر صفية. كان من الواجب إخبارها أنني صرفت نظرًا. ولكنني لم ألتق معها على شيء. علي الأقل يكون لقاء وداع وأسمع كلمتها. شعر بحنين لسماع صوتها الناعم، الخالي من أية ندوب، تنبئ عن مكر، أو لف ودوران. وتمثلها بقامتها الطويلة، وجذعها الرهيف، حيث تميل دومًا إلي لبس البلوزات المشغولة «تريكو»، تبرز نهديها. كانت معالهما واضحة، وقد حذب عليها، خلف مقعدها في الباص، محادثًا.

آه من الحليب الممزوج بالسمن البلدي، وقد استكانت اليمامتان. ومرة كان الوقت صيفًا، ارتدت بلوزة، بلا كمين تقريبًا. رفعت إحدى ذراعيها، ملوحة. شعر أسود أطل من تحت إبطها. غابة. كاد يفقد اتزانها، وهو الذي جاهد دومًا، أن يبدو غير متلهف على شيء.

ولكن، ما دمت قد فكرت في امرأة أخرى، فمعنى هذا، أنك لم تحبها. هل كنت فقط معجبًا بشخصيتها الدثة. أم أنك في داخلك، وقد تعديت الخمسين، تبحث عن زوجة مناسبة والسلام.

أم أنك لست مستريحًا لماضيها تمامًا.

كان أحيانًا. يعتريه الشك، فيسأل عنها زملاءها في العمل حين يزور حمدي، فيستشف من النظرات أن لها علاقات.

وحين يحاول الإمساك بخيط محدد، يجد نفسه في جو لا يستطيع معه تبين الخيط البرتقالي من الخيط الرمادي.

وهذه الغابة الطالة أليست دليل استقامتها.. فلو كانت علي علاقة بأحد ما أهملت نفسها هكذا.. من يدري.. لعل من تحبه يثيره ذلك.. فطاوعته وتركت نفسها، بهذه الغزارة.. لا أعتقد..

أمام مستشفى ميداني، أقاموه على عجل في جانب من معسكر الأسري

بعتليت، رقد الجرحي عدة أيام.. طلقات من الرصاص أصابت الجذوع والأذرع.. والأفخاذ.. وتخثر الدم النازف على أجسادهم وملابسهم.
أحدهم يدمع.. ساقه تهتك ولا بد من البتر، لكنه يحمد الله بصوت مسموع أنه نجا من الموت. جاء ممرض إسرائيلي ممصووص الجسد، وحدثهم بعربية حروفها ممطوطة :

- صاحبك فى حاجة إلى دم..

نظروا إلي بعضهم بعضاً. ولم ينهض أحد.

- يا شباب.. صاحبك يموت..

نهض بعضهم، وفي أثرهم حمدي. كاد يسقط ثانية. عزا ذلك لرقدته مدة طويلة، وعدم سريان دم كاف إلى دماغه.

دخل المستشفى. شكة دبوس فى إبهام يسراه. بعد قليل غرزوا إبرة فى وريد يده اليميني. لم تستقر، فجربوا ذراعه الأيسر.

حين استوعب ما حوله. وجد على سرير حديدي، مواز لسريره، مجندة وقد غرسوا إبرة فى إحدى ذراعيها. وأعلي سريرها وعاء زجاجي تمتص منه الدم.

ود لو ينهض، لكن الإبرة فى ذراعه، وحلقة مطاطية تحيط به. وسمره مكانه، مارآه من شعر غزير تحت إبط الفتاة. هل الأجنيبات دائماً هكذا.
أخذه الممرض إلى الخارج، وهو لا يكاد يري ما أمامه ودخل زميل آخر. لا يدرون كم مر من الوقت حين وزع عليهم الممرض ماءً غامقاً، وهو يقول:

- الشاى يا شباب.

رغم طعمه الماسخ، فقد بعث سخوته شيئاً من الحيوية فى أجسادهم. أحضر الممرض وعاءً بلاستيكيًا به أوراق كرنب مقطعة إلى شرط رفيعة، وبملعقة خشبية أخذ يوزع عليهم. حاول أحدهم أن يأخذ نصيباً لزميلهم الذي فى الداخل.

قال الممرض :

- صاحبك الله يرحمه.

تبادلوا النظرات فى ذهول. سأل أحدهم جاره عن إصابته :

- كانت فى الإلية، ولم ينزف دماء كثيرة. امتنعوا عن تناول الكرب وطلبوا إبلاغ مندوب الصليب الأحمر. قال الممرض :

- صاحبك الله يرحمه.. لماذا لا تأكل أنت..؟!!

غادرهم مسرعاً. وقف أحدهم بالباب. وجد زميله ملقى فوق تراييزة حديدية، أرجلها رفيعة صدئة، وتحت مشمع مصفر، متهرئ، وبطنه ملفوفة بأربطة من الشاش، ناشعة بالاحمرار.

انتبه إلى كوعه، كاد يقذف بصينية القهوة. وجد فنجانه خالياً. متي جاءت القهوة، ومتي شربها. ثبت ورقة مالية تحت الفئجان. نهض فى تثاقل وقد تكاثف السواد. مشي بمحاذاة الشاطئ..

تري.. هل أنا الملوم..؟!!

قلت : أحبك. صمت

قلت. تتزوج. صمت

هل صمتها علامة رضا. أم طبعها الخجول، والذي لم أدركه وقتها، جعلها تصمت حتي لا تجرحني، وقد اعتبرت عرضي بالزواج، جراً لرجلها.

لو كان الأمر كذلك.. فلماذا قابلتني باحترام وود بعد ذلك..؟!!

لعلها، كانت فى انتظار أن أضيف. سأفعل كذا، سأدبر كذا، حتي تأخذ كلامي مأخذ الجد، وكيف أضيف وهى لم ترد.

لم ترد.. نعم.. ولكنها استمرت فى اللقيا ولم ترفض الحديث التليفوني. هل بذلك اعتبرت نفسها موافقة ضمناً على ما عرضته، وظنت أنني فهمت، وانتظرت خطوتي التالية.. فأى تقصير - من وجهة نظرها - يكون قد حدث..؟!، وأنا الذي كنت فى حيرة من عدم ردها..؟!!

خاضت قدماه، فى نباتات رخوة، مما يلقيها البحر على الشاطئ..
انحرف قليلا. تناهى إلي سمعه إيقاع كإيقاع آلة موسيقية، تشبه ملعقتين
خشبيتين كبيرتين. أحد ذكور اللقالق المهاجرة، يخبط بشقي منقاره
الطويل، جذباً لإحدى الإناث. اقترب من نخلة بدت أشد دكنة من الظلمة
السارية، لم يجد شيئاً.

عاود سيره، وجاءه الإيقاع ثانية. ثلة من النخيل فى جانب من الشاطئ
الرملى العريض، اقترب منها فلم يجد شيئاً.
تلفت حوله. أتاها الإيقاع، راقصاً، هاشاً. لاحت شجرة الكافور، القريبة
من بيته. اقترب منها وقد أيقن أنه واجد اللقلق، وقد انحنت الأنثى -
كعادتها - محيية، وهو يرد علي تحيتها بانحناء مماثلة. ثم يندغمان معاً
فى إصدار إيقاع واحد بمنقاريهما.
خاب ظنه..

ولاحت له.. من خلف أسوجة بعض البيوت، زهور الفل البيضاء،
وقد خففت من العتمة..
سار علي هديها، ملتمسا الطريق إلي بيته.



ثلاثة يعرفون «التكتيك» فى العالم.

روميل..ألمانيا

مونتجمرى..انجلترا

ثم مشيرا بإبهامه إلى صدره :

مقدم جورج أديب..القطر المصري.

بالكاد، يسيطرون على أنفسهم، حتى تنتهي المحاضرة، ثم ينفجرون فى الضحك. ويأخذ بعضهم، فى تقليده بلهجته الهادئة، الواثقة، خاصة وهو يضغط على المقطع الأخير «القطر المصري»، ناظراً فى عيونهم، بعينه ذاتي الأديم الأحمر.

ابتسم عبد السلام فاروق، وقد سرح بعينه فوق مياه القناة، التى ما أن تلثم البحر، حتى يفتح ذراعيه لاحتضانها.

وضع يديه على حافة المعدية، متعجلاً وصولها إلى بور فؤاد، وقد زاد شوقه للقاء الرجل. أشار العميد جورج إلي إحدى الدبابات المدمرة، وقال :

- هلا تلاحظ ما ألاحظه..!؟

كان قد أمكنهم تدمير وإصابة فصيلة من الدبابات المهاجمة، ومع ذلك انهالت على موقعهم، بعض القذائف. أفاد الاستطلاع عدم وجود قوات إسرائيلية بالقرب منهم.

اختبأوا فى الملاجئ..وفكروا فى الانتقال إلي موقع تبادلي، وهم فى عجب من الأمر. دقق عبد السلام النظر، وقال :

- البرج مدمر من أسفل

قال العميد نافذ الصبر :

- الماسورة.

فجأة صاح عبد السلام من الدهشة :

- مدفع البرج له ماسورتان.

أمن العميد متمهلاً :

- بالضبط.

تسمح لي سيادتك.

أوماً برأسه وهو يقول :

- توخ الحذر.

خطا عبد السلام بينهما، محاذراً، وهو يتطلع إلي حائط القناة الأسمتي عند المرسى، ودائماً يستشعر رعشة، عندما يلمح الماء في الأسفل، مدركاً عمقه. عرج يميناً، الشوارع هادئة واسعة والبيوت من دورين أو ثلاثة. يُعلم شارع بيقال علي ناصيته..

لف عبد السلام حول موقع الدبابات المدمرة. لم يجد شيئاً غريباً. حاول معرفة سر الماسورتين، فلم يفلح. نادي العميد في اللاسلكي، وطلب إطلاق بعض القذائف على الدبابات، ثم التزام الصمت.

ما أن كف الضرب، حتي رأي دبابة سليمة، حشرت نفسها بين الدبابات المدمرة، وألصقت مدفع برجها بدبابة أخرى، انسحبت إلي الخلف وحركت مدفعها.

هتف عبد السلام في اللاسلكي :

- وضحت الرؤيا.

لم يرد العميد علي الفور، فأدرك أنه يستوعب الموقف. بعد قليل سمع

صوته:

- جاهز

- تمامًا

- تعامل معها.

زحف عبد السلام من التبة، التي كان يحتمي بها. وحين اتضح له أن قذيفة الـ آر- ب - ج، ستكون مؤثرة، توكل، ونشن، علي ممكن الحركة في برج الدبابة. أصممه الدوي. وعندما فتح عينيه، وجد ماسورة المدفع قد مالت إلي جنب، والنار مشتعلة، وإسرائيلي يحاول الخروج من فتحة جانبية. النار مشتعلة في ملابسه، ويصيح مذعوراً:
- سيدي.. ارحمني.. لا تقتلني.

تردد عبد السلام. كان جسده محشوراً في الفتحة، التي ضغط عليها اعوجاج ناصية المدفع. ثوان وتنفجر حمولة الدبابة من الدانات. أسرع عبد السلام ووضع قدميه علي الجنزير، وأمسك بجذعه. وهو ينتزعه، انشقت ملابسه، وجرح من احتكاكه بالصلب المشتعل. قفز إلى الأرض، وجري وهو يجره.

سرعان ما ارتجت الأرض تحتهم. أحس بغصة، ونظر إلى عيني المنبطح جواره.. كأنه يقول له.. لم يكن أحد يستطيع لباقي الطقم شيئاً. هلل العميد مرحباً بعبد السلام. وعندما رأى الأسير، صاح، وقد تذكر ما فعله بموقعهم:

- دوختنا يا ابن اللثيمة.

وطلب من أحد الضباط، أن يضمدا جراحه، ويرسلوه إلي المؤخرة. ما أن رآه اللواء جورج، حتي أخذه في حضنه، فأحس بجسده يتلاشي، وهو الربة المتين، في هيكله الضخم.. وقد لمس ترهله قليلاً. أجلسه في كرسي مريح قبالة، وهو يسأل عن الزملاء القدامي. طالعه وجهه الباش، بعينه الحمر اوين، وبشرته البيضاء المشبعة باحمرار

خفيف.. وابيض أكثر، شعره السائح، وبان خفيفاً، وقد شف عن صلعة لوحتها الشمس. ذهب يحضر الشاي. لفت نظره علي مكتب إلي يساره تمثال فرعونى. أغلب الظن لملك.. ما دام يمد إحدي يديه بالصلولجان، فى قمته عين حورس. وقد رسخت قدماه فى الأرض، إحداهما خطت إلي الأمام. وفى امتداد قاعدة التمثال إلى يمينه، أكثر من مجرى، عليها أقلام، وفى خلفيتها ورقة خشبية، أطلت منها حواف بعض الرسائل. وعلقت فى الصولجان حلقة، رجح من لونها البرتقالي المائل إلي الإحمرار، أنها فرع ملفوف من سباطة بلح، كاد يستشعر ملمسها الشمعي، وقد برزت نتوءات داكنة.

وهو يقلب له الشاي، نحي يده، برفق وقال :
-أنوي السفر للسعودية.. فى عمل.. إذا كنت حضرك تريد شيئاً..
تطلع إليه.. وبعد قليل وشت عيناه بالمرح، وقال :
- فات الميعاد.

انطلق عبد السلام ضاحكاً، وقد نشع ما كان. ذات ظهيرة، وقد انتهوا من طابور تدريب، أمر العميد رقيب الاذاعة، بالترفيه عن الجنود. وكان الرقيب مغرمًا بأَم كلثوم، وفى هذا اليوم، كان بينه وبين أحد زملائه سوء تفاهم، وكان محبوساً بالمعسكر ومستثني من الإجازة. فأذاع الرقيب أغنية «فات الميعاد»، وكلما انتهت أعاد إذاعتها، حتي أفلتت أعصاب الزميل وتشاجر معه، وُسُمت أطراف من زعيقهما فى الإذاعة.
أرسل العميد، عبد السلام فاروق لتحرير الموقف. استدعى رقيب الإذاعة، وصالحه علي زميله، بينما تناثرت تعليقات الحضور :
- هل فاتك موعد حقاً..
- علي الترفة.. ولا فى جنينة الحيوانات..
- وجبكت النكتة أحدهم فقال :
- وأنت الصادق... فى أرض الميعاد..

ضجوا جميعا بالضحك، وأسرع العميد جورج إلي مكتبه، وعاد وفي يده نسخة من العهد القديم، وقال :

- بمناسبة أرض الميعاد.

فر التوراة، وتوقف بإصبعه عند صفحة معينة، وقال :

- فى سفر التثنية، الإصحاح الثاني، العدد الرابع، تقول الآية «وأوصي الشعب قائلاً وأنتم مارون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين سعير فيخافون منكم فاحذروا الهجوم عليهم لأنني لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنني لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثاً » تطلع العميد إلي وجوههم، فاستشف استغلاق بعض الكلمات عليهم. قال :

- سعير.. في أرض كنعان.. فلسطين يعني..

تساءل الرقيب :

- محرمة على الشعب.. !!

رد العميد :

- اليهود يعني..

قال عبد السلام فاروق :

- وهل ننسي تصريح ديان أنه ملحد.. وكذا أغلب زعماء إسرائيل.

قال المحبوس :

- فلا معنى.. للكلام عن الحرام والحلال.

وصلت المعدية إلي بورسعيد. تطلع عبد السلام إلي ساعته. تري.. هل استغيثته صفية. ليتها أعفته من الغداء، خاصة وهو لا يعلم هل لاقى قبولا أم لا. ما فهمه من كلامها، أنها مهدت لهذا اللقاء، لكن الكلام شئ، ورؤيتهم له والحديث معه شئ آخر. ولعلها لم تذكر لهم كل شئ.. هل لاحظوا فرق السن بينهما، هي تسبقه بسنوات قليلة، حسب زعمها، وهو علي مشارف الأربعين.

استأذن ليترك لهم الكلام بحرية، وانتهزها فرصة لزيارة اللواء جورج.
على أية حال.. أيا ما كان، انطباع شقيقها، ورده، فهو يحس بالثقة الآن،
عنه فى الصباح.

مشى بحداء السور المحاذي للقناة، وقبل أن يصل إلي نهايته، عرج
إلي الطريق الموازي للبحر. لكن عليهم ألا ينسوا.. هذا الزواج الثاني لها،
وهو لقطة بالنسبة لها. لقطة.. أم هي اللقطة، بعقدها للعمل فى السعودية.
أتراها، لولا حاجتها لمحرم، ما وافقت علي الارتباط به، وهل هذا وقت
التيقن والسؤال. وأين كنت من زمان.

هل سيوافق شقيقها، مراعاة، لمصلحتها والسلام، أم..
غذ السير، وهواء البحر، يرطب جبهته، ويتغلغل فى ثنانيا ملابسه،
مخففاً من غلواء الشمس، بينما عيناه تبحثان عن ظلال، دون جدوي.
التفت يساراً، حيث تنبثق الشوارع، المؤدية إلى وسط المدينة، وعند
أحدها، قدر أنه يؤدي إلى شارعهم، انحرف.. لقي جنيته فريال فى
طريقه، التى احتلت مربعاً كبيراً. تطل من المحال فى الشوارع المحيطة
بها، البضائع المستوردة.. أقمشة ذات ألوان مختلفة. وأدوات كهربائية..
خلاطات وتليفزيونات، وسخانات، وعلب الشاي، والفواكه المحفوظة،
والشيكولاته واللبان، والأحذية.. خاصة الرياضية، المصنوعة، فى هونج
كونج وتايوان تقليداً للعلامات العالمية. قاده قدماءه إلي دكة حجرية فى
جانب من الجنيته.. وقد احتل الممر غير بعيد منه، كشك خشبي يصنع
الشاي والقهوة، لرواد هذه المحال.. الذين يستردون أنفاسهم على
الدك، ويدلق صبي جردل الماء الذي يغسلون فيه الأكواب فى الممر،
وعلي النجيل المنحول، وقد ظهرت تنوة القهوة، وتفل الشاي.

رفع رأسه ونظر... حيث الأشجار، لم يفلح الهواء، فى ذر التراب
عنها، فظهرت بقع على الأوراق الخضراء الداكنة، وثمة خيوط عنكب
،بين بعض الأغصان.

آه.. لو أعفته من الغداء، لن يستطيع بلع اللقمة، دون أن يعرف ما انتهوا إليه. وابتسم لأنه أوضح الأمر في ثنايا الكلام، رغم نظرات صفية الزاجرة، وقد جاءت زوجة شقيقها. انه استطاع تدبير مبلغ لا بأس به أثناء خدمته كضابط احتياط.

هل وصل ما قصده، أن مستقبله ليس متوقفاً علي هذه السفرة، وأنه يستطيع تدبر أمره. حقاً، لن يعود للتدريس كمدرس محاسبة في إحدى مدارس التجارة المتوسطة. لم يعد يستطيع أن يعيش بمرتب المدرس، بعد أن تعود على راتب الضابط الذي يفوقه عدة مرات. وهو ليس من هواة الدروس الخصوصية، وحتى لو أراد، فبعد هذه الغيبة الطويلة، كيف يخترق مناطق النفوذ، التي صنعها كل مدرس في مدرسته، أو في حيه.. وهل يستطيع أن يعتمد علي التدريس في مجموعات التقوية بالمدرسة. انخرط فيها مرة، أعطوه خمسين قرشاً عن كل حصة، بواقع ثلاثة جنيهات ونصف في الأسبوع، ثمن فنجان شاي في أى مقهي الآن، وربما أقل.

بان أولاد شقيقها من الفسحة، يلتقطون طرشة الكلام، واستحسن زوجة شقيقها كلامه، فانتشى، مقرأ أنها بلاشك تستطيع إقناع زوجها، الذي لم يعلق بشئ. في تلك اللحظة، لحظة الانتشاء، زغرت له صفية.. آه.. «ضربة نشوة».

كان تشكيل من الدبابات الإسرائيلية، بقوة سرية، متقدماً ببطء، وفاتحاً ليضرب، في محاولة لردهم إلى حافة القناة. وتلك اللحظة هي نقطة ضعفه، فأمر العميد جورج بتوجيه ضربة إحباط.

اقترح عبد السلام علي العميد جورج «ضربة نشوة».

- نعم يا أخي..؟!!

وتطلع إلي رئيس عمليات اللواء.

قال عبد السلام :

- قبل أن تصل الدبابات إلى مواقعنا، سأوهمها أنني فاتح بتشكيل

للهجوم، وعندما تطلق، ستصمت مدافعي، وستظن أنها فاجأتني بضربة إحباط، وسيخيل العدو أنه نجح، ويصاب بالنشوة، وأنتهز تلك اللحظة، وهي نقطة ضعف أيضاً، وألثف بقواتي الرئيسية من الأجانب، ونبذ القصف.

لمعت عينا العميد الحمر اوان، وتهلل وجهه، وقال وهو يتطلع إلي رئيس العمليات:
- والله فكرة..

وأطرق منتظراً رأي رئيس العمليات، أو ملاحظة أحد من أركان حربه. فجأة صاح:
- نفذ.

نظر رئيس العمليات محذراً، فارتبك عبد السلام في داخله قليلاً، وقد أحس بالخوف من اندفاع العميد، وفي الوقت نفسه، لم يهضم تماماً شدة حذر رئيس العمليات. واعتراه تردد.. تذكر أمر العميد المفاجئ له بالاشتراك في الهجوم على القنطرة. حقاً أربك دفاعات الإسرائيليين عند القنطرة شرق، من أحد الأجانب، وقد ركنوا إلى أنه نيران ثابتة. لكن من جهة أخرى حدثت ثغرة في تأمين عبور المهمات، لا يدري أحد ماذا كان يمكن أن يحدث، لولا أن تداركت الأمر وحدة مشاه، كانت تؤمن مؤخرته.

وتابع العميد:

- معك سرية.. أرني شطارتك.. وليكن في علمك، لو فشلت الضربة، لن تكفيني.. لا أنت ولا ناسك.

ضحك الضباط الموجودون، وقال أحدهم:

- ناسه في شبرا.

عادوا الضحك ثانية، وقد وصلتهم تلميحته، حيث أغلب سكان بعض حارات وشوارع شبرا من الأقباط.

عقب العميد :

- ولو.. يا «عجر».

وأمر رئيس العمليات، بوضع سرية أخرى من الدبابات علي أهبة الاستعداد، تحسباً لأي طارئ.

فتح عبد السلام تشكيله في أرض علي حافتها دبابات مدمرة منذ الأمس، وأخفى قواته الرئيسية خلف تبة قريبة. وصممت مدافعه في الوقت الذي قدره، وعندما تقدم العدو وأخذ في القصف، اتسع تشكيل عبد السلام لتشمل أرضه الدبابات المدمرة، لعل الأمر يختلط علي العدو. وعندما لاحظ من حركة دباباته أنها تتقدم في زهو، أرسل إشارة للدبابات خلف التبة أن تنقسم إلى جزئين، ويتقدم كل جزء من جانب. فوجئ العدو بالقذائف تحيط به.

هلل العميد، وأخذ عبد السلام في حضنه، وهو يقول :

- عفارم يا سلم.

وعلق أحد الضباط

- لعلهم يقتنعون باستحالة ردنا للخلف.

قال آخر :

- لا أظن.

أحس عبد السلام بزمة في الهواء، فنهض وهو يقول.. ليتها أعفتني من هذا الغداء.. وتذكر عندما ألح، نظرتها التي كادت تنططه. ثبت عينيه في عينيها، لتقلع، وهي لا ترمش، بينما يري وجهه في عينيها، بشاربه الأسود، وحاجبيه العريضين، وشعره القصير الزيتوني فوق جبهته السمراء العريضة، محرم، كان عندما يفتش علي ذقون الجنود في طابور الصباح، لا يرمش أحدهم.

تجاوز شارع التلاتيني، وقد طالعتة أرصفته بزهور صناعية، فاقعة

الألوان، وأغصان خضراء داكنة، وخرم باتجاه حي المناخ بالقرب من بحيرة المنزل، حيث بنوا عمارات شعبية مكان تلك التي أحرقتها البريطانيون في حرب 1956.

كانت ثمة بيوت قديمة، ذات بواك وشرفات عريضة خشبية. أخذ يتفحصها، خشية أن يضل. صعد السلم الخشبي حتي الدور الرابع والأخير. طرق الباب برفق، وهو يطمئن نفسه، أنه لم يتأخر عليها، متعجلاً الانتهاء من الغداء، لتوصيلها إلي باص الإسماعيلية، وليعرف منها ما انتهوا إليه. وسواء وجهت إليه ضربة إحباط، أو ضربة نشوة، فسيتحلي بالصبر، حتي يخرجها. فتح له أحد الأولاد، أسرعت صفية خلفه وقالت :
- تعال.



ألم تقل :

«أنت بالذات.. لا أريدك أن تزعل مني».

هل كانت تراعي شعوره، وقد أحست بما يفور داخله، أم أن الموقف فرض الكلمات علي لسانها. ولماذا لم تراع شعوره، حينما تحدث أحدهم علي المقهي، عن فيلم جميل في سينما قريبة، وحين نهض المتحدث لمشاهدة العرض، رافقته، دون أن تلتفت إليه. أحس ساعتها بالغيظ وكنتم في نفسه.. حقاً.. ولماذا لا تذهب.. هل بينها وبينك شيء بصريح العبارة..؟!

رجلا بنظلو به بللهماء الماء. حذاؤه في يسراه. زيد الماء أعلى ساقيه. وطل رذاذ الموج قميصه، فشفف والتصق ببطنه. نظر إلى يمينه، فأدرك أنه تجاوز المنطقة التي بها بيته، وقد ظهرت من خلفها ذؤابات أشجار الكافور والجازورينا، بأسطة ظلالاً هشة على الدور الواطئة.

كر راجعاً، ليغير ملابسه.

علي باب معسكر الهاكستب، كان لابد من خلع جميع الملابس، وأن يدخل الإنسان كما ولدته أمه. تركوا ما يحملونه. فأخذوه فوراً لإعدامه. نظروا جميعاً، لبعضهم بعضاً، وانفجروا ضاحكين. ليس من العري المفاجئ تحت أشعة شمس الظهيرة، وهم يدفعون بهم تحت أدشاش مياه ساخنة. وممنوع الخروج من باب الحمام، الذي دخلوا منه. ينتظرهم

عند باب آخر، جندي من قوة المعسكر، يناولهم ملابس جديدة، داخلية وخارجية، وحذاء وشراباً. كان ضحكهم علي هؤلاء الذين احتالوا، للحصول علي سجائر زملائهم في الأسر، حيث كانت العملية رائجة. واشتروا بها بطاطين، جديدة نوعاً، كان الحراس الإسرائيليون يسرقونها من المخزن، لينعموا بسجائرتنا، بدلاً من سجائر «العال» الإسرائيلية الرفيعة، التي يشحط دخانها في الزور.

وكلف المستأثرون ترزية من الزملاء، فصنعوا من البطاطين جاكطات بأكمام دون ياقات، وأخري دون أكمام أشبه بـ الصديري. وحين وصلت هدايا من مصر بها بيجامات، وغيارات داخلية وزنوبة وحلوى وسجائر اشتراها من فاضت معهم سجائر.

وزاد من ضحكهم، رؤيتهم لبعضهم بعضاً، يخبون في ملابس كاكية جديدة، فضفاضة، ليست علي مقاساتهم.

وكان لابد من المكوث في الحجر الصحي، عدة أيام، حتي يستوثقوا بخلوهم من أية أمراض. وجاءهم محاضر من قبل التوجيه المعنوي، وسرعان ما انهالت عليه الأسئلة..

تستفسر في حدة عما حدث في الجبهة في يونيو 67 وكأنه هو المسئول عما حدث. وأوسع الضابط من صدره، وهو يرد عليهم.. ولكن.. كيف يخفف عمن كانوا في الأسر.

في معسكر مؤقت في بئر سبع، محاط بالأسلاك الشائكة، مبذور على أرضه، كور من الشوك تشبه شوك القنفذ، وطلبوا منهم أن يجلسوا..

كانوا ما زالوا يتفحصون أنفسهم.. من نجا.. ومن فقد.. في الباص الذي أقلهم من سيناء، منعوهم من النظر إلى جانبي الطريق. فجأة يصيح ضابط في عصبية، مشيراً إلي أحدهم :
- أنت نظرت.

وسرعان ما تلتصق فوهة مدفعه فى رأسه.. فيتكوم مكانه، تسح منه الدماء.

وفى المعسكر، صاح الحارس الإسرائيلي :

- هل فيكم أحد جدع ..

.....

- واحد جدع ..

قام أحدهم، فقال له الحارس :

- قل أنا جدع.

فقال :

- أنا جدع.

عاجله بدفعة من رشاشه.

اشتدت حمية الشمس.. وأوشكت رؤوسهم أن تتقد، وإذا بضابط إسرائيلي يدخل إلي المعسكر. أجلسهم الحراس ثلاثات فى صف طويل. قال الضابط :

- بينكم ثلاثة فدائيين.. فليخرجوا.

لم يتحرك أحد. جاءت دبابتان، واحدة من أول الصف والأخري من آخره، وهرست كل منها ثلاثة أفراد.

زعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون..؟!

.....-

عاودت الدبابتان فعلتهما. وزعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون..؟!

نظروا لبعضهم بعضاً، يتساءلون بعينونهم عما يفعلون. خرج ثلاثة من الصف. أطلق عليهم الضابط الرصاص.

انتصف النهار.. ولحظ المحاضر، أن حدة لهجتهم، لم تخف.. فأخذ يحدثهم عن جميع فلول العائدين من سيناء غداة الحرب.. وإقامة دفاعات علي خط قناة السويس.

بعد المحاضرة صرفوهم حتى موعد الغداء.. وفي العصاري.. حين جاء موعد المحاضرة التالية.. تخلف بعضهم.. وسرعان ما تألفت عيونهم، ورفت بسمات علي الشفاه. بعد المغرب. كانت جماعات، تتسلل من تحت سور الأسلاك الشائكة المحيط بالمعسكر. وقد اتفقوا علي العودة في البكور، أو قبل أن يمضي النهار، لمن مسافتهم طويلة. لا يغيب عن ذهن حمدي، أبدا، هذا الألق الذي لمع في العيون، وقد توقعوا مفاجأة الأهل.. واستبد بهم فضول محرق، مبهج، وهم لا يعرفون بالضبط ماذا سيلاقون.

كانوا يجلسون في مقهي، على النيل في طلخا، أرادت صفية أن تمضي لتلحق بموعد خاص بعملها. استأذنت من حمدي، دون الجالسين جميعاً. لحظ ألقاً في عينيها، محملاً بالود. تباطأ في السلام مستمتعاً بال لحظة، فاحمرت وجنتاها، وزاد من غيه فهز رأسه نافياً السماح لها بالإذن، اتسعت ابتسامتها راجية، فطارت سداة نبع الحنان في داخله، ووجد نفسه تحتويها، ورأسه تومئ بالإيجاب.

كأنما كانوا نائمين، وصحوا فجأة.. وجدوا أنفسهم وسط أنوار القاهرة المتألقة. أقلته عربة جيش حتي تماس صحراء مصر الجديدة مع العمران مع اثنين من زملائه. حاول حمدي، إيقاف عربة أجرة، لتذهب بهم إلى موقف عربات الأجرة بين المحافظات. يشير السائق إلي عداده، الذي تلفه فوطة صفراء، إشارة إلى أنه خارج العمل. قال حمدي :

- لن يقف أحد لزبائن مقشفرة مثلنا
- قال أحد الزميلين :
- يريد زبائن.. فرادي.. ليأخذ من كل منهم ثمن التوصيلة.
- وقال الزميل الآخر :
- وتعلن الحكومة كل مدة عن بنديرة جيدة
- ضحكوا.. وعقب حمدي :
- العداد لا يؤبه له.
- قال الزميلان :
- كنا مستريحين..
- ضحكوا ضحكة ممطوطة. وأردف حمدي، ضاغطاً علي الحرف
- الأخير :
- لأ
- تشعبطوا في أحد الباصات المزدحمة حتي موقف «أحمد حلمي»..
- يتفادون بصعوبة دخول وخروج العربات.. ونداءات عمال الموقف :
- طنطنا نفر.. الزقازيق.. المنصورة.
- المنصورة.
- أشار أحد المنادين إلي جانب :
- عندك يا دفعة.
- قال أحد الزميلين :
- ممكن أنزل في ميت غمر
- تدفع أجرة المنصورة
- وهو كذلك.
- ركبوا ثلاثتهم، وسرعان ما اكتملت العربية. انطلق السائق وهم

لا يصدقون أنفسهم. هل حقاً هم فى مصر.. وينطلقون علي الطريق الزراعية.. وفي الطريق إلي بيوتهم.. حلم أم علم..!!
دمعت أعينهم تأثراً. لمحهم الراكب جوار السائق فى مرآة أمامه.
التفت إليهم:

- وحدوه.

- لا إله إلا الله.

- تصلون بالسلامة.

«من سيوصل عم عزيز». ما أن نطق اسم عزيز، حتي انفجر الواقفون ضاحكين، وقد غادرهم شعور بالأسى والترقب منذ بدأوا الرحلة فى البكور من عتليت، خشية أن يحدث ما يعطل رحلتهم. وقفت الباصات المحملة بالأسرى قرب الشاطئ الشرقي لقناة السويس. أنزلهم الحراس الإسرائيليون. حضر مندوبو الصليب الأحمر، لعمل إجراءات الاستلام. جاءت لنشات من الضفة الغربية لتقلهم. فجأة وجدوا عم عزيز حارس كنيسة فى القنطرة شرق بينهم :

- الرجال.. الأبطال.. يا مرحباً.

قال ريس أحد اللنشات مداعباً :

- نريدك معنا يا عم عزيز.

- لم يأن الأوان.

- دائماً تقول ذلك.

- ليس بيدي.

قال بعض العائدين :

- افعلها واركب معنا.

- بعد أن يمشي الكلاب.

تلفتوا حولهم فى اضطراب، مخافة أن يحدث ما يعطل الإجراءات.
بعض الحراس يجيدون العربية. نظروا لعم عزيز ولم يعلقوا. لحظ عزيز
ما اعتراهم، فأشاح بيده فى استهانة.

قال ريس اللش الذى ركبت فيه الدفعة الأولى :

- ألا تريد شيئاً يا مقدس.

- سلموا لى علي مصر.

وأعطاه بعضهم، مامعه من سجائر وملابس. بقيت من الهدايا المصرية
التي حملها إليهم الصليب الأحمر. نهاهم الحراس عن ذلك. وأخذوا
فى إطلاق الرصاص من رشاشات عوزي قصيرة المدى. اقتحم الواقفين
ضابط ملوحاً بمسدسه. لم عم عزيز حاجته، كأنه لا يراه ومشى نحو كنيسة
على مقربة. وقد بانت واجهتها المخروطية علي هيئة ثلاث ثمانيات،
الوسطى كبيرة. وتحت الثمانيات دوائر مكسوة بزجاج ملون، علقت
به الأترية. ولاح لراكبي اللش جانب من الكنيسة، ظهرت به خروم،
وتساقط البياض عن بعض الأجزاء.. فظهر الطوب الأحمر.

لكز حمدي الجالس إلى يمينه فى اللش، وأشار إلي عزيز قائلاً :

- الملعون

تطلع حمدي فوجده واقفاً بالباب الخشبي الضخم. لاحت قامته
الممصوفة، ولم يفلح جلبابه الأفرنجي الأبيض الهفاف فى إخفاء عظام
صدره البارزة. وقد انحنت رقبته قليلاً علي صدره، وهاشت شعيرات
رمادية فى مقدمة صلعته.. يحيط بها هلال من زغب أبيض.

لوح للش المغادر بإحدي يديه.. وباليد الأخرى يوزع ما لَمَه على
صبية ونسوة بدويات تجمعوا حوله.

لفت نظر حمدي، عدم وجود رجال وشباب. فأسر إلي جاره فى
اللش بملاحظته. قال :

- لحظت ذلك ونحن علي البر، سألت عم عزيز فأخبرني أنهم يعتقلونهم.

صافحت عيونهم البر الغربي. وأصوات طلقات الرصاص ما زالت تلاحقهم. وكان أخشي ما يخشونه، وتنطق به نظراتهم القلقة، أن يصاب أحد، أو يموت، وهو على وشك الوصول إلي بيته، وقد انتهت الحرب بالنسبة له منذ دقائق.

كان في استقبالهم ضابط برتبة لواء، ومعه ضباط برتب كبيرة. سلموا عليهم بحرارة، وكان الدمع يطل من عيونهم، لكنهم يتماسكون، بينما العائدون، لم يملكوا أنفسهم، فاغروقت عيونهم بالدموع، وقد صعبت عليهم نفوسهم فجأة، وتجمع ألم ثمانية شهور في الأسر في لحظة واحدة. حاولوا التخفيف عنهم بكلمات الترحيب، وحمداً لله علي وصولهم بالسلامة. قدموا لكل منهم علبه «جاتوه»، وعلبة بها شطائر كباب وكفتة، وزجاجة مياه غازية مثلجة.

وصحبوهم بسرعة، بعيداً عن شاطئ القناة. وكانت الباصات في انتظارهم في القنطرة غرب. ما أن يكتمل أحدها، حتي ينطلق. علي جانبي الطريق المسفلت حفر عليها شباك مموهة، وبداخلها جنود نصبوا المدافع، ويرتدون الخوذات، وعليهم شدة الميدان. نهض الجنود من تحت الشباك، ولوحوا لهم بالبنادق.

- حمداً لله علي السلامة.

- شدة وزالت.

لم يتعدوا كثيراً، عن القنطرة غرب، حين دوت طلقات المدافع. أخبرهم الجنود المرافقون، أن الاشتباكات عادت من جديد.

من طرشة الكلام، التفت السائق إليهم، كأنما ليتأكد أنهم بشر مثله.
تبادلوا النظرات، وعمهم صمت، جعل كلاً منهم يغرق في أفكاره.
ما أن صعدوا إلي الباص الذي أقلهم من رفح سيناء إلي داخل إسرائيل،
حتي أمرهم حارس بباب الدخول، بالهتاف : «يسقط ناصر».
تبادلوا النظرات، وتململت أيديهم في قيودهم خلف مقاعدهم. أطلق
الحارس دفعة من رشاش عوزي. مالت أجساد بعضهم على الكراسي،
وسالت الدماء على أرض العربة. قال الحارس في صوت أجش :
- يسقط ناصر.

خرج صوت بعضهم ضعيفاً :
- يسق.. ط.. نا.. صر.

توقفت العربة عند منعطف.. وصعد شاب غاضب في ملابس مدنية،
وفي كتفه مدفع عوزي. تصفح الوجوه، كأنه يبحث عن شيء، فجأة أطلق
دفعة من الرصاص. قال السائق وكان مدنياً، دون أن ينظر ناحيتهم :
- قريب له مات في الجبهة.
زقق الحارس :

- عاش السيد ديان (وزير الدفاع الإسرائيلي)
تفادوا النظر إلي وجه الحارس، وخيل إليهم أن أجسادهم تتداخل
في الكراسي. أطلق الحارس دفعة من الرصاص فوق رؤوسهم اخترقت
إحداها رأس الجالس جوار حمدي.
خرجت أصواتهم واهنة، فأطلق الحارس دفعة جديدة من الرصاص
وحثهم على رفع أصواتهم.
- يسق.. ط.. نا.. صر.
ولم يستطع أى منهم النظر في عيني زميله .

الرئيس عبد الناصر، الذي أحبوه، واعتراهم الحماس خاصة وهو يهدد ويتوعد في مؤتمر صحفي عشية حرب يونيو، زاعقا في صحفى إنجليزي أنه ليس خروعاً مثل إيدن رئيس وزراء بريطانيا.. وبعث صوته الواثق الحمية في أبدانهم وهم في معسكراتهم، وأنهم سوف يهزمون إسرائيل لا محالة.

فوجئوا بالدبابات الإسرائيلية تقتحم مواقعهم وهم من المشاة. وطارتهم طائرات المستير في صحراء مكشوفة، وأمطرتهم بطلقات مدافع الفيكروز، وليس في أيديهم سوي تسليحهم الشخصي من مدافع قصيرة المدى. وحاول من معه بندقية سريعة الطلقات الإطلاق على الطائرات. لكن انقضاضها أسرع، ودويها عند الاقتراب يصم الآذان، وينظرون بأسى إلي مدافع الميدان، غير مهيأة للعمل. كانت محملة علي المقطورات الخاصة بها، استعداداً للرحيل إلي موقع آخر. وهم بالأمس فقط حضروا إلي هذا المكان.

الأسطولان الأمريكي والبريطاني، قريبان من أرض المعركة، يوحيان بتكرار ما حدث في 56، مع فارق أن أمريكا حلت بدلاً من فرنسا، وحيث احتل الفرنسيون بور فؤاد، والبريطانيون بورسعيد، ومن خلفهما القوات الإسرائيلية في سيناء. وأذاع الرئيس الأمريكي تحذيراً بمغبة من يبدأ بالهجوم.

في يوليو عام 1882 وقف الأسطول البريطاني أمام ساحل الإسكندرية. أسرع عرابي لترميم طوابيها القديمة، وإصلاح مدافعها عتيقة الطراز، وكان مدي قذائف أغلبها، غير مؤثر علي السفن.

أرسل قائد الأسطول تحذيراً من مغبة العمل في الطوابي، لأن ذلك يهدد سلامة سفنه. وكأنما خشي الأدميرال أن يسأله أحد : ولماذا أتيت من

بريطانيا علي بعد مئات الأميال، أسرع بإطلاق مدافع بوارجه. اشتعلت النار في بيوت الإسكندرية، وأسرع الجنود البريطانيون إلي البر. وكان بعض القادة قد حذروا من وجود قوات بهذه الكثافة في سيناء، دون عمل، خشية أن تنتقل المبادرة إلى إسرائيل. وفي صباح السابع من يونيو صدرت الأوامر بالانسحاب.

- يسقط عبد الناصر

وصلت العربة إلي قرية ميت غمر. نزل زميلهما. ورفض السائق أخذ الأجرة. ودع حمدي زميله.. وغرق ثانية في أفكاره..

لا.. لم أهتف أبدا يسقوط ناصر.. كنت أحرك شفتي فقط.. كان الحارس في مواجهتي.. ربما يكون صوتي قد خرج ضعيفاً.. مجارة للظروف فقط.. وهل معقول أن أهتف بحياة ديان.. لا.. أنا متأكد أن صوتي لم يخرج أبداً. خرج.. لا أعتقد.

وعند أجا نزل زميله الآخر. حاول إعطاء السائق أجرة نفرين فأبى أن يأخذ شيئاً. اعتدل حمدي في جلسته، وحاول أن يفرد رجله.. يلازميني سوء الطالع دائماً.. عندما أنزل أعطيه أجر ثلاثتنا.. وغبط نفسه، لأنه احتاط وأخذ سلفة من مقصف المعسكر أكثر من زميله. وعند سندوب، على مشارف المنصورة، سأل السائق عن موقف عربته.. وهل سيدخل إلى المدينة عن طريق كوبري سندوب.. أم سيلف من المدخل الآخر. قال السائق :

- أين بيتك..

- بالقرب من ميدان الشيخ حسنين.

لف عجلة القيادة، ليعبر الكوبري، غير مصغ لكلامه ينهيه إذا لم تكن طريقه.

توقف عند الميدان. ناوله حمدي أجرتهم جميعاً فأبي.
- لا ذنب لك.

بكف السائق اليمنى أطبق يده علي نقوده، وهو يقول :
- عيب.

وجد نفسه وحيداً في الميدان، في مواجهته جامع الشيخ حسنين.
صامتاً. وتبعث من جنبات الميدان إضاءة خافتة، وقد أوشك الليل
علي الانتصاف. حركت ريح هينة أغصان أشجار الحديقة التي تتوسط
الميدان. طالعه نخلة قصيرة، ذات فروع عريضة. نخلة ملوكي لا تسمق
مثل النخيل العادي. وسط الحديقة عامود، أعلاه مصابيح عليها قبعات
زجاجية مصنفرة، مكورة، وبانت أوراق الفروع ريانة. بالتأكيد لا تقترب
منها الحشرات، فهي لا تثمر بلحاً يغريها. كان يحلو له قبيل الحرب، أن
يستريح مع بعض زملائه، جوار ثلة من النخيل. وكان السيناوية يحضرون
نملاً من الجبل يسمونه المقاتل. ويطلقونه عند جذوع النخيل. فيصعد
ليلتهم أعداء البلح من دود وسوس أحمر.

وحتى يقطعوا دابر السوس، أحضروا قططاً، لترشدهم إلي المسارب
المؤدية إلي جحور الفئران، حيث يحلو للسوس الأحمر أن يضع بيضه
فيها لتتم أطواره.



والمساء يضع عباءته، أحس حمدي لسعة برد خفيفة. اتجه إلى مقصف الفندق، حيث يحجز الزجاج عن البحر والهواء. مني النفس برؤية سمية. نظر في ساعته، وتساءل.. هل سلمت..؟!
رفع رأسه، فوجدها أمامه. ابتسامة، تخايل وجهها :
- أفندم.

تخلص من وقع المفاجأة، وقال :

- ممكن أعزملك علي حاجة ساقعة.

- ممنوع أثناء العمل.

إجابة لا تتضمن الممانعة.

- بعد انتهاء نوبتك.

- ممنوع في مكان العمل.

- مكان آخر.

- ماذا تريد.

- الكلام معك .

ضحكت وقالت :

- ماذا تريد أن تشرب

- أجيبني ينوبك ثواب

- عندك أمي

- ألا نتفق أولاً.

نقرت بالقلم على مفكرتها.. وأشاحت بوجهها :

- أسرع :

- شاي سكر خفيف.

وهي تقيد الطلب، انزلق قلمها الصغير من بين أصابعها، على الترابيزة، أسرع بمناولته لها، فتماست الأصابع. سري فيه تيار من دفء ناعم، مبطن برغبة مبهمه. رmqته بنظرة جانبية سريعة. أتراها تتساءل.. هل حدثت اللمسة.. بقصد.. أم صدفة. وهي تسحب النظرة، أحس فيها بدلال، واعتزاز، وتحذير.

أولته ظهرها. تأمل مقعدها المكتنزة. استعاد نظرتها ثانية، محاولاً، سبر أعماقها. عيناها صفراوان، بهما لمعة بنية، غير ما انطع فى ذهنه عنهما سابقاً، أنهما عسليتان. لا.. ليست اللمعة بنية، ولكنها فى اصفرار بلح أمهات، استوي علي أبيه، أشع فيه ألق الأنثى، فبدا أشبه باللون العسلي.

وبان له وجهها، أكثر استطالة، مما قدر سابقاً، وأمسى وجهها ولا يدري كيف، أكثر ألفة مما بدا سابقاً.. وأقرب إلى النفس.

أحضرت مضيضة أخرى الشاي، فأدرك أن سمية غادرت. لفت نظره أن جمالها طبيعي، دون مساحيق.

وبعدها معك..

رأيت فتيات راغني جمالهن، وعلمت أن بعضهن يهوديات. وكان بصحبتهن طلبة من كلية طب قصر العينى، يوزعون الصابون على الفقراء، ويتحدثون عن النظافة، حتي يمكن دفع الكوليرا، التي تفشت فى مصر، عشية حرب 48 فى فلسطين. والناس يرحبون بهم، ويقدمون الشاي.

سألت :

- من هؤلاء، ..؟

- شيوعيون.

البيت يعرف من عنوانه. لابد من محادثة الأم. لكني لم أحسم أمري بعد. ولا أريد أن أعد بشئ.

هل ستقبل الأم، خطوبة غير معلنة، فإذا حصل توافق، وثقنا العلاقة، وإذا لم يحدث، فهي القسمة والنصيب.

تردد.. هل يذهب أم لا..

تردد في الذهاب لتوديع حمدي، عندما غادرت في آخر باص ترك العريش مساءً. خشي النظر في عينيها خاصة وهذه ثاني زيارة لها، وكانت عنده من وقت قصير، وهو لم يحسم أمره. كل ما وعد بها أنه سيحضر في القريب. وعليها أن تبحث عن شقة بسعر معقول. لوت شفيتها، ولسان حالها يقول.. وهل يوجد سعر معقول..؟!.. غير المعقول لك، معقول لغيرك.

يا ناس.. هل أذنبت لأن راتبي لا يكفيني..؟! حصلت علي مؤهل عال.. وذاكرت وحصلت علي ماجستير، رغم الاعتقال والتجنيد والأسر، وحالياً أقوم ببحث.. ومن يدري.. أي بحث وأي ماجستير.. ارحل إلى بلد عربي.. حيث الأجر ضعف راتبك، اسم الله عليك، عشرين مرة علي الأقل. وتعال.. كون نفسك.. الآن.. على مشارف الخمسين.. وهل طلب منك أحد أن تضيق عمرك.. وتقول لي بحثاً.. آنست يا أستاذ بحث.

هل أريح نفسي، وأوافق علي زواج حمدي. وأحضر أمني لتقييم معي. سيقول الناس، ناسب لحام أكسوجين. وحمدي بصراحته المعهودة.. أنت لا تهتمك مصلحتي، كل ما يهمك ماذا سيقول الناس عنك. ونسيت أو تناسيت أننا أبناء مدرس إلزامي وأن عمك ميكانيكي.

ترك عمي العمل عند الإنجليز، مع باقي العمال الذين رفضوا العمل في معسكرات الجيش الإنجليزي بخطر القناة، بعد إلغاء النحاس باشا لمعاهدة 36 للصدقة مع بريطانيا. عينهم النحاس عمالاً في المدارس والمصالح الحكومية المختلفة، وطالب الإنجليز بالجلء عن قواعدهم في قناة السويس.

لماذا لا يترك العمال الفلسطينيون العمل في المصانع والمستوطنات الإسرائيلية. أم تراهم لا يودون أن يخيب رجاء بريطانيا، وهى التى عملت على إنشاء، إسرائيل، لتقيم فيها مصانع تعتمد على العمالة العربية الرخيصة.

فضل عمي العودة إلي قريته، جوار المنصورة، يفلح قطعة أرض صغيرة، ورثها عن أبيه.

حاول وضع الحقيبة فوق الرف. حالت المسافة الضيقة بينه وسقف العربدة دون ذلك. وضعها تحت مقعدها، وقلبه يرتجف خشية أن تتفوه حمدية بشئ يجرحه.

وضعت صفيه الحقيبة تحت مقعده، فى محطة الباص. وجرت تسلم على أصدقائها، ولم تقل له حتي خل بالك.

راقبها، وهى تتقل كالفراشة، قبل أن تبدأ رحلة إلي مرسى مطروح مع زملائها فى العمل. فكر أن يسلم وينصرف.

تريث، ولا م نفسه بعد ذلك. لاشك أنها انطلقت على سجيته، واثقة بأنه لن يغفل عن حقيبتها. لا. لا. يا ست هانم، لن أكون الحارس الأمين بعد ذلك.

- سلام يا حمدية.

وهي علي وشك الكلام.

- وحياة أبيك، لا تقولى شيئاً.

ضحكت، وتأملته بعينها الصافيتين.

وهو يغادر، طالعته، لوحة خلف مقعد السائق، عن آثار الأقصر، وبالخط العريض «نبح الحضارة». وتذكر النقاش الدائر فى بعض الصحف عن صراع الحضارات.. وهل هو صراع أم تعاون وتكامل.. وانبثق فى ذهنه مقال بهاء الدين عن تخلفنا الحضاري، الذي سبب الهزيمة. لهم حق يعالجونه فى مستشفى البحرية الأمريكية. عالجوا أم كلثوم فى نفس المستشفى، لا، هذه ضربة معلم، لينالوا شعبية على حسها.

وهل لهم حضارة، أولئك المجلوبون من شوارع أوروبا، ومتى عملوا حضارة، فى فلسطين، ولم يمض على هجرتهم إليها أكثر من عقدين أو ثلاثة من الزمان. غادر المحطة، وهو يردد فى سخرية :

فلسطين يفدي حماك الشباب.

فلسطين تحميك منا الصدور

قفز فجأة فى الهواء، إثر فرملة زاعقة من مرسيدس.

- فتح يا «أستاذ».

لم يتفوه بشئ وقد أصبح فى نصف ملابسه.

سارت العربية، وقد نفتت فى وجهه، دخاناً أسود. مرسيدس أربعة أبواب، وتعمل «بالجاز»، مستوردة من إسرائيل، ويقول بعض السائقين فى العريش، أن إسرائيل تعطيها لمن يطلبها مجاناً، فقط تعطيه جهاز تسجيل، ليسجل أحاديث الركاب، وأن يسلمها الشريط، كلما امتلأ. ترك الميدان، الذي تحرك منه الباص، ومشى فى الشارع الرئيسي، وقد

بدأت المحال والمقاهي، تنير أضواءها، مزينة غبشة المساء. أحس بأسى يتغلغل فى كيانه. لم يفلح فى إرضاء، حمدية، وقد جاءت تستنجد به. ومن قبل لم يفلح فى نجدة عم الهواري، معاشه لم يتجاوز اثنين وأربعين جنيهًا، بينما معاش المساعد أول الآن مبلغ وقدره، كتب له شكاوي، وكان الرد : أنت استقلت، وكان يقول له : هم فتحوا باب الاستقالة. وحاول أن يجعله يفيد من التأمين الصحي عندما اشتد عليه المرض، فاصطدما بعقبة الاستقالة مرة أخرى.

التقاء بعدها، لم يجده ميالاً للكلام، وقد تدلت شفته السفلى المكتنزة، واحتترقت قمحية بشرته، وفقد هيكله الضخم شدته، وانطفأت من وجهه اللمعة الباهرة، عندما كان يحكي عما فعله فى 73. فطن إلى كثرة العربات والمؤن، وخمن أن فى الأمر شيئًا. جمع من حول موقعه على ساحل البحر الأحمر، العلب الفارغة، والزجاجات المهملة، والمكسورة. فهذه الأشياء تعكس أشعة الشمس، وفى المساء تومض، إذا سلطت أضواء كاشفة، فيظهر الموقع.

أحضر تمويناً إضافياً من الوقود، لتشغيل مكينات الديزل، لمحطة الرادار. وضحك عم الهواري حين ذكر الضابط الذى قال أنه معين فى غرفة العمليات، ولا يريد أن يظل بالخارج. كان الإسرائيلون وقد ألقوا صواريخ صغيرة فى حجم الإصبع، تصطاد الأفراد. وعندما سقط صاروخ ضخم على باب الملجأ، طلب هذا الضابط أن يكون بالخارج.

انحرف فى شارع جانبي إلى يمينه، متفادياً المارة والمحال. تُرى.. ماذا قالت حمدية لنفسها عنه. وماذا قالت بنت الهواري عنه. أترأها لحظته

يوم السوق. وهو يداري نفسه منها خشية إخراجها وهي تبيع البيض . تنبه
إلي نفسه، وقد انبسط أمامه خلاء رملي يحيط حافة العريش الشرقية،
ولاحت على البعد أشجار عالية.

رفرف طائر في الجو. ما الذي أخره عن المبيت، ومعالم الأشياء
توشك علي الضياع.

مر الطائر في اتجاه الجنوب. هل بجناحيه مستطيلات سوداء صغيرة،
أم يهياً لي. وقدر جسده في حجم حمامة كبيرة. حاول أن يستعيد هيئة
منقاره، لكن مروره الخاطف، لم يجعله على يقين، وإن رجحه صغيراً
معقوفاً.

أتراه.. صقر الباز.

من مدة لم يره، أو يخبر عنه أحد. كان يتواجد دوما قرب الشاطئ،
يحميه من الطيور المهاجرة. هل تكاثرت عليه، فنزح جنوباً إلى جحور
الجبال.

هل عاوده الحنين، فخرج إلي الشاطئ أم طار يبحث عن شئ لصغاره،
ولما داهمه المساء، أسرع عائداً إلى أفراخه.



قالت صفيه :

- حفلة شاي، مقصورة على أفراد قلائل من كلتا العائلتين :
وقال عبد السلام :

- بعض الزملاء القدامي ..

- لست صغيرة، وليست أول مرة.

- علي الأقل اللواء جورج.

- لو بدأنا لن ننتهي.

- وحمدية.. من العائلة..؟!!

- زميلة، وأكثر من أخت..

- وماذا عن حمدي.. ألن ندعوه..؟!!

توهت فى الكلام، ومالت بوجهها إلى جانب، ونشع احمرار خفيف
علي وجنتيها. قال :

- أم زميل قديم.. سادعوها.

ألقت الطائرات قنابل عنقودية. قلنا : طائرات أمريكية. إسرائيل ليست
عندها قنابل من هذا النوع.

وحتى إذا زودوها بها على عجل أثناء الحرب، فهل يستطيعون
استخدامها دون معرفة سابقة. تنفرط القنبلة إلى كرات صغيرة، تشبه
كرات التنس. كل كرة إذا اصطدمت بأحد، انفرطت إلي حبات صغيرة من
البلي، كأنها طلقات رشاش، تنطلق فى كل اتجاه فى وقت واحد، ترشق
فى عدة أماكن من الجسد، يتهدل الجسم الحي، وينشق الدم، ويصعب

وقف النزيـف . كان هذا الزميل ، خبير مفرقات ، يجمع هذه الكرات برفق ، ويأخذها إلي حفرة بعيدة ، ويفجرها . ومن كثرة تـعوده ، اكتسب ثقة زائدة ، جعلته يمشي علي مهل . وذات مرة تعثر ، فاصطدمت كرة بجسده . لو ترك حمـله يتـدحرج ، لدمر الموقع كله . أحاطه بيديه ، وحـدب عليه بصدره ، وجري بعيدا ، انكفاً علي وجهه ، فدوي انفجار هائل .

اعترض عبد السلام علي إقامة حفل زواجه في شقة شقيقتها . بيت قديم ، ربما لا يتحمل ما قد يفاجأون بهم من حضور ، كما أنه لا يريد أن يضيق علي الرجل وعياله .

قالت في حزم :

- اتفقنا علي عدم عزومة أحد

- الأمر لا يسلم من مفاجآت .

كانت المفاجأة النقطة 149 ، وهم يقتربون من ممر متلا ، استولوا علي نقطتين حصيتين في أربعين ساعة تقريباً ، وهذه قاومت ، رغم قذائف المدفعية التي انهالت عليها . ومع أن أشعة الشمس مسلطة في عيون الإسرائيليين ، ظلوا يضربون . أحدث الضرب خسائر عالية في الكتيبة ، الجناح الأيمن ، لقوة عبد السلام فاروق . إذا استمر معدل الخسائر ، سوف تنكشف الميمنة . طلب قصفة مدفعية ثقيلة مركزة . كان له ما أراد ، ومع ذلك ما زالت النقطة تضرب عليهم ، كأن شيئاً غير مرئي ، يوجههم للضرب علي مواقعهم . وبمنتهى الدقة .

بينما هم في حيرة من أمرهم ، نبههم أحد الزملاء إلي نقطة المراقبة الدولية .. قال عبد السلام :

- أمعقول ؟! ..

- ولم لا ..

أرسل عبد السلام ضابطاً وبضعة جنود، للتحري. أخرجوا من في الموقع. أحد عشر ضابطاً كندياً، وضابطين إسرائيليين، وقد رفعوا أيديهم إلي أعلي. آه.. الضابطان يوجهان الضرب للنقطة 149. أرسلوا الجميع إلي الخلف، وفي المساء تقرر شن هجوم صامت علي النقطة بالمشاة فقط. التزمت باقي القوات الصمت طوال النهار، وبعد العشاء، تسللت وحدة من المشاة، وبعد ساعتين، أبلغتهم، استيلاءها على الحصن. ومن استجواب من بقي حياً، تأكد لهم أن الضابطين الإسرائيليين، كانا السبب فيما فعلته النقطة 149، وهي وحدة قيادة، بها أجهزة تكييف ولاسلكي، وأكثر من مئتي سرير.

لماذا تنشف صفية رأسها. لم يستطع أن يصدق أنها هي نفسها التي يراها في لحظات اللطف والصفاء هل يتراجع ولم يزل في مفترق الطرق. وهل هذا وقته. وماذا لو كان اللطف ليس ثوبها الحقيقي، وتنشف الرأس ثوبها الدائم. هون الأمر علي نفسه، أن الحياة من هذا وذاك. كان من المهم بعد احتلال القنطرة شرق السيطرة علي مفترق الطرق، أهمها الطريق الشمالية من القنطرة إلي العريش والطريق الموازية للقناة حتي بورفؤاد، وهذه المنطقة مهمة لإسرائيل لسيطرتها علي مدخل الاتجاه التعبوي الشمالي، ولحماية حصون دوريا وكتوبا وميلانو ومغربكيت، وعلي بعد حوالي ثمانية كيلو مترات، قوات احتياط لشن هجمات مضادة. في المفترق وقف ضابط يوجه القوات إلي خط السير. فجأة وجد عبد السلام قواته في الطريق إلي سهل الطينة، وهي أرض منخفضة سبخية، ممثلة بالمياه، تحدها من الجنوب منطقة رملية مسطحة، تمتد لمسافة عشرة كيلو مترات، صالحة لسير المركبات.

كيف لم ينتبه وهو الذي يحفظ أرض المنطقة جيداً، وعسكر في مواجهتها زمناً ليس بالقليل. عند بدء الحرب، تحركت قواته من قطاعه

غرب القناة، إلى القطاع المقابل في الشرق. وهكذا فعل الجيش كله. وبهذه السساطة لم ير الإسرائيليون أعداداً كبيرة، تنقل من مكان إلي آخر، استعداداً لشن الهجوم، وبالإضافة إلى ذلك كان الخبر مخفياً عن الجيش المصري، فكيف سيعرف به الجيش الإسرائيلي..؟!

توقف وتطلع إلي الخلف. القنطرة شرق رابضة علي مسطح من الرمال الثابتة، وأمامها شرقاً منطقة مفتوحة بها هضاب رملية صغيرة.

ذهب به الضابط إلي منطقة للقتل. استعاد صورته في ذهنه.. يرتدي ملابس مصرية ويضع شارة الشرطة العسكرية.. سرعان ما انهالت عليه القذائف، وجاء صياح العميد جورج في اللاسلكي :

- أين تتجه بقواتك..؟

فخ، ود لو يعود بسرعة، ليقبض على هذا الضابط، مؤكد إسرائيلي متسلل. تراجع بسرعة، محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أصيب جنزير دبابته ودارت حول نفسها، قفز منها، وطلب من القاذف أن يستمر في الضرب لحماية انسحاب باقي الزملاء. أسرع إلي دبابة قديمة تحرس مدخل أحد المعابر، سبق استخدامها في الحرب العالمية الثانية، قفز إلي داخلها، وأمر طاقمها بالتحرك. مدفعها يحتاج لمجهود في ضبطه، وباقي الأفراد يعترضون على انضمامهم لتشكيله، فالمدفع مداه لا يزيد على مئة متر، بينما الدبابة الإسرائيلية من طراز باتون ومدفعها مداه واحد ونصف كيلو متر، وفي العمر الأول، ويستطيعون إصابتهم بسهولة. وإزاء إصراره علي اللحاق بقواته، رضخوا له، بينما كان يصرخ في اللاسلكي، طالباً طلعة طيران. وعندما مرقت الطائرات فوق رؤوسهم، تنفسوا بارتياح.

تراجعوا إلي منطقة آمنة. وجاء العميد جورج يتفقدهم. كانوا واجمين، يقرأون الفاتحة على أرواح الشهداء. وقف إلى جوارهم، وفتح كفيه إلي السماء، يقرأ معهم.

وحين أنزل كفيه، تساءل.. هل بكر فى الدفع بسرية عبد السلام فاروق.
تغضن وجهه، وهم يتطلعون إليه. قال :

- من مات.. يرحمه الله.

وأشار بيده، فصعدوا إلى الدبابات. طلب قصفه مدفعية مركزة على
الحصون الإسرائيلية وعلي الطرق خلفها، ليقطعها علي الاحتياطي. وظل
متحفزاً، لا يطاوع نفسه، كأنما يؤكد لرئيس العمليات ولأركان حرب،
أنه تروي تماماً، قبل البدء بالهجوم. وعندما قدر أن الحصون ان عزلت
عما حولها، وأن الإسرائيليين قد طأطأوا رؤوسهم خلف مدافعهم، لا
يستطيعون رفعها، من شدة القصف، أعطي الأمر بالتحرك.
تظاهر بمطاوعة صفية وهو يغادرها، واعتزم فى نفسه دعوة اللواء
جورج، علي الأقل يحضر معهم قراءة الفاتحة.



فى الصبح الباكر، باءر أصحاب المحال بفتحها، ورفعوا الأعلام المصرية. وتخللت الأشجار مصاييح ملفوفة بورق سوليفان أخضر وأحمر وأزرق وأصفر، وتدلّت كرات فضية وذهبية، عكست أشعة الشمس الهينة.

وسرعان ما استيقظ سوق الخميس. افترشت السيناويات الأرض، وورصن أمامهن ثياباً بألوان زاهية، وبجانب سور مبني، قصير، علق بعضهم شماغات، عليها ثياب التدريب الرياضي. وفوق أفقاص من الجريد فرش أحدهم ملاءة، وضع فوقها زجاجات من العطور، مختلفة الأحجام، وعلباً من الكريم، لها علامات متعددة. وفي جانب فرشت سيناوية قطعة من الخيش فوقها كوم من اللوز السيناوي، صغير الحب، وأمامها ميزان، وغير بعيد منها جلست سيناوية أخرى، وأمامها أعشاب مختلفة.

بزغت الشمس أكثر، وبدأت تتخلي عن ستر لهيها، لكن السيناويات، لم يتخلين عن البراقع الحمراء، التى تنسدل فوق وجوههن، وقد أخفي مثلث من قصبة ذهبية أنوفهن، وإن برزت عيونهن السوداء، وجوانب وجناتهن المشربة بسمرة خفيفة. وتتوسط البراقع دوائر ذهبية. فى حجم قطع العملة الصغيرة، وتنتهي بثلاثة صفوف من نفس المعدن، مستعرضة، عند نهاية صدر جلبابها الأسود. المزركش، بطيور ملونة ترفرف، وعند الوسط حزام به دوائر زخرفية، بنسيج ملون، والكمان زرقاوان، من قماش فانلة، وبعض السيناويات يحطن رؤوسهن بمنديل من نسيج رقيق أسود،

يتدلي طرفه على صدرها، فيخفي جزءاً من زركشته، ويلف بوجنتيها، فيبرز البرقع أكثر. وعيونهن جميعاً، تناديك، وهن يتوقعن ألا تخيب رجاءهن. همس سعد للباشمهندس :

- عجبك شيء.

- والله ما أنا عارف.

رجاء أن تعرف، ودعك من ترددك.. الشتلة، إذا كانت علي وشك الإزهار، من الصعب لمسها من الأرض، وإذا زرعتها في مكان آخر، ستزوي وتموت. فإذا أردتها أن تصح فلا بد من نزعها بصلاية كبيرة من الطين حولها، والتربة هنا رملية، فإذا انتهت مأموريتي، هل ستوافق، وهل ستوافق أمها، أن ترحل معي، أم سترفض كما فعلت مع السكندري حين نقل إلي بلده.

يا عم، وقتها تكون صلاية من العشرة، وربما من طفل، ومن الألفة قد تكونت. عربة يد، عليها أقمشة وملابس وقمصان، مصنوعة في تايوان وهونج كونج، وعلى جانب من العربة، وضع البائع صورة كبيرة مبروزة للرئيس السادات.

وطالعتهم الأعلام الصغيرة، في جوانب العربات، ولاحت الكبيرة، مرفوعة على واجهات المحال، في ذكرى جلاء الإسرائيليين عن سيناء. كان يحلو له وهو صبي، أن يمشي مع أقرانه، في شارع السكة الجديدة بالمنصورة بعد الخروج من المدرسة، يغازلون الفتيات، ويشاهدون المعروف في واجهات المحال. وعشية إحدي الاحتفالات بذكرى 23 يوليو، ذكرى استيلاء الضباط «الأحرار» على السلطة، كان مخبر يسير ومعه خيزرانة. يخبط جانب باب كل محل، ويقول بصوت أجش : علق العلم. لا يجيبه صاحب المحل ولا ينظر إليه، كأنه كلم أحداً غيره، ويظل

المخبّر يتلكأ، وعيناه جامدتان علي صاحب المحل، حتي يعلق العلم على سارية تطل على الشارع، مائلة في جانب من باب المحل وفي اليوم التالي، حيث الرئيس عبد الناصر، سيلقي خطابه المعهود في هذه المناسبة، قبل العرض العسكري، الذي يسهب المذيع في وصفه، وفي استعراض قواتنا العسكرية، يطوف المخبر، مرة أخرى، ليتأكد أن الأعلام، مازالت مرفوعة، ويفاجأ الأولاد، أن أغلبها اختفي. يتراخم المخبر، حتي تعود الأعلام إلى سواريتها. ولا يدري حمدي، لماذا انسحب من لسانه، أمام أحد المحال، تجاهل صاحبه المطلوب منه، والمخبّر لا يتعتع، وقال : ليس عنده. ركب المخبر شيطان، وتخلي عن بلادته، ورفع خيزرانتة، التي طالط ظهره، وهو يقفز جارياً، يلاحقه زعيقه : وأنت مالك يا ابن الكلب.

جمع من النسوة، علقن أكلمة صوفية، صناعة يدوية، تمازج فيها البني والأصفر بدرجاتهما، راحة للنفس والعين. وضع راحته خلف، أحدها:

- صوف

- جملي وخراف.

قلب في حقائب مشغولة بمنمنمات من الخرز الملون. أمسك واحدة، وقد أشرق وجهه.

- من غير فلوس.

تمتم سعد، وحمدي يعرض عليها ما تريد من نقود دون مساومة :

- أخيراً

وأخذ من يده، إلي جمع آخر من النسوة، يعرضن عقوداً من الخرز والكهرمان الأحمر النقي، والفيروز، أخضر، فاتح وغامق، يشع بعضه بأزرق سماوي، ومجزع بخطوط هشة سوداء. وأساور معدنية. تناول حمدي إحداها وقال :

- فضة

- مطلية

وناولته، أسورة، وقالت :

-فضة، وقيمة.

تأمل حمدي نقوشها الرقيقة، متفهمًا، ومساومًا. ولفت سعد نظره
لأحزمة عريضة، مشغولة بالكانفاه فى أشكال زخرفية، مربعات ومثلثات،
وتتدلى منها خيوط من خرز دقيق أزرق وأخضر.

- بكم الحزام.

همهم سعد :

- يسمونه سيرًا

قالت المرأة :

-بما تأمر به.

ضحك حمدي، وقد لفت نظره أن أكمام هذه النسوة ليست من قماش
فانلة، ولكن من قماش أزرق وأخضر قاتم، عليها ورد أحمر وبمبي.
انتقى سعد سيرًا لندا، ولحظ تردد الباشمهندس فى الشراء، فأشار
إلى العقود. انتقى حمدي أحدها، ولحظت المرأة الجالسة أمامها شغفه،
فقالت :

- كهرمان، ليس له أخ.

- كم.

- من أجل خاطرك، سبعون جنيها.

هز رأسه معترضًا، فأخذت السيماوية تباهي بالعقد علي صدرها
وتقول:

- أحس من الذهب.
وإزاء، تردده، عرضت عليه عقداً آخر، سألتها مستكراً، وقد لحظ لونه
الفتاح :
- كهрман
- كباس، تلبسه المرأة بعد الولادة.
همس سعد :
- ليقىها من شر حاسد إذا حسد.
لوح المرأة بعقد من الفيروز أخضر غامق :
- يحمي من العين.
وأكمل سعد ضاحكا :
- ويفلق الحجر نصفين
لوح المرأة بعقد آخر من الفيروز أخضر فاتح :
- وهذا يريح القلب
تبادل حمدي وسعد النظرات، وأمسك سعد بالعقد، فعاجله حمدي :
- لك، أم لندا.
لم يلتفت إليه، وتطلع إلى السيناوية، فقالت :
- من غير فلوس.
أدرك سعد أنها ستهاون في السعر، وأمسك حمدي عقد الكهرمان
الذي كان أعجبه، ولوح به ناظرا إلي سعد، فطمأنه بإيماء من رأسه.
هبت نسيمات طرية من ناحية البحر، خفت من حرارة الزحام. وتخلل
الهواء أعطاف السيناويات، فانتفخت جلابيهن الفضفاضة من أسفل،
وتطايرت أجزاء من المناديل السوداء، التي تغطي رؤوسهن، وأجزاء من
صدورهن، فبانت الزخارف المشغولة بالخيط الوردي والأحمر، والأزرع
الأزرق والأحمر والأخضر.

وبان الخجل في عيونهن الكحيلة، وهن يلملن الأطراف.. وبدأت البائعات، والباعة، أقل شدة في مساومة المشترين، ولاحت، علي البعد، الأعلام، فوق الدور، وعمارات الفنادق العالية، وكأن الهواء، قد بعث في ثناياها أصداً ضحكات مرحة، فأخذت ترفرف، ممازحة، في بهجة وخفة.

عربة عليها بعض الدمى. شغل صاحبها عروساً، أخذت ترقص، وقد أفسح لها مكاناً، وتحلق الناس حولها.

كانت الدمى المحشوة بالقش، يتدربون عليها ب الطعن بالسونكي، وهم يصيحون «هع». كان سعد يزعم، ولا يأتي صوته خشناً. طلب منه الرقيب التكرار، وحين يئس منه، أشار لمن يليه، ليتقدم. لفت هذا نظر واعظ حضر إلي الكتيبة لمحاضرتهم. فاستأذن من الرقيب أن يستبدل به هع، الله أكبر.

طاوعه الرقيب، مرخياً ذراعيه إلي جانبيه. أشار لسعد، ونظر للواعظ، كأنه يريه ألا فائدة من الأمر.

صاح سعد : الله أكبر، ولم يصدق نفسه، حين سمع الرقيب يقول : أحسن. ويشير له أن يعيد الطعن.

الله أكبر فوق مياه القناة. الله أكبر فوق الساتر الترابي في الشرق وفي الغرب. كسب سعد وزملاؤه الرهان. أين الجندي لأخذ رهانهم منه. في البداية حدثت هرجلة، ثم انتظمت الأفعال.

المدفعية تضرب علي حافة الماء في الشرق، ما أن وصلوا، حتي ارتفع الضرب إلى الطريق، لقطع أية إمدادات إسرائيلية، ولم تلبث المدرعات البرمائية أن لحقت بهم.

الصيحة في أمر القتال : الله أكبر. قبل فتح الفجوات، كان أحدهم يتسلق الساتر الترابي ويقف أعلاه، ويدلي سلماً من الجبال، بين عقده،

قطع من الخشب يرتقيها الجنود. حامل المدفع الثقيل ينتظر، حتي يصعد باقي زملائه. يربط مدفعه أسفل السلم ويرتقيه ويجذبه من أعلي. يطوي السلم ويلحق بزملائه.

من مطالعتهم لوجه الجندي، حين حضرت عربة التعيين، عرفوا أنه أدرك خسارته لرهانه. ألقى السائق كمية من السجائر علي الأرض، وقال:

- نادوا علي المسئول ليوزع علي العساكر.

عبأوا جيوبهم بالسجائر، وخامرهم إحساس أنها ليست مناورة الخريف المعتادة. وهرب المراهن بعينيه من نظراتهم، حين أحضرت عربة أخرى، كمية كبيرة من الألغام.



خرج صفوت من بيته في عرايشية مصر. اتجه إلى محطة الباص، ابتاع جريدة، وفكر أن يتمهل قليلاً في مقهى فى الشارع الذي به المحطة.. حيث البواكى قد صنعت ظلالاً لبعض البيوت. وتناثرت أمام بعض محالها أدوات ومساحيق التجميل، وأقمشة وملابس من البرلون.. والجينز.. بركات بورسعيد هلت.. وكلها.. أو أغلبها مصنوع من ألياف مستخرجة من النفط.. تسرع العرب في إعادة ضخه.. وأصغوا إلي المسئولين الأمريكيين الذين طافوا بالعواصم العربية سرّاً، بينما فى العلن يصرحون أنهم يبحثون عن بدائل للنفط.. هل سيصنعون الملابس من رياح طواحين الهواء. وهل صدقتهم اليابان وأوروبا.. التى ارتعشت عندما خايلها شبح البطالة.. واحتمال الموت برداً من شتاء على الأبواب.

عدل عن الذهاب إلي المقهى وقال : البدرى بدرى. أظل رأسه بالجريدة، وصعد في الشارع المؤدي إلي خارج الإسماعيلية. وجد حاجزاً وضعه رجال المرور، ويحولون سير العربات.

وضعت الشرطة حواجز فى عرض الشارع أمام اللجنة الانتخابية ووقفت غير بعيد عربة الأمن المركزي، وبها الجنود بالمدافع الرشاشة، وكلما اقترب أحد من الحاجز، زعق به ضابط يحيط به جنديان، شهرا مدفعين رشاشين : بطاقتك.. أسرع.. لا نريد جمهرة.

ولما كنت لست منزوقا علي هذا، فقد عرجت إلي شارع جانبي ومضيت. وفي رأسى ما أذاعه التلفزيون فى المساء، ويذيعه عشية كل انتخاب عن ضرورة ذهاب الناس إلى صناديق الاقتراع، وأنه لشئ مؤسف

ألا يؤدي الناس حقهم الدستوري. وبعد الانتخاب، ينسى التلفزيون ما أذاعه، ويتحدث عن إقبال الناس علي الاقتراع، وحضور أكثر من خمسة وتسعين فى المئة. صعد إلي الطوار، متفادياً الحاجز، إلى يساره مجري مائي، لطف قليلا من الصهد الذي يبخه الأسفلت، وهبت نسيمات من أطراف بحيرة التمساح، خففت قليلا من حرارة الشمس.

وطالعتة علي البعد لافتة زرقاء، وسهم يشير إلي طريق القاهرة. وإذا لم تخنه الذاكرة، فبيت المقاول، فى ثانى شارع إلى يمينه.

دعا الله أن يجده فى هذه الساعة. سمع أنه فى حاجة إلي لحام بالأكسوجين. فإذا وفق إلي عمل معه، سوف تبطل حجة السيد حمدي.

ماذا يظن نفسه. هل سيصلح الكون. كان يحمل هم زيارته، لكنه أراد أن يقطع عرقاً، فنابته دروس فى الجغرافيا والتاريخ، ولا بد من إرجاع فلسطين عربية، يا سيدي الحكومة ارتضت السلام الآن، فما شأنك أنت. ومن سيصغي لك، والكل ملخوم فى البحث عن أكل العيش. لوح بيده وأكد: هذا هو الطريق لأكل العيش.

صمت يلوك فى ذهنه: مصيبة حارة هذا الرجل، هل سانتظر دون عمل، حتي يتم القضاء علي إسرائيل، بينما استمر حمدي: عندك العراق كان علي وشك خلع ثوب الدولة النامية، أقام بنيته الاقتصادية، وعنده رصيد كبير من الدولار وغيره، وسنوات قليلة، وتجده دولة متقدمة مثل فرنسا، فتحت له أمريكا بالوعة الحرب الإيرانية.. ابتلعت رصيده، وشبابه، ورصيد العرب من عوائد النفط. نظر إليه دهشاً، فأكمل: ألم تساعده الكويت والسعودية والإمارات، كل هذه النقود ذهبت لتجار السلاح فى الغرب.

وعندما سأله ما دخل هذا بنا، ضحك وتحدث، كأنما إلي ساذج، وقال: ألم تقرأ فى الجرائد عن ضغط الميزانية فى السعودية.. تصور

السعودية تتكشف، وبعد قليل تستغني عن العمالة الزائدة، وفي مقدمتها عمالنا. قال صفوت في نفسه : مالي وهذه المسائل، لقد جئت من أجل التحدث في خطبتي لحمدية، تدخلني في متاهات، ومحاولاً التخلص : علي أية حال مصر شيء آخر. وكأنما كان حمدي ينتظر هذه المقولة، قال : وماذا عن بالوعة حرب 67.. ؟. قال في نفسه : أنت فالح في الكلام، وخيبتكم قوية، وراغباً في إنهاء النقاش : يا سيدي.. الله يصلح حالك.. ماذا قلت..؟ تطلع إليه نافذ الصبر : قلت عندما توفق إلي عمل، وتحصل علي شقة، تعال نتكلم. هل سنتكلم ثانية..؟

وهو ينهض، داعبه حمدي ضاحكا : حبيبك بهاء الدين كتب من يومين، مشيداً بالغزو الأمريكي لبنما، وبأخذ رئيسها لمحاكمته في أمريكا. هل القانون الذي درسه يدعو لخطف الناس، والاعتداء علي سيادة الدول. حملق وهو يقول: عملهم وأخذوه، فعاجله : قصدك خرج عن طوعهم ويودون تأديبه. صمت وهو يقول في نفسه : ماله، بهاء الدين، كاتب وطني، وآراؤه يقدرها الجميع، عداك انت الذي لا يعجبك العجب. ولم يشأ التسليم فقال : رأيه، وقد يخطئ ويصيب، ولكنك لا تستطيع القول أنه باع نفسه لهم، الدور، علي من يبيع أرضه وعرضه. ولم يكن يدري أنه بذلك فتح بوابة الجحيم، فانطلقت الحمم : يا أبا جهل هل تعرف ماذا فعل الإنجليز في فلسطين، ولم يصنع لاحتجاجه أنه لم يقصد إلي شيء من ذلك، واستمر : أمر الحاكم الإنجليزي بزراعة محاصيل للتصدير وأعطاهم السلف لذلك. وبعد نزوح المحصول منع التصدير، فانخفض السعر، ولم يجد الفلاحون مالا لتسديد ديونهم، فبيعت أراضيهم بسعر التراب للجمعيات الصهيونية، وليته اكتفي بذلك.. باع وقف السلطان عبد الحميد، من أخصب الأراضي في غور الأردن، لنفس الجمعيات، وطرده

المزارعين الفلسطينيين منها.

هذا هو الشارع، بالتأكيد، دعا الله ثانية، أن يجده، حتي لا يشمت فيه هذا الحمدي. وطمأن نفسه، أن الرجل خبره جيداً، فإذا كان في حاجة لمثله، فلن يتردد. كان يستعين، به، عندما كان في سرية الحراسة، حين علم أنه فني، في بعض المهام، التي كان يحتاجها العمل في إنشاء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات. وانتقل مع شركته من موقع إلي آخر علي خط القناة، حيث تم صب ما يقرب من ميلوني متر مكعب خرسانة مسلحة ومليون ونصف خرسانة عادية، ورأي بعينه عمال شركات المقاولات والجنود ينقلون ما يقرب من خمسة عشر مليون متر مكعب من الأتربة، لإقامة سد ترابي في الضفة الغربية حتي لا يراهم الإسرائيليون، وهم يمدون مئات الكيلو مترات، من الطرق الأسفلتية، ومن الطرق الممهدة بمواد تثبيت للتربة.

ما أن يصب العمال القاعدة، حتي تحلق الطائرات الإسرائيلية في الجو، يسرع العمال إلي الملاجئ، وتطارد كتائب الحراسة الطائرات.. ما أن تختفي حتي يعود العمال.. ولم يكن الموقف يطاق عندما يسقط العمال، من قصف الطائرات.. ويضطرون لسحب الجثث تحت القصف، قبل أن تضيع معالمها. وذات صباح، ذهب ما أحسوا به من غصة، عندما لاحظوا أن الطائرات الإسرائيلية، فوجئت بحائط من صواريخ الدفاع الجوي.. لا ينسي هذا الصباح.. كانت الجرائد بالعناوين العريضة تعلن عن احتفال أول مايو بعيد العمال.. كان صباح الثلاثين من يونيو عام سبعين.. عندما سقطت ثلاث طائرات من خطاف السماء (سكاي هوك) والشبح (الفانتوم)،

وفي اليوم الثاني من مايو سقطت طائرتان وثلاث فى اليوم الثالث.. وتوالي سقوط الطائرات، وبدأوا يتحدثون عن تآكل السلاح الجوي.. ولكنه وقتها لم يحس بأهمية ذلك تماماً.. أحس بذلك حقيقة، عندما كان فى سيناء، فوق جبال سدر، وجاءتهم الأنباء أن إسرائيل، أعطت تعليمات لطياريتها بعدم الاقتراب من خط قناة السويس لمسافة خمسة عشر كيلو متراً.. ساعتها اهتز جسده بفرحة داخلية طاغية.

قال لصفية :

- متي تعيشين حياتك.. وتنجين طفلاً نفرح به وبك.
- صدقني.. لا ينقصني شئ.
- والسفرة التي ضاعت..؟!!
- لم أعد آسف لضياعتها.
- نظر إليها مدهوشاً، فقالت :
- هل يرضيك أن أرضخ لفكر من العصور الوسطى.. محرم..؟!!
- تفكر فى كلماتها ملياً، وقال :
- إذا كان الأمر خلافاً من وحي ساعتها، يمكن معالجته.
- وأكرر غلطة زواجي الأول.
- لم يشأ أن يضغط عليها أكثر من ذلك، خشية أن يضطرها إلى ما لاتحب، وخشية أن تفسر كلامه أنه يزحلقها لتخلو له الشقة، مع أنه أفهمها أكثر من مرة، أنه يعتبرها شقة العائلة.. وأخوها شقته فى بورسعيد علي كف عفريت.. ومن الممكن أن يفاجأوا به وبعياله فى أية لحظة. وتذكر عبارات، سمعها منها دون قصد. كانت حميدة عندها. وهو يرتدي ملابسها فى الحجرة المجاورة، والباب موارب.

- لم أحبه، ورضيت بقدري.

- لماذا تزوجته..؟!

- لأكون أماً.

وبعد فترة أكملت :

- لا أذكر يوماً، ربت علي كنفى، أو أراح ظهري علي صدره.

- مشاغل الحياة.

- أية مشاغل، لم نتحاضن أبداً في غير الجنس. هل تصدقين.. عذوبة

الجنس ليست في الوصول للنشوة، لكن في الإحساس بالحنان.

ويبدو أنها استشعرت وجوده فصمتت، وأحس هو بالخجل، وأسرع يكمل ارتداء ملابسها، وقد تعجب من كلامها، وهي الجامدة، التي لم تذرف دموعاً واحدة، يوم ماتت أمها، وود لو يحيط كتفيها بأحد ساعديه، ويشعرها بالحميمية.

أحس بالعطش. تردد في الوقوف عند ثلاجة أمام محل بقالة، ممناً النفس، أنه سيشرب بعد قليل تحية المقاول. وسرعان ما قال في نفسه : لا.. دائماً عندما أنتظر شراب المضيف، لا أجده، وإذا وجدته، يكون متعجلاً، المهم لأي سبب لا ينوبني شئ. وأصبح يتشاءم من انتظار هذا المشروب. فتح غطاء الثلاجة، ينتقي زجاجة مياه غازية ساقعة.

كان العمال يصبون إحدى القواعد الخرسانية، بعد فايد بقليل، في طريق السويس. تأخرت عربة الماء، والشمس تصبب الحمم. جس أحد المهندسين الرمال، بحثاً عن الرطوبة. دلهم علي منطقة غير بعيدة، يحتمل وجود ماء بها. كيف يمكن سحب بعض العمال، وقد اسودت جلودهم، وكاد يسقطهم الإعياء، للحفر، تحت نار الله الموقدة.

أطلقت دبابة من الضفة الشرقية قذيفة وصمتت. تطلعون بانزعاج. قال صفوت:

- لا شيء، تقيس المسافة.

ولمعت عيناه فجأة:

- أين الهيئات الهيكلية.

أسرع بعض أفراد الحراسة، وسحبوا بعض الهيئات.. دبابات خشبية.. باب ملجأ.. قاعدة مدفع مموهة بفروع من شجرة.. ووضعوها قرب الرمال الرطبة.

سرعان ما جاءت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية، رصدتها، ولم يأت أحد لضربها.

نظروا إلى صفوت، في خذلان، لكنه قال:

- غيروا من وضع الهياكل، وأضيفوا لها هيكلاً علي شكل قاعدة خرسانية، وعندما تأتي طائرات الاستطلاع، اضربوا عليها. أطارقوا وقد ملوا النظر إلى السماء، وإذا بالطائرات القاذفة، تلقي قنابل الأعماق.

راقبوا بقعة الرمال.. ولم يمض وقت طويل حتي فاض الماء. أظل صفوت رأسه بالجريدة، وأخذ يطالع البيوت، حتي تأكد من الباب.



سُر لا شتداد عود الشتلات قرب الحدود. وسُر أكثر لتنفيذ العمال تعليماته بالحفر أعمق لكنه ما زال علي غير يقين من سرقة الماء.

أحس بالظمأ. واشتاق نفسه لفاكهة مرطبة.. مثل البطيخ، أو الكانتلوب، تنعشه. ترك الأغوار إلي الشارع الطويل المؤدي إلي الشاطئ. لا يمل من مطالعة البيوت الواطئة إلي يساره، مقامة علي ربي رملية، تحيط بها أشجار أكاسيا، وتلمح من فرجات أسوجتها أشجار التين بأشواكها المشرعة. وكما تعود لم يחדش سمعه أى صوت، ولم يخيل نظره ظل لشيء يتحرك. ويكرر أمنيته : لو يعيش الإنسان في مكان كهذا. وتطلع ببصره إلي يمينه، حيث لا توجد مبان، وحيث تسلم حافة الشارع نفسها لرمال ممتدة، حتي سور الحدود. فكر أن يتجه إلي الشاطئ، حيث لا يري سوي آحاد الناس، وحيث المياه زرقاء عميقة. لم تطاوعه قدماه، وعرج إلي الشارع المؤدي إلي بوابة الحدود، ولا يعبر منها سوي المشاة، بخلاف البوابة الأخرى والتي يسمونها منفذ رفح وتعبر منها سيارات الأجرة والخاصة والشاحنات المحملة بالبضائع، وفيها جمرك. طالعه محال الفاكهة وبعض المقاهي علي الجانبين، أسفل بيوت لا يزيد ارتفاعها عن دورين، ووشت هيئتها بقدم موادها من الآجر والخشب.

أنعشته رائحة الكانتلوب، فجلس علي مقهي بالقرب منه عربة يد تحمله، وبينما يعد له العامل « البوري » ويحضر شايه، تطلع ببصره عبر امتداد الشارع. صدمته بوابة الحدود الضخمة. عالية بعلو السور الممتد إلي البحر من يمينها، وإلي ما لا يدركه البصر من يسارها وترددت عيناه

فوق القوائم الحديدية التى دُقت فى الأرض، وفوق شباك الأسلاك العنكبوتية الممتدة بينها.

جذبت انتباهه جمهرة عند البوابة. نهض لإشباع فضوله، متجاهلاً قدوم العامل بالبورى فى يد وبالأخري يلوح بمصفاة فيها جمرات، ليزيد من توههجهما.

اقترب من البوابة، نظر إلى البوابة المقابلة، يفصلها عن بوابتنا بالعرض طريق طويلة، ممتدة بامتداد السور، والجنود الإسرائيليون يمنعون امرأة من العبور، وهى تصرخ وتلّول. صاح جندي فى وجهها :

- ليش ما جئت فى الميعاد.

فجأة اصطدم طائر لقلق بشبكة السلك، أحدثت قوة الصدمة نزيفاً، وأخذ دمه يتساقط أحمر قانياً. وحتى لا يسقط أخذ يتشبث بفتحات السلك، ويخمشها بمخالبه.

تشبثت صفيّة بذراعى القريب منها، وأحسست بأظافرها، رقيقة ، مستجيبة، وكنت أليس قميصاً بنصف كم، فى جو صيفى طري.

اندفعت المرأة، فاعترضها الإسرائيلى ووضع مدفعه الرشاش بالعرض على بطنها، وشهر باقى زملائه مدافعهم فى وجوه جمهرة تجمعت ناحيتهم.

فجأة وجدنا أماننا مجموعة من الكلاب الضالة. كنا عائدين من سهرة عند أحد الأصدقاء وسرقنا الليل والكلام. وقفت الكلاب على بعد غير قليل. لمعت عيونها الفسفورية، وفتحت أفواهها نصف فتحة. بانت أنيابها، وأخذ لعابها يسيل. نظرنا إلى بعضنا بعضاً فى خوف، وزادت صفيّة من تشبثها بذراعى. قلت لهم : تجاهلوها واستمروا فى المشي.

رفر للقلق بجناحيه، محاولاً الطيران. نحت المرأة المدفع جانباً، واتجهت إلى طائر اللقلق. قفزت محاولة الإمساك به. عادت إلى الجنود

وأخذت كرسيًا، وضعته عند السور وصعدت فوقه. أخذت الطائر في حضنها، غر مبالية بالدماء التي خضبت بلوزتها البيضاء بزهورها الوردية المنمنمة. أحاطت الطائر بإحدي ذراعيها، وأمسكت بالأخري الكرسي. وضعته في غل عند الجنود. زادت من حذبها علي الطائر، وولت وجهها ناحية البوابة المصرية، وسارت بخطوات ثابتة.

كان لابد أن نمر بجميع الكلاب، لكي نعبر الشارع وإذا تراجعنا فسوف تطاردنا. سمعنا زوما مكتوماً، متحرشاً، باحثة، فيما بدا، عن تكئة لتتشب أنيابها في أجسادنا. حذرتهم من أى اضطراب، مدارياً رعباً في داخلي، وحين مررنا بالكلاب، زاد غرس الأظافر في ذراعي، بينما أحاول التماسك، والخطو بثبات. لو أحست الكلاب بلمحة ضعف، ستقضم علينا.

تخطيناها، فتنفسنا جميعاً بارتياح.

عبرت المرأة البوابة المصرية، ووضح أنها في عجلة من أمرها، اقترب منها حمدي، ومد يديه إلي الطائر. وقفت برهة مترددة، فطمأنها أنه سيذهب به إلي طبيب بيطري، في الوحدة عندهم، ووسد بيميناه زغب صدر الطائر النافر، ثم مسح علي ريشه الأبيض، العامر بالسواد في جانبي جناحيه، والتي نالت من زهوة سواده بقع الدم المتجلطة، والطائر يحاول في ضعف إزالتها بمنقاره الطويل، وحمدي يهدئ من حركة رقبتة الطويلة، محاولاً طمأنته. غادرت المرأة، فجأة دون كلمة، فتمتم أحد الواقفين.

- ربما لتلحق بأولادها.

تطلع إليه حمدي متسائلاً، فأردف الرجل :

- كثير من العائلات مقسمة، بين رفح فلسطين، ورفح سيناء. الأب يعمل هنا والأم بصغارها تسكن هناك أو العكس. من قبل لم يكن هناك مشكل، كانت كمدينة واحدة.. والناس تروح وتجي.. لكن الآن (وأشار نحو البوابة).

ترك ورقة مالية علي منضدة المقهي، ثبتها بطرف كوب الشاي الذي لم
يمسه، وأصبح كل همه أن يجد عربة، تسرع به إلي العريش.
حاول أن يزحزح الطائر إلي اليسار قليلاً، حتي يتمكن من إحاطته
جيداً بسترته، لكن هذا كان يتشبث بمخالبه في قميصه، وقد استراح لدفع
صدره، واستكان منقاره بالقرب من إبطه الأيمن. استعاد حمدي إحساسه
بلمس غرز الأظافر في ذراعه. ملمس أنثوي، منبه للذكور والرجولة،
أفصح عن ود دفين. تساءل : لعل ما دفعها لذلك هو إحساسها بخطر
مفاجئ، وليس في الأمر ود ولا يحزنون. ولكن.. لماذا أنا وكنا ثلة من
الأصدقاء. لعلني كنت الأقرب إليها أثناء السير.
وراح يعصر ذاكرته : هل كنت الأقرب فعلاً...؟!
أحس باستكانة الطائر، داعب ساقيه الطويلين الحمراوين، وضمه إلي
صدره.



وافقت ندا أن تجالسه، مدة قصيرة، فى طراوة العصرية. وها هو سعد، الذي ماصدق أنه نجح فى محاليتها، قد وقع فى حيص بيص، لا يدري أين يذهب بها، بعد أن اتفقا على اللقيا عند قلعة سليمان، بالقرب من البحر. اقترب من أطلال القلعة، بقايا أعمدة حجرية، زحفت الرمال بينها، صانعة تباباً صغيرة. اقترح أن يذهبا إلي مقهى أحد فنادق الشاطئ، وقد احتاط لذلك بسلفة عاجلة من الباشمهندس، لكنها تمنعت، فأغلب مرتاديهما من الأجانب، وقد يتعرف عليها أحد العمال.

- وماذا فى ذلك.. ألسنا..

أطرت بوجهها إلي الأرض، وقد وشت عيناها بفرحة غامضة. قالت فى خجل:

- لم نعد..

فكر فى مقهى صغير، اعتاده، فى حارة رملية، متفرعة من الشارع الجديد، أو حسب تسمية الباشمهندس، العريش الجديدة، وهو مواز للشارع الرئيسي، غربا، وقد حفل بالعمارات والمقاهي الحديثة والفنادق، وتخلت عمارته، عن النمط العريشي، حيث البيوت من دور واحد، أمامها باحة، محاطة بسور، تطل منه النخيل. والمقهى رواده قليل فى هذه الساعة، وهواؤه طيب، لقربه من الشارع الموازي للشاطئ. ما أن أبدي رغبته، حتى قالت مستنكرة:

- مقهى....

طرفت عيناها، وظلال الأعمدة، تنسحب إلي الخلف، ووشوشة البحر تتخللهما. تلقائيا جلسا على الرمال، وطالعتة براءة تغلف وجتيها،

وقد برزت ذقنها قليلاً، بياضها الأخاذ.. وعندما نظر في عينيها، طالعه السؤال. قال :

- قريباً أنزل مع الباشمهندس إلي الزقازيق، وليتك تمرين علي محال الأثاث بالعريش، لعل طرازاً يعجبك.

حركة يديها، كأنها تريد التخلص من كميتها الطويلين، وابتمت :

- وهل قلت شيئاً..؟!

- أقول يعني..

- ما تحضره سيكون جميلاً.

ود لو يحتضنها، ويقبلها، ويداعب ذقنها بأصابعه. نظرت إلي بعيد، كأنها تهرب بنفسها من أمامه. أمسك بكفيها، وهي تعافر.

- سعد.

- عين سعد.

صعدت ببصرها إلي السماء، تنبهه إلي بشارت المساء.

- لم أشبع

نهضت، فشبك ذراعه اليميني في ذراعها اليسري، وغير وجهتها إلي الشاطئ، بدلاً من المدينة.

اقتربا من البحر، صامتين، متناغمين، وأطراف الأمواج، تداعب حواف الشاطئ العريض الممتد تحت غلالة المساء الشفيفة وقد أطلت سعف النخيل وبعض الباسقات من الكافور من خلف البيوت الواطئة، المتناثرة علي حافة الشاطئ من الجهة الأخرى. بينما تنسحب بقايا الأشعة، وقد رقت، وازدادت الرطوبة، وتلاقت العيون. أحاط خاصرتها بذراعه جهتها، فاستطابت ليونة مستكينة، مدت يدها من الجهة العكسية، تزيج يده، برفق، فتشبت بها.

- وبعد..

- ولا قبل.

تفلفص فى دلال، وهو بذراعيه علي جنبها. كفاه أعلي ظهرها، وعيناها بثران من المودة والترقب. اختلطت الأنفاس الدافئة، وضغط أكثر، وقد تذوق رضابها.

أحس فجأة، أنه لم يعد وحيداً، وزايله إحساس باليتم، كان يعانيه. تملي فى عينيها، وقبلها ثانية. كفت عن الفلفصة، وقد تسرب الحنان عبر شفتيه، وبادلته حناناً بحنان. وصلا إلى الشارع المسفلت بموازة الشاطئ، طلبت منه فى خفوت، أن تمضي خشية أن يرهما أحد. استجاب دون قناعة داخلية.. ولم يلبث أن رجح ما ارتأته..

ربما رآهم أحد وأفسد الأمر كله، ألا يكفي أنه ليس من قبيلتها وليس سيناوياً، ووافق أهلها علي زواجها منه. فكر أن يذهب إلي الباشمهندس، لكنه لم يجد فى نفسه ميلاً للكلام، سار على مهل، مخلفاً القلعة وراءه. ولا يدري، لماذا بعثت صورة أحجارها، التي انطبعت فى رأسه، المنيا، ومقهاه فى شارع غير بعيد عن النيل. ينتقل الإنسان فجأة من الأبنية الحديثة والفنادق الملائى بالسياح، إلي مبان قديمة.. يظهر طوبها الأحمر من ظهورها، ومن واجهتها أحيانا دون طلاء بالأجر، والمقاهي البلدية بكراسيها المجدولة من سعف النخيل، والحرفيون وباعة سوق الخضر وعمال المحال التجارية، يدخلون المعسل، ويشربون الشاي الثقيل.

كان يحلو له بعد جلسة المقهي، أن يمشي علي النيل، حيث النجيلة فى مساحة عريضة.. عليها دكك خشبية، تحف بها الأشجار.. وأمامه علي الشاطئ الآخر، جبل، تتعاقب عليه الألوان، من رملي فاتح، إلي رملي داكن، مع حركة الشمس. والقوارب بين الشاطئين، وحين يصل الرجال إلي الشاطئ الآخر، يخفون بين شعاب الجبل. سأل أباه مرة، فضحك مبرزاً لساناً بين نابين صفراوين وقال :

- أرض مزروعة فى جوانب الجبل يوالونها.

كثيراً ما تمنى أن يعبر ويجوس فى الجبل. الدار أخذها الأخوال. رحمك الله يا أمي. ورحمك الله يا أم ميلاد، وماذا لو كانت عائشة.

الرحمة تجوز علي الميت والحي. كان لا يحلو لها وضع فرشتها إلا بالقرب من تراييزاتهم فى المقهى، الممتدة إلى جزء من الشارع. تعلق علي أحاديثهم، ويوصونها أن تحتفظ لهم بما يريدون من خضراوات. يشاكسها عامل المقهى، لتبتعد بفرشتها قليلا. تصعب وتقول :
- لا تتخير عنه.

يتساءلون متصنعين السذاجة :

- من ..

- وهل هناك غيره.. كلمة مسموعة ويد ملطوعة (تلطع عليها القبلات) وفلوس مدفوعة.

يغرقون فى الضحك، لأنورتها على القس، الذي لم يوفق بعد فى الحصول لها علي حجرة فى المساكن الشعبية.

ليتك كنت هنا يا أم ميلاد. عمارات المساكن الشعبية فى المساعيد لا تجد من يسكنها، لكن إلي متي ستظل العريش بعيدة عن غول الزحام.
يا سلام يا «غول» ..

فى صباح التاسع من أكتوبر نشط لواء مدرعات تدعّمه المدفعية والمشاة فى شن هجوم شامل، علي القوات الإسرائيلية لإجبارها علي التراجع. موهوا أماكنهم جيداً، وفي انتظار أوامر جديدة، احتدم القتال، وضغط الإسرائيليون ضغطاً رهيباً، أجبر القوات المصرية علي التراجع إلي وادي النخيل، لإعادة التنظيم لمعاودة الهجوم.

رأى سعد الدبابات يتصاعد منها الدخان، والأنفاز تجري. طلب منه قائد الفصيلة أن يوجه مدفع دبابته ناحية اليمين، وأي قوات تعدي، يقصفها.

استمع للأمر فى اللاسلكي ولم ينفذه، مر القائد، فاستشاط غضباً.
قال القاذف :

- لا شأن لي، سعد هو المسؤول ..

أخرج القائد طينجته ووجهها إلي رأس سعد، فقال :
- يا أفندم.. أراقب المعركة، والقوات الفارة من عندنا.
بدا القائد غير مقتنع، فطلب سعد أن ينادي قيادة اللواء أو قيادة الكتيبة
ليعرف الحقيقة. وبينما فوهة الطبنجة في رأسه، أخذ القائد ينادي :
- نعم يا «غول».. حول يا «غول» .
ولم يكذ القائد يقول : الجانب الأيمن، حتي سمع سعد من قيادة اللواء
: لا تقترب من جهة اليمين، فاسترد أنفاسه.
قرب الظهر مر قائد الفصيلة :
- ما اسمك
- عريف مجند خمسة مليون خمسمئة أربعة وعشرون سعد الدرري يا
أفندم .
- ما زلت تحفظ رقمك..
داعب شعر رأسه بيمناه، ومضى .



- قال حمدي أبو زيد :
- دخلنا في الجد ..؟!
- ابتسم سعد الدري ، وقال :
- عقيب لك .
- ضحك حمدي ، وأردف :
- من فمك لباب السماء .
- سأل سعد :
- ما رأيك .. هل نحضر الأثاث من دمياط ..؟
- قال حمدي :
- نكتفي بحجرة نوم ، ونلتقط طبقاً من النوع الأسيوطي ، أم اشترطوا عليك شيئاً ..؟
- قال سعد :
- قالوا : بيتك .. افعل ما تشاء .
- صمت حمدي قليلاً وقال :
- في البكور نظمئن علي الزرعة .. ونخلع إلي الزقازيق .
- ولم يعر دهشة سعد أهمية واستمر :
- هم أيضاً يحضرون العظام (هياكل الأطقم الخشبية) من دمياط ، ويكسونها ويدهنونها .
- قال سعد :
- لكن السعر يكون أعلي .

عاجله حمدي :

- دمياط مشوارها طويل ، فكر فى النقل والبهدة ، وكله بئمنه .
وصلا محطة الباص ، وهو على وشك الإقلاع . ولما كانت العربى
مزدحمة ، فكرا فى النزول . لحظهما السائق ، فطمأنهما أن بعض المقاعد
ستخلو عند المساعيد ، علي طرف العريش . المساعيد . هل كان حقا
عيداً بالنسبة لعمر و بن العاص ، وكيف يكون عيداً وقد وصله خطاب أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب ، ينصحه إن لم يكن دخل أرض مصر ، أن
يعود من حيث أتى .

هل أخفي عمرو الخطاب ، ودخل مصرًا واعتبر ذلك عيداً ، أم الصح
ما يردده العريشيون أن عمرو حين وصل إلى هذه المنطقة ، دون مقاومة
تذكر من الرومان ، قال لمن حوله : المساء عيد ، وأصبحت عبارته من
ساعتها اسما لهذا المكان .

مط حمدي شفتيه . اهتزت العربى ، وكاد يقع علي أحدهم ، لولا
تماسكه وسط الواقفين ، وقد لفحته أنفاسهم .
رفعت رأسى إلى سقف العربى ، فى طريقنا إلى رأس البر . كانت صفية
جوارى . ورغم الزحام ، لم يتلامس جسدانا . كيف كانت تحاذر ، رغم
الزحام ، وتتفاداني . لكنها لم تفلح فى منع أنفاسها ، أو لعلمها لم تنتبه إلي
ذلك . كنت متردداً فى البداية ، كمن يتلمس تذوق طعام لم يصادفه من
قبل . وسرعان ما تركت نفسي علي هواها ، وقد شعرت براحة ، ونشوة
غامضة .

- المساعيد .. النازل .

جلسا . من النافذة ، تأمل حمدي البيوت الواطئة ، من دور واحد ،
متباعدة وسط التلال الرملية ، تحيط بها النخيل ، مخففة من وحشة
الصحراء المترامية .

بالقرب من الطريق ، رأى حجرة ، منفردة مهجورة ، وقد زحفت إليها

الرمال من كل جانب . أتراها لملاحظ السكك الحديدية ، عندما كانت تمر من هنا قبل عام 67 . لماذا لم يمدوها ثانية .. ؟!

وصلا إلى الزقازيق ، وقد استتب المساء . لم يحبذ سعد أن يطوفا على المحال ليلا . فالتيقن من جودة الأشياء في ضوء النهار أفضل . ولكن أين المبيت . هل نشد عجلنا إلي المنصورة ، ونتحمل ساعة أخرى من الزمن ، أم نبحت عن أي خن في الزقازيق .

وصلنا الزقازيق ، وقد أفصحت الشمس عن هويتها . ركبنا بعض الشاحنات ، وطفنا في شوارع المدينة ، أعجبنى بحر مويس ، تلك التربة التي تقطع المدينة طوليا ، فوقها جسور صغيرة ، وثمة تربة أخرى ، متحاورة معها ومع الشوارع في تناغم وونس . والخضرة تحف بالترعتين والأشجار تتدلل عليهما ، وباعة الفاكهة والخضراوات يتشرون علي الشطآن والناس غير ملقية بالآ ، لهذا الجمال ، الوجوم ينضح علي وجوههم ، وتكاد الأسئلة تقفز منها :

هل سينجح البريطانيون في السيطرة علي بورسعيد ، ويتقدمون صوب الدلتا ، بعد أن أمن الفرنسيون ظهرهم باحتلالهم بور فؤاد ، أم سيواصل البريطانيون زحفهم للاستيلاء ، علي مدن القناة ، واحدة تلو أخرى ويشهد عام 1956 انتهاء حكم «الضباط الأحرار» . وفي الحالين ستكون الزقازيق مهددة . وهل سيتجاسر الإسرائيليون ، ويقتربون من حافة قناة السويس ، ام يقنعون بما حدده ، الإنجليز والفرنسيون لهم ، ويظلون قابعين خلفهم في سيناء .

ورغم هذه الأسئلة القلقة ، كنت تلمح همة واستبشارا علي وجوه الناس ، فقد أمنت شركة قناة السويس العالمية للملاحة ، وعربات الجيش ذاهبة وآتية ، في حركة لا تهدأ . ومنذ قليل خطب الرئيس عبد الناصر ، من فوق منبر الجامع الأزهر . . منهيا كلماته بـ : سنحارب . . سنحارب .

ونحن نهدر من فوق الشاحنات بأبيات لزميل شيوعى :

من خاف فى الصف يرمي بعار من خاننا سوف يلقي الدمار
لن نستجيب لصوت الهدوء إن الكفاح هو الانتصار
ونلوح بالبندق فى الهواء :

شعب الشمال وشعب الجنوب وحد أيادي ووحد قلوب
نرمي بها قلب مستعمر فالاتحاد سلاح الشعوب
عند الظهيرة ، وصلنا قرية أبو حماد . وجدنا متطوعين كثيرين سبقونا .
نظرت إلي الهواري ، وقلت :
- الولد سمير لم يأت .
أردف :
- ولا رجائي .
- أوهمانا أنهما سيحضران .. ضحكا علينا .
- لا تبال .. عيلان .

كنا سمعنا أن مكتب محام بحى الحسينية بالمنصورة ، يجمع متطوعين
للسفر إلى الجبهة ، فاتفق أربعتنا علي الذهاب .
رنة البشر والتفاؤل ، وأصحابها الوافدون من جهات شتي يتعارفون ،
خففت من مرارة ماأحسست به تجاه سمير ورجائي . وأهالي القرية
تجمعوا حولنا ، فانطلقنا نردد ، والفلاحون يحاولون مجاراتنا .

يا شعوب الشرق هذا وقت رد الغاصبين
فاركبوا الهول الشداد واصطلوها باسليين
طال عهد النوم فيكم والأعادي ساهرون
أنعيم وبنوكم في المنافي تائهون
شتتونا في المنافي واملأوا منا السجون
سوف تأتيكم ليال برقها حتف المنون
قادنا الفلاحون إلي قاعة أعدت لاستقبالنا ، مفروشة بالحصر . وجدت

الهورى قد سبقنا ، ووقف فى ركن ، يجمع فيه البنادق من الداخلين .
وقبل أن أسأله عما يفعل ، انطلق ضاحكاً :

- السلاحك .

جاوبته بضحكة عالية . فهو لا ينسى عادته فى أى مكان نذهب إليه .
أشار إلى ركن آخر وضع فيه بعض الجرائد ، وكتبنا ، لا أدري من أين
حصل عليها ، وقال :

- المكتبة ..!

أحضر الفلاحون وجبة بسيطة ، على حد قولهم . خضرة ، جرجير
وفجل ، جبن وحلوي طحينية ، عيش مررح ، مفروود ، طري ، يسيل
اللعاب .

اختارنا فندقاً متواضعاً ، قريباً من محطة السكك الحديدية . طالعته
أنوار النيون البيضاء ، منبعثة من محال الحلويات الشرقية . اللديدة
المصنوعة من المشور العريض لجوز الهند ، وأقراص الشكلمة الصغيرة
من المشور الرفيع لجوز الهند . ومحال الفول والطعمية ، ذات الروائح
الحريفة . ومحال الفاكهة وقد صفت حبات البرتقال واليوسفي فوق
مدرجاتها الخشبية الهرمية . تداولا فيما ينبغى شراؤه أولاً ، وهل يأكلان
علي المقهي ، أم يأخذان زادهما ويصعدان إلى الفندق .

قال حمدي :

- الخبز أولاً .

رد سعد :

- لن تجد خبزاً بلدياً الآن .

بعد أن لفا فى بعض الشوارع ، وقفا أمام فرن أفرنجي . عند الحساب
وجدنا سعر رغيف الفينو عشرة قروش . لم يستطع حمدي أن يحفظ
لسانه :

- معدل .. ولا محسن .

رد الرجل :

- خارج التسعيرة .

ضحكا ، وقال سعد :

- أي تسعيرة يا حاج .

نكس الرجل رأسه ، وانصرف إلي بضاعته . تمت حمدي ، كأنما يكلم نفسه :

- من قرش إلي عشرة .. والبلدي من خمسة مليمات إلي خمسين .. ! حدث هزة في الشارع ، تجاوزت أصداؤها في البيوت والحارات . وعلت الفرحة وجوه الناس . سألت أمي . أخذتني في حضنها .. أطلقتني برفق وقالت :

- النحاس رخص الرغيف .

وسرعان ما جاء أبي متهللاً ، ليزف البشري ، فوجد أمي قد عرفت . جريت إلي الشارع ، أتقافز مع الأولاد ، ولم نتفق علي لعبة معينة ، كما تعودنا ساعة العصاري . واستطعنا أن نلتقط من أفواه الكبار ، أن رئيس الوزراء، خفض ثمن الرغيف من ستة مليمات إلي خمسة ، وقلت في نفسي ، لن يربك المليم أمي وهي تحاسب أبي عما أنفقت من العشرة قروش ، التي يعطيها لها مصروفًا يوميًا للبيت .

لم يجدا في الفرن كيسًا بلاستيكيًا ليضعاه فيه الخبز . نزع حمدي الصفحة الأولى من جريدة كانت في يده . شد عيونهم عنوان بالخط العريض : الحكومة تشدد رقابتها علي المتلاعبين في وزن رغيف الخبز . سارا صامتين حتي وجدا مقصفًا مازال ساهرا ، نظر حمدي إلي سعد وفجأة :

- ها .. ها ..

- ها .. ها .. ي ..

ومعاً :

- ها .. ها .. هاى .

اشترى بيضاً مسلوقاً ، وكيساً من المخلل وطعمية . سارا بجوار بحر
مويس ، وقد غشتها الظلمة . سمعا خفيف جناحي طائر . تطلع حمدي
إلى أعلي وقال :

- يبدو غراباً ..

- معقول .. ؟!

الغرابان اختفت من زمن ، ولكن أحد أنواعها ، لمحتة فى مكان
مهجور، علي شط البحر ، لعله تسلل ، بحثاً عن طعام . وغالب ضحكة
وهو يقول :

- يهوي بيض الصقور .

جاوبه سعد ضاحكاً :

- نقبه علي شونة .



- بالمرّة .. نشترى الدبليتين .

نظر حمدي إليه مستطلعاً . أخرج سعد من جيبه فتلة بيضاء ، ناولها له .
وجد علامتين متباعدين بالكوبيا ، ففهم أنه أخذ مقاس إصبع ندا . حاول
لفها علي إصبعه ، فاعترض سعد :

- من فضلك ..

لوح الجندي الإسرائيلي بالرشاش المعلق في إحدي كتفيه ، وبأصابع
يده الأخرى تحسس دبلة فضية في إصبع لي . تعلق ببعينه . وضع يده
علي صدره ، مكوراً ثديي امرأة . هزرت رأسي إلي أسفل . ربت الجندي
براحة يده الهواء إلي أسفل ، بما يعني وجود أطفال . أبرزت له أربعة
أصابع . ترددت أصابعه علي الدبلة ، برهة ، تاهت فيها روعي . ألقي بيدي
جانباً . تنفست ، غير مصدق . دبلي عادة تعصلج في إصبعي . ولن يجد
حرجاً ، مثل غيره ، في قطع الإصبع ، وأحياناً قطع اليد كلها ، وإذا انبثق
نزيف ، فرصاصة في الصدر أو الرأس ، تنهي كل شيء .

قال حمدي :

- ليتك أحضرت ندا ، تشتري بنفسها ، وفرصة لنزهة معاً .

تفسحنا في النيل أمام رأس البر . القمر يفرش أشعته فوق الماء ،
والدراويل تتقاذف حول المركب مداعبة . نمد أيدينا إلي الماء ، فتغطس
رؤوسها ، وتعاود الظهور . أخوتي وأصدقاء لنا يتسامرون . عينا علي

عيني شقيقة الهواري . أحس بجاذبية خاصة لسمارها وجسمها اللدن .
«أنا قلبي إليك ميل» . ظللنا جميعا نحاول اكتشاف ماهية الصوت الجديد
الذي أعلن عنه المذيع منذ لحظات . «والبهجة أنت فرحتها ، والفرحة
أنت يا حبيبي حلاوتها وابتسامتها» .

- كلمات جديدة .

- اسمها

- فائزة أحمد

زحفت ساقى القرية منها ، تتحسس سمانة رجلها المجاورة لي ،
حركت ساقها قليلاً ، دون أن تلفت نظر أحد ، أو .. تنظر في وجهي .
نزلنا من المركب ، ومشينا في الطريق إلي اللسان . هذا الطريق
الخرساني ، على يمينه النيل ، وعلى يساره موج البحر الأبيض المتوسط .
والرذاذ يناغي وجوهنا ، وأحياناً موجة تقل أدبها ، تصفع سيقاننا وتتطاوّل
إلي الأفخاذ وقد تطايرت الفساتين ، تتعالي صرخات البنات ، ويحاولن
تفادي الموجة ، فنلتصق بعضنا ببعض .

ووجهها يقارب وجهي ، والرذاذ يغمرنا ، وهواء النيل والبحر ، في
أول الليل ، ينبت في أجسادنا أجنحة ، تحمل قلوبنا وأرواحنا ، إلي بهاء
ورحابة الأفق ، الحادب علي البحر ، ويتلاشى قوس التماس في غموض .
وثمة أشعة بيضاء ، تظهر وتختفي .

لحظ الهواري حالي ، فألمح لي : علي سنة الله ورسوله .

ذهبت إلي بيت الهواري . شككت في الأمر . عدت إلي اللافتة الزرقاء
المعلقة في أول الشارع من جهة سوق الخواجات ، عليها بخط أبيض
شارع علي محمود طه . قالت العجوز في محل البقالة في المواجهة ، لما
كان ، من الناحية الأخرى من الشارع :

- وقع من زمان .

وأخبرتني أنهم ذهبوا إلي مساكن الإيواء . عمارة وسط المساكن الشعبية ، في أحد أطراف المدينة . احتلت النسوة المدخل . هذه تنقي أرزاً، وتلك تقمع بامية ، وأخري تطرقع بلبانة ، ويلكن فى الحديث، تأملنني بعيون جريئة ، ولم يجبن بسهولة ، مررت من بين أرجلهن ، وأنا فى نصف ملابسي ولم أكد أرتقي السلم ، حتى اصطدمت بالأطفال يلعبون .

قادني أحد الأطفال إلي ممر طويل ، ضيق ، علي جانبيه أبواب مخنقة . وقف الطفل أمام أحد الأبواب وتركني وجري . طرقت الباب .. لم يجبني أحد . صفقت بيدي وأردفت :

- يا ساتر .

أطل وجه امرأة شابة

- جماعة الهواري

- في الآخر علي اليمين

كانت الحجرة بجوار الحمام . بالقرب منها وقفت شابتان ، بينما شاب يخبط باب الحمام، مستعجلاً من الداخل . مرقت فتاة من الحمام كالسهم ، قاصدة الحجرة . طرقت الباب ، فجاء صوتها :

- وبعدها معكم .

تنحنحت ، وقلت:

-لو سمحت .. ؟!

واربت الباب قليلا . كانت القوطة تلف شعرها المبلول ، وقطرات من الماء تتساقط من جبينها .

- ماما موجودة .

- أترك عنوانك ، وعندما تشفي
 - يا آنسة .. افهميني .
 - خلاص .. شف لك غسالة أخرى .
 - أنا زميل الهواري .
 اضطربت الفتاة ، ووسعت من فتحة الباب ..
 - لا مؤاخذه .. تفضل .
 وجسدها لم يزل يعترض فتحة الباب ، حتي جاءت أمها . ما أن رآته
 حتي نهزت الفتاة وهي تنحيها عن الباب :
 - اخص عليك .. ألم تعرفيه .. كنا جيراناً .
 - كانت أيامها طفلة .
 زغدت الفتاة صبيهاً ينام علي كنبه في الحجرة لتوسع مكانا ..
 - لا تؤاخذنا يا بني
 طالعتني على الحائط ، المواجه لى صورة لعبد الوهاب وأم كلثوم ،
 وقد مال كل منهما إلي الجانب الخارجى للإطار من أعلي .
 ياه يا «هواري» ..
 لا أذكر هل كنا أمام باب الدرجة الثالثة لسينما عدن ، أم لسينما ركس .
 والأولاد يدفعوننا بعنف ، والرجل بالباب الحديدي لا يريد أن يفلتنا من
 الفتحة الضيقة ، إلا إذا تحقق من التذكرة . وبعض الأولاد لم يطبقوا
 صبرا ، فقفزوا فوق الرؤوس ، بأقدامهم ، وحشروا أجسادهم بيننا وبين
 الباب الحديدي ، لينزلوا ، والهواري يزاحم بيد ، وبالأخرى رفع صورة
 عبد الوهاب وأم كلثوم التى أعطاهما له بائع التذاكر ، مقابل المليمات
 الباقية من ثمن التذكرة ، وكانت من نصيبي صورة أعضاء «مجلس قيادة

ضباط يوليو». وبعد أن دخلنا وأخذنا مكاننا علي دكة خشبية في طرف من القاعة، لوح الهواري بصورته ، ووشت عيناه بالانتصار ، وقد رأي ما بقي في يدي من مزق الصورة .

كثيراً ما عنفت نفسي لقيامي بهذه الزيارة ، ما كان يصح لي أن أراهم على هذا الحال . لاشك أن ذلك ألمهم ، ولكن ماذا كنت أفعل .. أليس من الخسة أن أنقطع عنهم وقد ذهب الهواري ..؟! تري .. هل أنقذت سنة الله ورسوله شقيقة الهواري ، من هذه المعيشة..

عزمت صفية علي الذهاب إلي رأس البر . قالت : وان شاء الله علي السنة المطهرة..! دلقت فوقني جردلاً من الماء ، وأخذت أتساءل .. هل أردت من خلالها ، استعادة نشوة الحب الغض ، أم أملت أن تؤجج الذكريات حبي لها .

ماذا لو هاودنتي ، ومشينا معاً علي اللسان ، وجلسنا علي أحد المقاهي المنتشرة علي النيل في الطريق إليه ، والمطاعم تسوي الكباب في أسياخ فوق فحم متقد يشع بالاحمرار .

وفي الجانب الآخر ، المقاهي والمسارح ، وباعة الفيشار والسوداني ، بعرباتهم الصغيرة ، يتصاعد دخان أبيض من مداخنها . وباعة الحللي الرخيصة ، أساور من العظام ، ملونة ، ومن القشرة الذهبية . والمناديل مختلفة الألوان ، أطرافها موشاة بالترتر الذهبي والفضي ، عندما كنت أري مندبلاً مثلها يلم شعر شقيقة الهواري ، كان قلبي يطب من فرط ما أضفاه عليها من أنوثة ، وما يشع من حيوية وجهها ، التي جعلته محمراً ،

شمس الصباح عند البحر ، وقد تقشر جلد رقيق أبان البياض تحته أعلي وجنتيها ، وزاد من سمرة ما حوله أعلي ذراعيها .

وهمسات ، يحملها نسيم المساء الطري .. عبد الوهاب يجلس فى مقهي الجندول . الممثلة فاتن حمامة تجلس فى مقهي أبي طبل وحيث يقدمون الفطير واللبن ، ومعها الفنان عباس فارس . هل سيغني عبد الوهاب الليلة . حضر للتصيف وليس للغناء . فى مسرح المقهي المجاور يعرضون رواية جديدة . لمَحَت الممثل زكي رستم . أنظر من هذا الجانب لتراه . فى المقهي المجاور استعراض ، رقص شرقي وغناء . أسحبها من إحدى يديها ، تطيعني ، نبص علي عبد الوهاب ، وأحياناً الممثل يوسف وهبي .

طافا شوارع الزقازيق ، وعبرا الجسور ، فوق بحر موبس ، والشرقاويات ، البيضاءات ، بملابسهن السوداء الطويلة ، تتلعبط أجسادهن داخلها ، وزاد الكحل علي الجفون من إبراز بياض أديم العيون ، واسوداد النبي . وعصبن رؤوسهن بالمناديل السوداء ذات النسيج الرقيق ، وتدلّت من آذانهن أقراط علي رسم أهلة كبيرة ، ذات ألوان فاقعة . وهما يدلّفان إلي محل جواهرى ، سأل سعداً :
- أحببتها .

تطلع إليهم بعينين ، تغنيان عن أي بيان .
« أنا قلبي إليك ميال » . عزمتهما علي فطيرة عند أبي طبل . الفطيرة الممتازة ، المحشوة بالزبيب والمكسرات بخمسة قروش ، وشوب اللبن ، بخيره ، يينج ، بثلاثة قروش .

قال حمدي :

- هل سنحبس بالشأى بعد العشاء..؟!!

- ولوح بجنيهين ، من طرفيهما بين سبابة وإبهام يمناه وقال :

- باقى الورقة أم عشرة .. وفى كلام فارغ.. عيش وطعمية وبيض..!!

كانت أُمى دائمة الشكوي من تصاعد الغلاء . وحكت لنا عن البيضة

التي كنا نشترىها ونحن صغار بسبعة مليمات ، أنها كانت تشتريها وهي

طفلة بمليمين . كثيرًا ما ضحكنا منها ، غير مصدقين أن تكون الأشياء بهذا

الرخص . وهل سيصدق أولادنا أن بيضتنا بخمسة عشر قرشا .

- قالوا : الثمانينات بداية الرخاء ، ما هى أوشتك علي الانتهاء . قالوا :

بعد السلام مع إسرائيل سيعم الرخاء .

تطلع حمدي وهما يسيران إلي مياه بحر موسى الغامضة . وتساءل ..

أين التربة الأخرى وتذكر ترعة أم الجلاجل فى المنصورة وسوق الثلاثاء

جوارها ، والذي كان خاليًا طوال الأسبوع حيث يلعبان كرة القدم . وترعة

البحر الصغير ، وتسابقهم فى الماء وبلبطة أولاد الحي وهم يعلمونهم

السباحة ، وقد أصبحتا شارعين مسفلتين .

كانت عربات النقل تسرع فوق الأسفلت بجوار بحر موسى ، وهم

فوقها ، ينشدون :

لكل شجاع إلي الانتصار مضى فى ثبات إلي حتفه

سلام يزلزل قلب الطغاة يحطم من ليس يحيي به

سلام عليكم رفاقاً أباه ومن جاد منكم بأنفاسه

سلام يقيم بناء الحياة نعيم الملايين فى ظله

لمحت شقيقة الهواري خارجة من محل . أحسست ولست أدري

كيف أنها تداري نفسها مني . وقفت في طريقها . ارتبكت خطواتها .
وقفت مستسلمة . ابتسمت ، فاستعدت ما كان منها ومني في لحظة .

- سعيدة

- يعني

لحظت أن ملابسها ، ليست ولابد ، فخجلت من نفسي .

- لماذا هذا بالذات .. ؟!

غادرت عيناها وجهي ، فأحست بالحرج ، وندمت علي تسرعني
بالسؤال .

طال اعتقاله ، وكانت الدنيا أيامها مظلمة ، أو ربما حاولت الهرب
من مساكن الإيواء . لكن مع من .. مع فاشل في تعليمه ، يخب في ركاب
، أحد مقاولي هدم البيوت وبيع أنقاضها ، وكثيراً ما تعرض لسخريتنا ،
وكانت هي من أوائل الساخرين .

نظرت إليها وقد حز في نفسي . لماذا أوقفتها .. لماذا .. ؟!. دخلت
بيتي ، ولم أكن فعلت منذ شهور . ذهبت لأشعل البوتاجاز . فتحت باب
الفرن .

عدة فئران غضة ، تحرك أعضائها الرفيعة بالكاد ، صنعت لها أمها
حضانة من ندف القطن .

وقف مدهوشاً .



لملمت الشمس غزلها الرهيف من فوق البيوت ، ومن رمل
الحارات ، وألقت به فوق مياه البحر . تغطس به حيناً ، وتطفو به حيناً ،
والموج يداعب القرص الأحمر . يرتفع ويرتفع حتي يكاد يغطيه ..
فيستبدل بخيوطه فى ذهبية لون القمح ، خيوطاً من سكر غزل البنات ،
المشيع بالاحمرار .

يرتفع الماء .. وتحول الشمس وجهتها ، لتنشر خيوط غزلها فى مكان
آخر من العالم .

وسعد قد هياً نفسه ، ليطلب إجازة يومين لندا ، وحين شرع فى الكلام ،
سبقه حمدي أبو زيد :

- غدا ، سنبداً حملة لمدة أسبوع لإزالة جميع النموات أسفل سيقان
الخوخ .

استبوخ سعد ، أن يفتر من حماسه ، وقد استطالت سيقان الخوخ
واشتدت .

ومن قبل ، حاول إثناء ندا عن الإجازة ، لعلمه بما يتتويه الباشمهندس ،
لكنها أصرت . تحدث أخوها تليفونياً من بالوطة إلي خالها فى العريش .
عندهم حملة لتحصين الأغنام ، ضد مرض حمي الوادي ، وفي حاجة
لها .

- ألم تخبريني أن أخاك فى المدرسة .

- يترك الأغنام ترعي فى البكور ، ويذهب إلي المدرسة وبعد خروجه
يكمل يومه معها .

- ومتي يذاكر .
- وهو معها .
لم يجد ما يقوله فاستمرت :
- حين كنت فى سنه ، لم تكن فى بالوظة ، أو بالقرب منها أية
مدارس .
أمسك إحدي يديها ، فتركتها وهى تقول :
- أمى عجوز
- ومالك .. والغنم
- كنت راعية ، قبل أن يلحقنى خالى فى هذا العمل بعد وفاة أبينا .
حار ، كيف يقنع الباشمهندس .
- أقول يعنى ..
- لا تقل شيئاً .. وبعد هذا الأسبوع سنعمل رشة باللندين ضد ذباب
الفاكهة .

علق سعد :
- وهل هنا ذباب فاكهة .. ؟!
تفكر حمدي ملياً .. وقال :
- نسأل .
- أقول يعنى .. أستأذنك فى إجازة يومين لندا .
انتفض حمدي :
- هذا وقته ..
- ظرف طارئ .
- الطارئ عندنا

وومضت عيناه بألق فرح ، واستمر :
بعد نزع الزائد من ساق النبات ، وترك عدة أفرع منتقاة ، نكون حددنا
هيكل الشجرة مستقبلاً .
عز علي سعد ألا يجاريه ، ولكن ماذا يفعل وقد وعد ندا . لم يجد بداً
من شرح الأمر ، فتفكر حمدي قليلاً ، وقال :
- أمرنا لله . . يوم واحد فقط .
عاجله قبل أن يرجع فى كلامه :
- وهو كذلك .
خبأ حماسه ، وتطلع إليه بعينين مترددتين .
- ماذا ثانية .. ؟!
- العربة .. أوصلها وأرجع ، حمامة .
أطرق حمدي ، رفع رأسه وقال :
- أنا لم أقل شيئاً .
وقف سعد متردداً فزغده فى صدره :
- ماذا تنتظر .. ؟!
لحظ العميد جورج أديب ترددهم ذات مرة لحظة الهجوم فصاح :
- الله أكبر يارجال .
فصاحوا جميعاً :
- الله أكبر .
بعد الهجوم ، اشتكوا له من قائد التشكيل ، فقال :
- تعرفون المطلوب منكم .. تصرفوا حسبما يمليه الموقف عليكم .
تقدموا لاحتلال تبة القيادة فى القطاع الأوسط . أصر قائد التشكيل أن
يصعدوا راكبين العربات المدرعة ب ك . رآهم قائد يحتل تبة مجاورة ،
فتحدث مع قائد التشكيل تليفونيا .

علموا أنه أخبره أنه ليس ضرورياً أن تركب قواته كلها المدرعات ، ليقفل من الخسائر ، فرد عليه : أقتحم راكباً كما فعل جنرالات الحرب العالمية الثانية . وحين قال له الموقف مختلف ، لم يرد عليه . لاحظوا أن فصيلة من قوات التبة المجاورة ، تشغل جانباً للإسرائيليين من ناحيتها ، فقدروا لقائدها صنيعة ، فقد خففت القصف علي القوات المهاجمة . كانت كتيبة سعد هي التي ستقوم بالجهد الرئيسي ، وباقي القوات أجناب لحمايتها . هجوم بطريقة المروحة . ثبتوا كتيبة ، وتحركت أخرى نصف حركة ، وشرعت ثالثة في التطويق .

انشغل الإسرائيليون في الرد علي الجانب الذي فتح النار . لحظ جانب آخر الموقف ، فخفف عنهم بفتح نيرانه . ومع ذلك لم يتمكنوا من احتلال التبة . غيروا في مواعيد الهجوم هاجموا ظهراً ، وفي آخر ضوء ، وأخيراً في أول ضوء في صباح اليوم التالي . ولم يتم لهم احتلال التبة إلا في المساء .

وكانت عربة القيادة ، وبها العميد جورج أديب ، تتقدمهم . وكانوا يطلقون عليها : الأديبة . الأديبة راحت . الأديبة جاءت . فجأة تعثر جنزيرها في لغم . توقفت العربة ، ويدو أن الإسرائيليين هرشوها ، لكثرة الهوائيات التي تتصاعد منها ، فركزوا مدفعيتهم عليها . أمر قائد التشكيل فصيلة سعد ، أن تتقدم منها ، وتقدم تغطية بالنيران ، حتي يمكن إخراج من بداخلها . تقدم سعد بدبابته . وضع المعمر الدانة ، جري المقذوف ، نصف الخرطوشة في الداخل ونصفها في الخارج . ماذا جري . . وكان الإطلاق جيداً منذ الصباح . لو أبلغ سعد قائد الفصيلة سيقول : لماذا لم تفتش علي ذخيرتك قبل العملية . وهل يستطيع أن يقول له أنهم لم يناموا من عدة أيام . لن يجدي أي اعتذار . وحتى إذا وجد دانة ملققة ، متى كان سيرجعها ، وأين . . ؟! آه . . لا وقت لمثل هذا الحوار . فلو أبلغ قائد

الفصيلة قائد التشكيل ، سيوقع به أشد العقاب ، خاصة ، وثمة شكوى فى حقه منذ قليل . تناول المعمر دانة أخرى ، ودفع القاذف بكعبها الدانة الوافقة ، جرت الدانة وانطلقت . عمر دانة أخرى .

سعد يعد : ألف وواحد ، واثنان ، وثلاث وأربع وخمس . وثبت بالدبابة حتي يطلق القاذف . نفس المشكل ، أخذ سعد يناور بالدبابة ، سائرًا بسرعة ستة كيلو مترات فى الساعة ، ليتيح له الفرصة للضرب ، والمفروض أن يسير بسرعة خمسين كيلو مترا ، ليتفادي القصف الإسرائيلي ، وليلحق بعربة القيادة . أبلغهم قائد الفصيلة أنهم تأخروا فى الضرب . فالمفروض أن يطلق الدانة فى حوالي خمس ثوان . قال سعد : عطل بسيط يا أفندم وتم التغلب عليه . مصيبة لو غررت به الدانة الثالثة . بم.. تراخ .. وتنفس طقم الدبابة براحة .

تقدمت الفصيلة بتشكيل رأس سهم ، ونظراً لاشتداد القصف الإسرائيلي ، أمرهم قائد الفصيلة ، أن يتقدموا فى شكل «زجاج» ، خاصة وقد لاحظوا أن طائرات إسرائيلية تحوم فى الجو ، تود التدخل فى المعركة .

إشارة عاجلة من العميد جورج إلى الدفاع الجوي : احذروا الطيران المنخفض .

فهموا أنه يطلب منهم ألا يلتفتوا إلي الطائرات المرتفعة ، كانت علي ارتفاع يزيد علي عشرين كيلو متراً ، وترسل عادماً أبيض ، لشد الانتباه ، ولتستجلب الصواريخ ناحيتها ، وهي غير مؤثرة عليها فى هذا الارتفاع . وفي نفس اللحظة تظهر طائرات علي ارتفاع منخفض جداً ، حتى لا تراها شاشات الرادار ، فلا تكاد الصواريخ تنطلق من قاعدة ، حتي تدكها علي الفور . ويبدو أن الإسرائيليين أدركوا من عدم استجابتهم للعادم الأبيض أنهم لم ينخدعوا ، فلم يرسلوا طائراتهم المنخفضة .

اقتربوا من عربة القيادة، فأمرهم قائد الفصيلة أن يأخذ التشكيل رأس
سهم معكوس.

رئيس العمليات ، أصيب بشظية فى ظهره ، حملة أحد الضباط ،
وأراحه علي الأرض ، بينما العميد يصيح :
- تقدموا يا رجال

شملتهم حالة من اللامبالاة بالقذائف التى تترى حولهم ، وتقدموا ..
استولوا على التبة الحصينة . وجدوا ثلاث دبابات إسرائيلية مدمرة ، وكذا
بعض المدافع . أخذت قذائف الإسرائيليين تنحسر شيئاً فشيئاً . وانتبهوا
لرئيس العمليات المسجي على الرمال . وجهه أسمر ، مشرب بخيوط من
الدماء ، وتنشع من فودية ومقدمة رأسه شيبة خفيفة ، أضفت عليه هيبة .
ولم يجسر أحدهم علي الاقتراب منه . يرفضون تصديق موته .

أمر قائد السرية ، بحمل الجثمان إلي التبة . أقاموا له قبراً أعلاها ،
وأطلقوا اسمه علي التبة . بعد وقف إطلاق النار ، رفضوا نقل الجثمان
من مكانه . حضر قائد الجيش الثاني وحدثهم برفق .. وأن الجثمان من
حق أهله .

وافقوا بعد لأي . احتفظوا بشاهد فى مكان استشهاده ، وغرسوا حوله
بعض النباتات الصحراوية .



وردت إشارة :

أغلق الإسرائيليون قبل رحيلهم آبار المياه ، يرجي العمل علي إعادة فتحها . والتأكد من صلاحية مائها للاستخدام .

أربعون بئرًا . كيف أجد وقتاً لإعادة فتحها . ولعل بعضها قد فسد ، أو هربت المياه منه . اقتربت العربية من رمانة . طالعته خضرة أشجار متناثرة ، حينا ، وكثيفة ، حينا . وبقع من الأرض معشوشبة . وبيوت بين منخفضات الرمال ، تحيط بها أسوجة من سعف النخيل ، جارت عليها الرمال ، وجارت الشمس ، فتغير لونها إلي ما يشبه البني المؤكسد . وبيوت فوق الربى ظهرت شبابيكها ، بألوان خضراء وزرقاء ، باهتة . ولاحت مدرسة علي الطريق ، جوارها أبنية ، مخروطة السقوف ، أغلب الظن ، حظائر سيارات ، ومخازن لمواد بقالة أو زراعة . لمح مقهي علي الطريق ، أعد بشكل ، كما حدث نفسه ، يسمح باستقبال السائحين أو أصحاب العربات الخاصة وما أكثرها الآن علي الطريق .. باحة عالية ، تصعد لها بعدة سلالم .. وترايزات متناثرة .. فوقها مظلات ملونة ، مثل شماسي الشواطئ .. وراديو يبعث أغنياته .

طلب من السائق أن يركن ، التماساً لشئ من الراحة ، ولكوب من

الشاي ..

آه .. لو هفت نفسى وقتها لكوب من الشاي ، لعددتها مجنونة . فقط
جرعة ماء .. جرعة .. ! .. فقط بلّ اللسان المشقق بقطرات ..
لسعتنا الشمس .. لسعتنا .. !؟ .. شوتنا .. أحرقت جلودنا . رأينا أمامنا
صفا من الدبابات الإسرائيلية ، لا يقل عن الأربعين ، يعني كتيبة ، العسكر
فى حالة استرخاء ، أطل بعضهم من أبراج الدبابات ، وآخرون قفزوا منها .
وعربات مؤن اقتربت ، ومساعد كرشه ساقط أمامه ، وذقنه ، نبت فيها شعر
أبيض . التف حوله العسكر . ناولهم زجاجات مياه غازية ، فيما أحسب ،
وقطعاً من الشيكولاته ، وعبوات من البسكوت . وحين زادت الجماهرة ،
خلع القايش ، وطوح به فى الهواء ، وهم زائطون ، غير مبالين .
زادت رائحة الشيايط ، ونحن ميتون فى جلودنا ، فى خنادق مبعثرة
علي جانبى الطريق المسفلت ، العاري من أية مبان ، فقط ثمة أخصاص ،
من جريد ، متناثرة بين كثبان من الرمال ، وأمعز ، تنبش فى الأرض .
- قنبلة يدوية يا عالم .

وتذكرت ما تدربت عليه عام 1956 ، قنبلة فى البرج ، وأخري فى
الجنزير ، دبابة فى الأمام وأخري فى الخلف أو الوسط ، وتتعطل الكتيبة ،
ويصبح أفرادها فى متناول بنادقنا الآلية ورشاشاتنا .

حانت منى التفاتة لزملائي فى الخندق . منكمشون خشية أن يلحظوا
وجودنا . وحين سمعت أصوات تحركهم ، أغمضت عيني بشدة ، واهتز
جسدي ، وأنا أتخيلهم قد عملوا مربعاً ناقصاً ضلعاً ، حول أحد مواقعنا ..
وآين يوجعك ..

فى الطريق إلي العربة ، انسابت .. «أنا قلبي إليك، ميا» .. رفّت

روحه، خضراء، غضة ، فى نشوة بكر ، ود لو يعود إلي كرسيه ، لكن نظرة
إلي السائق الذي سبقه ، جعلته يتبعه .

- اقتربنا من بالوظة .

- علي وشك .

طالعت خضرة ، وشجر ، ومبان جديدة ، ومدرسة .. لا .. اثنتان فيما
أظن . وتساءل فى نفسه ، لماذا هذه المنطقة مشجرة هكذا . هل نسبة
المياه الجوفية أكثر . أم أن فرع النيل القديم كان يمر من هنا ، وترك غريناً
احتفظت به الرمال ، وترك ماءً فى الأعماق .

ماذا كان يجري لو إسماعيل خديو مصر ، أو من قبله محمد علي ،
أراحني أحدهما وحفر ترعةً هنا، تضاف لما حفره من ترع كانا يفاخران
بها . أم تراهما تعمدا عدم الحفر ليسببا لى وجع القلب . ومن يدريك .. ألن
يستطيع الإسرائيليون تسميم التربة . يسمونها .. آه .. لكن يغلقوها، كما
أغلقوا الآبار لا ، لماذا سعادك زعلان ، يردمونها .

هدأ السائق من سرعته . انحرف إلي جانب من الطريق . بينما يفك
السائق ركبتيه، تطلع إلي الشجر . لو سمم الإسرائيليون الآبار هنا،
لانعكس ذلك علي مظهر الشجر .

تنبه إلي أن هذه الأشجار لا تروي من الآبار . إذًا لظهر الأثر فى الزرع ..
تطلع أمامه على مرمي البصر ، وقال :

- بنا .

مالي أنا والآبار وقتلتها . لابد من حسم الأمر . هل أظل أجري وراء
سراب اسمه صفية ، أم أتوكل علي الله وأتزوج سمية . أنت فى سن لا
تتحمل التلكؤ ، وإلا فمتي تربي طفلاً ، لو جاء . وماذا إذا لم يأت الحب
المنتظر ، وأطلت من الوجدان صفية ..؟! ماذا أفعل حينئذ ..؟!

- هنا .

وأشار ناحية الزرع . أخضر ومرعرع . لمح مجري منحدرًا ، مبطن بالأسمنت ، مسور من الجانبين ، لاصطياد مياه المطر من تل قريب ، حتي لا تهرب . جميل .. لم يكد يرفع رأسه ، حتي حضر إليه عماله من خص وسط الزرع لم يلحظه ، كأنهم كانوا في انتظاره . تبادلوا الشكر ، بعد أن أخبرهم عن مهمته لإعادة تشغيل البئر في ناحيتهم وصيانته . شمروا عن سواعدهم . وحذرهم من استخدام مائه حتي يخبرهم بنتيجة فحص عينة أخذها .

مال السائق بالعربة إلي مقهي ، بجانب الطريق . تطلع إليه ، وقد افتقد سعدًا :

- ريتي نشف .

أحضر صاحب المقهي ، فيما بدا ، برادًا من الصاج الأزرق ، وكوبين زجاجيين ، تحتهما طبقان من الصيني .

- عنك .

أخذ حمدي البراد ، وشرع يصب الشاي ، وهو يتشمم البخار .
- من بورسعيد..؟

- رفح

رقمه بدهشة 0 فبورسعيد على بعد خطوتين ، وكمنطقة حرة مليئة بالبضائع المستوردة ، والشاي هناك من مختلف الأنواع وبأسعار رخيصة.

- عربات الأجرة ، تذهب إلي رفح يوميًا ، محملة بالعمال ، بعضهم يعبر إلي رفح فلسطين ، يعملون ويتسوقون .

قَلْبَ السكر . وتأمل رسماً لكونت وكونتيسة علي الطبق . قالت صفية : كان نفسي تشوف طقم فناجين شاي روميو وجوليت الذي اشتريته من غزة . منه لله موظف جمرك القنطرة شرق ، على حافة القناة . أصر علي ضرورة فتح العلب الورقية كلها . كنت أحشر بين الفناجين قمصان نوم من النايلون ، حتي لا تنكسر من الشيل والحط . ظنني أهربها . حاول المشرف على الرحلة أن يقنعه بحسن النية ، زنجر طالباً تصريح سلاح الحدود بالمرور في سيناء . خشى المشرف أن يطلع فيه القلط الفاطسة ، فسكت . نزع الموظف القمصان في لا مبالاة وأخرج محتويات باقي العلب . أعدتها كيفما اتفق . ورصتها زميلة فوق ذراعي . سرت منحنية عليها بصدري . وضعت قدمي على السلمة الحجرية ، للنزول إلي المعديّة . وعدوك .. لا أدري ماذا جري .. تراقصت العلب . طرحة أُمى فردها الهواء ، وقميص نايلون حريمي ، شبك في أبزيم حذائي . وصوت دشدشة . آذان فناجين مثورة ، وأطباق شرشرت حوافها . وكسّر به روميو ، وآخر به جوليت .

هبت نسّامات ملطفة لحرارة الجو ، معبقة بشذا الأشجار . لاشك أن عمرو بن العاص توقف هنا لا عند طرف العريش الغربي ، ليقراً خطاب الخليفة عمر بن الخطاب ، إذا لم يكن دخل مصرّاً أن يعود أدراجه .. هل كان يقصد مصرّاً ، أم وادي النيل .. ؟! .. علي أيّ حال كان عمرو علي عكس السيناريين ، لم يعتبر الوادي بعيداً ، بل علي مدي فرقة حافر خيل ، واعتبر نفسه قد دخله ، أم تراه ، أسرع ، حتي يجب الزمان والمكان ، وتصبح رسالة ابن الخطاب غير ذات موضوع ، لا شك أن موقع «الفرما» كان هنا .. أو بالقرب من هنا .. وأن هذه الخضرة ، أغرت بدويّاً مثله ،

ليعسكر بجيشه ، ويأخذ أهفته للوثوب علي وادي النيل ، ومواجهة الحامية الرومانية.

سأل حمدي صاحب المقهي ، وهو يحاسبه :

- ألا توجد عربية أجرة من هنا إلي بورسعيد .

- تذهب إلي القنطرة .

سرح حمدي ببصره ، المعيز تبحث في دأب عن كلاً ، وكبش في جانب ، أضخم منها حجماً ، يحرك رأسه ذات القرنين الملتويين إلي الخلف .

وصل الباص محملاً بالأسري إلي بئر سبع . توافد الأهالي في هرج ومرج ، يحملون الترامس وشطائر وكعكاً للجنود ، ويحملون إلينا البصقات ، تكاد تخترق زجاج العربة . وحين أنزلونا ضطروا في وجوهنا بأفواههم ، ورطنوا بالعبرية ، وقد كشروا عن أسنانهم . مر بنا شخص يحمل دلواً من الماء ، أشار إليه الحارس وقال :

- عربي

طالعتني منه بشرة بيضاء ، شمعية . قال الحارس :

- أخبرهم .. كيف تعيشون معنا .

نظر إلينا الفلسطيني ملياً . سحب نظره ببطء ، ومضي .

وعند تبة بالقرب منا ، أطل وعل . صخب الجنود الإسرائيليون ، وأسرعوا في أثره ، وهم يطلقون الرصاص .

ظهرت رأس وعل . أعجبني لونه البني المائل إلي المشمشي ، لا يكاد يبين من لون الجبل في غرب أسوان ، وقد التف قرناه للخلف ، وخيل إلي أن طول الواحد منهما يزيد على المتر . زيتنا وقد ظهرت وعول

أخري، الواحد منها فى حجم العجل الذى شب عن الطوق ، أذناه أقصر من أذني الحمار، ذيله قصير جداً ، وأرجله أبيض علي أسود . وجارانا فى الزيتة والجري بعض تلاميذ رحلة الثانوية العامة إلي الأقصر وأسوان من المدارس الأخرى، الذين تصادف وجودهم معنا . وكنا حين نظن أننا اقتربنا من إحداها خلف نتوء نجدها قد أطلت من خلف نتوء آخر . تقطعت منا الأنفاس ، وقال أحد الطلبة .

- دوخ الإنجليز وضيوفهم .

التفت إليه . بشرة سمراء لامعة ، وعود سمهري . عاود الحديث :

- تنظف الجبال من الحشرات ولا تسمح لغريب بارتياها ، طاردوها بالبنادق ، ففرت إلى تلال وجبال المعادي وبعضها إلي سيناء . لم تسلم من رصاص حاميتهم فيها ، فذهبت إلي سدوم بفلسطين .



وجده منهمكاً فى ملاحظة العمال والعاملات ، وقد لاحت شجيرات الخوخ فى الأغوار ، والأراضى المنبسطة ، وأصبح لها منظر .
اقترب سعد منه ، فلم يزد حمدي عن إشعاره ، بإحساسه بوجوده . قال سعد :

- تمام .

صعدا إلى العربة . تمتم سعد :

- الله ينور .

طأفت عيونهما بالشجيرات . أدار سعد العربة ، وبينما ينطلق ، قال :
- أدع لمن تركك تزرع وتقلع على حافة القناة .

كانت الطائرات الإسرائيلية تطلع للتصوير أولاً . ثم تأتى للقصف بعد ذلك . الدبابات تتخندق ، ويخفون أية ظلال . يعرفون من ظل المركبة نوعها وتسليحها ، يضعون شجيرات وفروعاً من أغصان الشجر فى جوانبها ، كى ينبعج ظلها ، ولا يظهر نوعها من الصور الملتقطة ، حتى عربة التعيين ، كانوا يخفون آثار عجلاتها على الرمال ، وعينوا مناوباً لمراقبة ذلك . وكانوا يعرفون أنهم أجادوا التمويه ، عندما تقصف الطائرات بعيداً ، ولا تغير عليهم .

نزل حمدي عند المحافظة ، لتخليص بعض الأوراق ، وأخبره ، سعد أنه سينتظره ، فى مقهاه . وذهب إلى الحارة الرملية ، بالقرب من شارع الشاطئ .

أسلم نفسه لظهر كرسى من الجريد . تخللت ظهره راحة ، وود لو يتمطي ، ويفرد ساقيه ، وقد خايلته غير بعيد ، سعف نخلة ، استسلمت مطاوعة ريحاً هينة .

وغير بعيد من المقهي ، كانت نخلة ، حركت سعفها ، ريح جافة ، من جوف الصحراء ، وأم ميلاد ، وقد أصبحت لها عربة يد خشبية ، وضعت عليها سباطات من البلح الأحمر . ومع ذلك لم يسلم القس من لسانها . تتلفت حولها ، مشيرة إلي المحال في السوق .
- أأست مثل هؤلاء .

- أأحمدي الله .. بعد الفجل والجرجير .. بلح وفاكهة .

- أأحمده قبل أن أراكم .

فينطلقون جميعاً في الضحك ، مفوتين عليها الاسترسال في الحديث ، حتي لا ينالهم رذاذها . حكى له أصدقائه ما فاتته من صباح السابع من أكتوبر علي أرض سيناء . فوجئوا بأمرأة تطلب مقابلة القائد . فوق رأسها مشنة ، أطلت من حوافها ، شقق طرية من العيش الساخن ، وفي قمة المشنة سباطات من البلح الأحمر .

أأخذ ضابط السرية بعض الجنود ، تكتئةً ، للقاء العميد جورج ، الذي كان معروفاً عنه عدم لوم الضباط في حضرة الجنود .

أأحين رأهم ، أأتهم وجهه ، وأأمسك نفسه بصعوبة ، وهو يقول :

- أأهذا وقته يا حضرة الضابط

وأأكانت أأسمع على البعد أصوات انطلاق الدانات ، ودفقات متقطعة من رصاص الرشاشات .

مال عليه رئيس العمليات ، بابتسامة هادئة ، وقال بصوت خفيض :

- حضرت المرأة وانتهى الأمر .. لا تكسفها سعادتك .

قال العميد من بين أسنانه :

- شكرًا يا ماما .

ولكن هذه تسمرت ، رافضة إنزال حملها . تطلع العميد جورج حوله ، فأسغفه رئيس العمليات بإيماءة من رأسه إلى المشنة .

تقدم العميد جورج في نفاد صبر ، وأخذ فرعاً من البلح . عندئذ أنزلت المرأة المشنة وأطلقت زغرودة . فلم يملك العميد جورج نفسه من الضحك ، وانتهز الموجودون الفرصة ، فقال قائد السرية :

- سعادتك لم تر الفلاحين .. رجالاً ونساءً يحملون «الصباحية» صَوَان ، عليها قرص وفطير مشلتت ولوازمه من الجبن والقشدة والعسل الأبيض ، والشاي باللبن . ويمشون فوق المعابر .

لوح العميد بيده إلى السماء ، بما يعني : وغارات الطائرات ..

قال رئيس العمليات :

- ولا فى دماغهم ..

تناول العميد جورج ، بلحة وضعها فى فمه ، ليزيل الحرج عن الحضور ، فمدوا أيديهم وأمر بتوزيع ما أحضرته الفلاحة علي الجنود . قال رئيس العمليات :

- أراهن أنها لا تملك سوي نخلتين ، أحضرت لنا بلحهما .

تطلع سعد فى ساعته . تأخر الباشمهندس . فكر أن ينصرف ، لتدبير الغداء .. تريث قليلا .. الرجل سيجمع أقساط الجمعية . وربما تأخر فى انتظار أحدهم ، ليأخذ قسطه . هل أستطيع أن أطلب منه أن يتم جميله ويقرضنى باقي ثمن حجرة النوم ، لا .. يكفي تنازله لي عن دوره .

ماذا سيكون حاله ، لو جا ، ولم يجدني .. يا للندالة .
الضابط الذي تخلف ، اصطاده حين عودته ، ليضرب كمدفعي ، علي
باب أحد الحصون ، مع المدفعية . كانوا يضحكون عليه ساعة الهجوم .
واقف فى فتحة برج الدبابة رجل فى الخارج ورجل فى الداخل .
- يا أفندم انزل .. أنت هكذا معرض للخطر أكثر .
وفى عصبية قال سعد ، وكان الضابط قد تسلم منه قيادة الدبابة :
- أنت الآن تعرضنا لأية شظية قد تسقط من الفتحة .
جلس القرفصاء علي مقعده ، مستعداً للقفز فى أية لحظة .
حاول سعد تعديل وضعه دون فائدة . ركبته تخبطان فى ظهره
. أطلق قذيفة ، أسكتت المدفع الذي كان يطلق عليهم من تبة
الإنجليزي . فى ارتداد المدفع ، لبس مسمار مثبت شدواقي
المدفع فى إحدي ركبتي الضابط . نزل سائل أبيض ، أعقبه دم .
أخرج سعد رباط الميدان وربط له ركبته ، فهو يملكها جواره .
وطلب منه أن يغادر الدبابة ، لبحث عن عربة تقله إلي الخلف
للعلاج . فجأة ، تغير وجهه ، وقال أنه سيحارب معهم حتي النهاية
. فى المساء ازداد عليه الألم ، وعجز عن تحريك ساقه تماما ،
وأخذ يصرخ ، اضطروا لحمله ، وإرساله إلي المؤخرة .
فى صباح اليوم التالى عرض قائد الفصيلة أن يحتلوا تبة بالقرب منهم ،
تدعم موقفهم عند الهجوم على تبة الإنجليزي . اعترض سعد :
- الآن الشمس فى عيوننا .. يروننا جيداً ونحن لا نراهم .
وافق علي الانتظار حتي المساء ، علي أن يكون الهجوم بثلاث دبابات
فقط . قال أحد الزملاء :

- أفاد الاستطلاع بوجود خمس دبابات على التبة .. لازم الهجوم يكون متفوقاً.. علي الأقل 3 - 1 .

قاموا بهجمة ، لم تنجح ، فانسحبوا استعداداً لهجمة أخرى ، وزاد القائد عدد الدبابات المهاجمة .

كانت تبة الإنجليزي صعبة . وتستطيع أن تري منها الاسماعيلية علي مسافة خمسة وعشرين كيلو متراً تقريباً ، كما تري منها الفردان والقنطرة غرب . وصعوبة التبة ، ليست في ارتفاعها فقط ، ولكن لأن تبة أخرى اسمها تبة العسكري تحميها، والقوات المصرية في باطن التبة الأولى ، ولم تصل إلي الثانية بعد .

هجم لواء مدرع ، ولم يتمكن من احتلالها . تقرر الهجوم بالمشاة، علي أن تساندهم كتيبة مدرعة . حين أخبرهم قائد الكتيبة بالمهمة ، رجفت قلوبهم ، فالتبة حاکمة، ، لن يتخلي عنها الإسرائيليون بسهولة . سبق أن احتلوها ليلاً واستردها الإسرائيليون بسهولة ، بعد أن قصفوها من تبة العسكري ، ومن قواتهم الاحتياطية في الخلف .

قامت الطائرات المصرية بعدة طلعات . ومهدت المدفعية ، قبل أن تتقدم كتيبة سعد المدرعة ، مساندةً للمشاة . أخذت المدرعات ميمنة قوات المشاة المهاجمة. اشتعلت الدبابات حمية ، ولم تصمت مصادر نيران العدو . تسلفت الدبابات المصرية جانباً من التبة . استرعي انتباه سعد وجود دخان أبيض داخل دبابته خلافاً للدخان الأسود المتخلف عن إطلاق القذائف .

- يا جماعة كل واحد يفتش مكانه .

- لا شيء

- افتحوا فتحة الذخيرة للتهوية .
دخل هواء جديد ، أطل سعد خارج الدبابة ، وصرخ :
- الدبابة مشتعلة .
التفت للملازم أول الذي خلف الضابط المصاب .
- يا أفندم افتح البرج واقفز .
- لا .. لا بد من التقدم .
- الدبابة ستنفجر .
- تقدم وأطلق .
وضع المعمر دانه ، وأمسك بيديّ البرسكوب يراقب اليمين والأمام ،
وأطلق الرامي ، فأخذ يراقب اليسار والأمام ولم يشعر سعد إلا بنفسه يدفع
الملازم إلى الخارج ، ويقفز ، ووراءه باقي الطقم .
انبطحوا بعد عدة أمتار ، وسرعان ما انفجرت الدبابة . تطلع سعد إلى
وجوههم ، وقد عمق إحساسه بالأسى . فهذه الدبابة حاربت معه أسبوعاً ،
ولم تتخذله أبداً . قرروا العودة إلي وادي النخيل انتظاراً لدبابة أخرى .
لكنهم وقعوا فى مطب ، فقد نسوا الطريق التى شقها المهندسون وسط
الألغام قبل بدء الهجوم . حاولوا الاهتداء بآثار جنزير دبابة . وجدوه
مطبوعاً فى مكان ، ومطموساً فى آخر .
كانت مدفعية العدو تطلق علي الموقع ، فاهتدوا إلي فكرة . كلما
قصفت المدفعية مكانا تقدموا إليه . وهكذا ظلوا ينتقلون من مكان إلي
آخر ، تلاحقهم القذائف ، فإذا سمعوا تكة مكتومة «بم» ، انبطحوا فوراً .
وإذا سمعوا صوتاً يشبه الصغير ، أيقنوا أن المقذوف تخطاهم ، وسيسقط

بعيداً عنهم ، فيواصلون السير ، حتي وصلوا إلي المؤخرة . في المساء علموا أن قواتنا احتلت التبة ، ولما لم يكن هناك استعواض ، فقد ظلوا حتي آخر الحرب دون دبابة.

وانتهزوا الفرصة لزيارة قائد دبابتهم السابق الذي أصيب في ركبته ، في المستشفى بالزقازيق . ما أن رأهم ، حتي هب في سعد :
- شفتني ميتاً ، حتي تشهد عليّ .
وقال سعد في نفسه : يا خبر .. رغم أنك حققت بالأتروبين ، كنت واعياً .

وتابع الملازم أول :
- الحمد لله .. أن جاءت هكذا .
كانت ساقه ، وجزء من فخذه قد بترتا ، لتغلغل الغرغرينا .
- الحمد لله أنني ما زلت أعيش .
وأشار إلي إبتتيه :
- أمل وشفاء .



- أين الخطر .. ؟!

قال صفوت :

- لييا .

- ملمحًا للتوتر علي الحدود المصرية الليبية . عاجله ضابط التوجيه

المعنوي :

- حمار

جلس صفوت منكسرًا ، واستمر الضابط :

- الشرق .. الغزاة دائما يأتون من الشرق .

وقال صفوت في نفسه : مازلت حمارًا ، كيف وافقت علي لقاء عبد السلام فاروق ، أخرجت نفسي وأخرجته ، فليس عندي ما أقوله عن صفيه . وكيف كان يستطيع رده حين جاءه صوته في التليفون : ليس كما تتوقع ، عندي موضوع مهم .

أعطاه عصًا ، كانت بحوزة اللواء جورج وقال :

- تخصص العقيد مصطفى عبد الله .

- من مصطفى عبد الله ..

- مصطفى عبد الله .. !!

- آه .. رئيس العمليات .. يرحمه الله .

انتشرت عادة حمل العصا بين كبار الضباط ، فيما يبدو ، تشبهاً باللواء محمد نجيب ، الذي تصدر حركة «الضباط الأحرار» ، بوجهه البشوش ، وشخصيته الودودة التي أكسبته شعبية هائلة .

أمسك صفوت العصا . تأملها وقال ساخراً :

- ماذا يسمونها .. ؟!

- عصا المارشالية .

أوماً عبد السلام برأسه إلي قمة العصا .

تملي صفوت من الرسم ، واستمر في سخريته :

- وماذا يعني ..

- عين حورس يا جاهل ..

تطلع صفوت إلى الرسم وقال :

- عين امرأة من حي المناخ ، لطختها بالكحل

انفجر عبد السلام ضاحكاً ، وقال :

- علي أية حال .. الكحل اختراع فرعوني .

- وما شأنني بالعصا .

- وجدها اللواء جورج في عربة القيادة بعد وقف إطلاق النار ،

وطلب مني توصيلها لأبنائه ، فوعده ، ولأنني أعرف أن لك أصدقاءً

في منيا القمح .

آه .. دُبست ولا مفر .

وهو يغادر سأله عبد السلام عن مسعاه في العمل مع أحد المقاولين

، كما سمع .

- سافر إلى الكويت .

جاء مندوب من الإدارة المالية ، ومعه حقيبة بها ستة وعشرون ألف

جنيه ، مرتب شهر للجنود ، تبرعت به الكويت .

كان الجنود قد شدوا أغراضهم فوق ظهورهم ، وعقولهم مشغولة ،

بما هم مقبلون عليه ، والمندوب يريد توقيعهم علي استمارات الصرف .

أخذه صفوت إلي قائد الوحدة . كانت أمامه بعض الخرائط . أصدر بعض الأوامر ، ولوح بإحدى يديه لصفوت قائلاً :

- تصرف .

أخذ صفوت الاستثمارات ، واختلى فى موقعه مع بعض الجنود ، ووقعوها . ابتسم المندوب ، أخذها وناولهم النقود . ذهب صفوت إلى القائد ، طالباً مهلة لتوزيعها . رد فى عصبية :

- أيعلم أحدكم .. هل سيعود أم لا .. ؟!

- يا أفندم .

أخذ الحقيقة ، وأطاح بها فوق الرمال .

بعد العمليات ، التقى صفوت القائد ، صدفة . قال الأخير :

- تعرف يا ولد . . ليتنا احتفظنا بالنقود .

فتح صفوت التلفزيون ، لشاهد مباراة بين مصر والجزائر ، مريحا نفسه من التفكير فى العمل وخلافه . ودعا الله ألا يركب العصبى لاعبين ، لا لشيء ، سوى أن الجزائريين فازوا من قبل مرة أو مرتين .

أعلن المذيع عن أسماء اللاعبين . وأذن الحكم ببدء المباراة .. كرة ضالة عند خط الـ 18 .. ولم تجد من يتابعها .

بالقرب من الكيلو 101 على طريق السويس ، كانت تعسكر وحدة جزائرية ، وجوارها وحدات رمزية أخرى ، سودانية ومغربية ، وغير بعيد نقطة حراسة إسرائيلية .

كانت الطائرات الإسرائيلية قد قصفت السويس عدة أيام متتالية . وألقوا منشورات تدعو الأهالي للتسليم . وانسحب شارون بفرقة المدرعة من أمام الإسماعيلية ، وانضم إلى فرقتين مدرعتين أخريين ، نجحتا فى التسلل إلي الغرب وشرعا فى اقتحام المدينة . انبطح الأهالي بجوار رصيفي الشارع ، فى مدخل حى الأربعين ، وبالقنابل اليدوية أعطبوا

جنازير الدبابات ، وجنود الجيش الثالث ، استخدموا الر - ب - ج ، ودمروا جميعًا ، للإسرائيليين أربعين دبابة .

ومن خرج حيا اصطاده الأهالي بينادقهم من الشرفات والنوافذ . وجرت قوة منهم ، واحتمت بقسم شرطة الأربعين . حاصرها الأهالي ، والتقط أحد رجال التليفونات إشارة يستجدون فيها بقائد الجبهة الجنوبية جنرال جرين .

وهرب من بقي حيًا من قسم الأربعين ، حين حط الظلام ، ولم تعاود الدبابات الهجوم ثانية علي السويس ، وقد تداخلت خطوطهم مع خطوطنا ، حين نفذ قرار وقف إطلاق النار .

وكانت تمر من أمامهم ، قافلة المؤن ، خضراوات ، ووقود للسيارات ، وأغراض طبية ، إلي الجيش الثالث في سيناء . ودائما تحدث مشادة بين جنودنا ، وبينهم . . وبعد أن يتبادلوا الشتائم في حراسة القوات العربية ، تمر القافلة ، ويفاجأ قائد المنطقة بالجزائريين يطلقون النار على الإسرائيليين . يرسل مندوبًا ليكلفوا عن الإطلاق ، فقد مرت القافلة وانتهى الأمر . يعدونه بذلك ، وما أن يغادرهم ، حتي يعودوا إلي إطلاق النار .

كاد أن يفعلها قلب الهجوم المصري ، ويسجل هدفًا مبكرًا .

ضحك صفوت من نفسه ، وقد ضبط جسده ، قائمًا نصف قومة ، يتابع الهجمة . وضحك أكثر حين تذكر مباراة سابقة ، شاهدتها معه حمدي أبو زيد . كانت مع تونس ، يومها سجل التوانسة هدفًا مبكرًا ، وناموا عليه ، الوقوع أرضًا ، وادعاء الإصابة لإضاعة الوقت ، حتى شاطت أعصاب المصريين وعجزوا عن التعويض .

بعد المباراة انفجر حمدي ضاحكا ، بينما كان صفوت يغلي . قال حمدي :

- أفتي زميل لنا .. بما أننا دولة متخلفة ، وذوقًا نقول نامية ، وكل شئ

متخلف .. زراعة وصناعة وتعليم ومواصلات ، فلماذا تشذ كرة القدم..؟!
اقتنعت بهذا المنطق زمنًا .. وبدا كأنه تحليل ماركسي لا يخر الماء .
ردد صفوت في نفسه : الرجل رغم غلاسته ، لا يخلو من ظرف .
قال :

- لا ماركسي ولا يحزنون .. فقط أحد عشر ولدًا يجيدون الرمح زمن
المباراة ، مع صقل مهارات اللعب .
تلقف حمدي الخيط :

- لفت نظري أن تونس دولة صغيرة .. واقتصادها علي قدها وتفوز
علينا .. والبرازيل من أفقر الدول ، وكثيرا ما فازت بكأس العالم ، متخطية
الدول الغنية ، والمتقدمة في التقنية .

وانفجر ضاحكًا .. تجاوب معه صفوت .. وقد بدأ يخفف من غلوائه
عليه في داخله ، وردد في خاطره .. يبدو أن عنده ، نفس عرق الظرف
الذي عند حمدي .

رجته مرة ، أن يعبر بها من السويس إلى بور توفيق في سيناء .
فوجئت بالوحشة تلف العمارات . أغلبها من طراز واحد كالعمارات
الشعبية وقد شوهدت طلقات الرصاص واجهاتها ، وأحدثت الدانات
ثقبًا في الحيطان والشرفات . والريح تعبث محملة بالغبار في
الشوارع . نظرت إليه ، كأنما معذرة . لف ذراعه الأيمن حول
خصرها ، وقادها ، برفق إلي مدخل إحدى العمارات .. تطلع إلي
عينها . اختفت يماماتها الوديعة ، المنطلقة إلي المرح . حك أنفه
بأنفها ، وأراح خده الأيمن علي خدها الأيسر ، وحكه ببطء . مستمرًا
نعومة مثل نعومة حبة الجميز . استكانت إليه واستكان إليها ، وشملها

بود . قطرات خفيفة من العرق فوق شفتها العليا . مزازة البرتقال الشموتى بين شفتيها . استنشق عبير جسدها بعمق ، حانت منه نظرة خاطفة إلي عينيها . يمامة منكسرة تحرك رقبتها وعينيها فى ترقب . سارا صامتين وقد أحس بمنقار العصفور ، ينقر فى صدره . استغيبته .. لكزته بذراعها جهته .. توه فى الكلام ، وقال :

- أليس غريبا تسمية هذه المدينة باسم الخديو الذي خان مصر .
وكأنما استردت لياقتها فى الشقاوة فجأة ، قالت :

- لو أسموها بور عرابي لاحتلها الإسرائيليون ، وما تركوها أبدا ..
علت ضحكته ، وجذبها نحوه فى مودة .

الجزائريون يهاجمون . يريدون خطف هدف ، ليتلفوا أعصاب المصريين . وهؤلاء أقاموا خط دفاع قوي . هل سيصمد طويلاً .. وهل ستقع أخطاء يستغلها المهاجمون . أخذ المذيع يردد :
«صرح المدرب قبل المباراة ، أننا لسنا فى عصر الكرة الذهبى ، أيام الخطيب وحسن شحاته» .

قال له الصحفي الذي يحاوره ، أي مدرب يتمنى أن يكون عنده أساطين اللعبة مثل ، بيليه وبوشكاش ودي ستيفانو ، ليفوز . البراعة أن تفوز بما لديك .

استمع الرئيس السادات لطلب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى ، من الأسلحة والمعدات الحديثة . ولكن .. من أين .. الغرب لن يعطينا ، والروس لا يلبنون كل طلباتنا . قال الرئيس حسماً للأمر : معك قوات ومعدات تفوق ما كان مع موننجمرى فى صحرائنا الغربية فى الحرب العالمية الثانية .

ثغرة فى الدفاع المصري ، مهاجم جزائري ، أطلق قذيفة أرض جو ..
الحمد لله .. مرت فوق العارضة .

أخبرته صفية ، أنهم عاشوا ساعات لا يعلم بها إلا المولي . سمعوا أصوات قذائف ، وانتشرت الأنباء فى الاسماعيلية ، أن شارون علي رأس فرقة مدرعة ، يطرق أبوابها .

ابتسم صفوت ، وهو يستمع لها . كان الجيشان المصريان الثانى والثالث ، قد دمرا خط بارليف ، وكشحا الإسرائيليين إلى الخلف ، واستوليا علي منطقة بطول القناة ، عرضها من عشرة إلى خمسة عشر كيلو متراً ، حين تفتقت حيلة الإسرائيليين عن دفع بعض قواتهم إلى الغرب . كانا ، يتغديان ، وقد قليت صفية سمك الدنيس ، المفضل لديه ، وأعدت جواره الأرز الأحمر الذي يعشقه . نفذ أرزه ، فمد ملعقته إلى طبقها . جذبت الطبق ناحيتها ، مهددةً ظهر يده ، بشوكة ظهر سمكة التهمتتها . لكنه لم يتراجع ، وغرف بملعقته من طبقها .

واستمرت صفية : تصور .. ضابط مدفعية مضادة للطائرات ، حول مدفيعته وأخذ يقصف الدبابات الإسرائيلية ، وأسرع الناس وفتحوا المياه فى منطقة الجنانين ، ووجد شارون دباباته فى مخاضة موحلة ، فأسرع هارباً بقواته .

أراهم المخرج أفراداً يسخنون خلف مرمانا ، والمذيع يعلق : «هل سيبدل مهاجماً بمهاجم ، أم سيدعم الدفاع .. أرى أن يدعم الهجوم .. فإذا لم نكسب علي أرضنا .. فأين نكسب» .

خيب المدرب توقعه ، واستعد لتدعيم الدفاع .. وبعد أن وقف اللاعب علي خط التماس استعداداً للنزول ، غير المدرب رأيه .. وأجل التبديل .. هجمة جزائية .. والمذيع فى ضراعة : «استر يا رب» .

مرت الكرة بجوار القائم الأيسر . تنهد المنيع وقال : «الحمد لله» .

وقع أحد اللاعبين الجزائريين علي الأرض . استدعي الحكم رجال

الإسعاف. انتهز اللاعبون الفرصة ، وتلقفوا بعض زجاجات المياه .. هذا يشرب ويناولها لزميل .. وآخر يدلق الماء علي رأسه ووجهه .

قال المساعد :

- نتوضأ ونصلي

- يا أفندم الماء لن يكفي الشرب .

- واجب ربنا أولاً .

توضأوا جميعاً ، وحين شرعوا فى الصلاة ، صفرت دانة . نظر المساعد

إلى أعلى وصاح :

- الحفر

أسرعوا ، وهم يتماألسون عليه .

أغلق صفوت التليفزيون ، بعصبية ، وفي كل مرة تلاعب فيها مصر دولة من الشمال الإفريقي ، يقرر عدم رؤية المباراة حتى لا تتلف أعصابه ، ولكنه يفعل .

ولم يكد ينهض ، حتي سمع ما يشبه «هيه» فى الفضاء ، فأسرع وفتح التليفزيون:

- مصر سجلت هدفاً .



لحظ سعد أن ندا تخطت جامع العباسي ، ولم تعرج ناحية قلعة سليمان ، كما طلب منها . كانت لاوية بوزها طوال النهار ، فخمن أن في الأمر شيئاً .

اقترب منها ، فأسرعت في مشيتها في الشارع المسفلت بحذاء الشاطئ.. حاول اللحاق بها ، قبل أن تقترب من منطقة الفنادق ، حيث سترفض الحديث خشية أن يراها أحد .

كلما اقترب أسرع أكثر . عليه بالصبر ، حتي تتخطي الفنادق . حانت منها لفتة، فراحه احمرار وجهها .

في الضحى، وبينما كانوا سعداء بدفء شتاء هذا العام، إذا بالباشمهندس حمدي، يخشي ، أن يخدع الدفء النبات ، فيزهر قبل الأوان .

اجتازت منطقة الفنادق ، وبدأت الأرجل تقل ، ولسعة برد خفيفة . لو زاد البرد ، ربما ذبلت الأزهار ، وتلفت البراعم .

ذاب الشارع وسط الرمال الشاسعة ، حيث نمت بعض الأعشاب علي الروابي والمنحدرات ، وحدت الطريق ، ناحية البحر ، أشجار نخيل قصيرة ، وقد ظهرت واحدة طويلة ، وسط كل مجموعة كأنها ترعاها .

- على مهلك .. قلبي وقع .

- لا كلام لك معي .

- ماذا حدث .. ؟!

- ما تقرب مني أربعين مربعاً ، ولو قربت عليك أربعة مربعات .
- وقف سعد حائراً ، لا يدري ماذا اقترب ، بينما استمرت ندا :
- في الصحراء ، ممنوع الاقتراب مني لأكثر من أربعين خطوة .
- ضحك سعد .. وقال :
- لسنا فى جوف الصحراء
- أشارت ندا لما حولهما من رمال ، امتدت علي مرمي الأفق ، وإلي يمينها ، كان الزبد ينداح عن الأمواج الفاروزية ، ويرغي علي حواف الشاطئ .
- حاول إمساك إحدي يديها ، فهددته :
- خطوة واحدة ، وأشكو لشيخ القبيلة ، تغرم عشرين ألف جنيه .
- شغلي طوال عمري ، وطوال أعمار أولادي من بعدي .
- أشاحت بوجهها عنه . قال :
- لكننا فى المدينة ، ولسنا فى الصحراء .
- من سيصدقك .
- لمس فى لهجتها شيئاً من الدلال ، فأدرك أنها علي وشك أن تلين .
- قال :
- فى الصحراء .. أليس مسموحاً بالاقتراب من أجل شربة ماء ؟!
- ليس معنا ماء .
- للسؤال عن الطريق .
- لا نفتني الأثر .
- لم يبق إلا إبداء الرغبة فى الزواج .

جاء صوتها موشي الحواف بغنة مستترة :

- كسبت يا خائن ..!!

-

- منذ وصلت شقيقة الباشمهندس ، وأنت لازق هناك . أوصلي يا سعد ، فسحني ياسعد ، وآخرتها معها إلى الموقف لتركبها بنفسك .

ضحك سعد ، مقترباً منها . أمسك يديها ، وقال :

- تغارين .. ؟!

لوت شفتيها ، وحولت عينيها .

- الباشمهندس يعتبرني كأخ أصغر ، وهذه ضيفة .

ارتخت يداها في يديه ، فترك إحداهما ، وطوق خصرها .

- نحن علي الطريق .

دفعها برفق ناحية النخيل ، وقد استشعر ليونة جسدها ، وحرارته .

- احذر .. الغرامة .

- عرج بها ناحية البحر .

- الغرامة تكبر .

التصق بها أكثر ، وجاسا في الشاطئ ، وهو يضمها قائلاً :

- عليه العوض لي ولذريتي من بعدي .

ضحكت ، فلم يملك نفسه ، وقد تدفق الوجد من نظراتها ، ومن

انفراجة شفتيها . قبلها بسرعة ، فأدارت وجهها . انطبعت القبلة علي أحد

خديها . أحس بحرارته ، فعاود المحاولة ، لكنه أحس بنفور جسدها ،

فانبثقت في ذهنه خشية الباشمهندس حمدي : أن التزهير قبل الأوان قد

يعني الذبول السريع .

أخذ راحة يسراها فى يمينه ، ووضعها على صدره ، وقد تلامس جنباهما المتجاوران . نظرت إليه بمحبة . اقترب برأسه من وجهها وهو يمد شفتيه ، تراجعت برأسها فى خفة .

- أردت أن أثبت لك .

وضعت سبابة يدها الأخرى على شفتيه ، وهمست :

- لا تثبت شيئاً .

كان سعد جريحا فوق الرمال ، وقد نال منه العطش . تقدم منه الملازم مجدي الشبة . أعطاه جرعة ماء بقيت فى زمزميته ، وربط له ذراعه المجروحة . وذهب ليملأ زمزميته قبل الرحيل ، فأخبروه أن المياه معطلة لبعض الوقت .

كانت وحدة خاصة ، تمد أنابيب المياه ، خلف القوات كلما تقدمت ، مجلوبة من الضفة الأخرى ، على طوف فوق مياه القناة . وخلف القوات ينشئون حنفيات ، وكان الجنود يسمون الحنفية الغراب . ذهب الملازم إلي الغرب ، ليسأل عن سبب تعطيل المياه . فى الضفة الغربية لمحّه القائد السابق لعمليات الفرقة ، وكان يعرفه .

- شبة .. ماذا تعمل هنا .. ؟!

- المياه تأخرت

- العساكر عطشت .. ؟!

ورفع يمينه ، وضربه قلمين .

- علي وحدتك فوراً يا ابن الكلب .

- يا أفندم .

- يا جبان .. يا ابن الكلب .

رجع مهمومًا وحكي لهم عما حدث ، ولم تمض ساعات حتي كانت وحدثهم تستعد للهجوم . انهالت قذائف مدافع الإسرائيليين .

نزلوا إلى الحفر حتى تنتهي القصفه . فجأة ، خرج مجدي الشبة من حفرة ، وصاح :

- الله أكبر .

وتقدم إلي التبة المطلوب الاستيلاء عليها ، وسقط قتيلًا .

بعد انتهاء القصفه ، تقدموا واستولوا على التبة . وقتلوا بعض الإسرائيليين ، وفر آخرون ، وأسروا ثلاثة . وأخذت الحمية الجنود فتقدموا حتى مدي اثنين وعشرين كيلو مترًا ، ولاحقتهم الطائرات الإسرائيلية ، فاضطروا للعودة إلى التبة القائدة ، ومع أن مدي صواريخنا المضادة للطائرات اثنان وعشرون كيلو مترًا ، إلا أنها عندما تنطلق مائلة ، يصبح مداها المؤثر ستة عشر كيلو مترًا . وفي هذا المدي ، لا تستطيع طائرات إسرائيل التحليق .

عندما أحسوا بإمكان التقاط الأنفاس . أخذوا أوراق الملازم الشبة ، ومتعلقاته الشخصية لإرسالها إلى أبيه . حكي مجدي الشبة عنه أنه كان عامل ترحيل ، امتلك قطعة أرض في مديرية التحرير . وكان حلمه أن يري ابنه ضابطًا مثل الضابط مجدي حسنين ، الذي أنشأ مديرية التحرير في قلب الصحرا ، الممتدة من القاهرة حتى الإسكندرية ، وخضرها بالزرع . وقد نشأ مجدي مع بنت عمه إجلال . وتعاهد الأهل على زواجهما . وحين

كبرا أحب كل منهما الآخر . وتحقق حلم الأب فى ابنه ، بينما تخرجت
إجلال من مدرسة المعلمات ، وعملت فى مدرسة ابتدائية .
استخسر الأب ابنه الضابط فيها . وكان الأب يطلب من ابنه أن يرتدي
بدلة الفسحة ، حين يحضر فى إجازة ، ويضع عصاً تحت إبطه كما يفعل
كبار الضباط ، ويتنظره علي محطة ايتاي البارود ، ويحمل عنه شنطته ،
وأراهم مجدي خطاب أبيه، الذي طلب منه فيه ذلك ، دون خجل ، وقد
قربت بينهم الأيام علي الجبهة . فأحبوه لصراحته ، وروحه المرححة ،
التي جبت عدم وسامته . كان جلده أسمر غطيساً ، بوجهه آثار بثور حب
الشباب ، وشعره مجعد ، والشئ الوحيد الذي خالف أباه فيه ، عدم قطعه
صلته بإجلال، واستمر فى حبه لها .
اقترح أحدهم إرسال أوراقه إلي خطيبته إجلال .. تبادلوا النظرات ..
علت الابتسامة وجوههم .



هل يرون ما يراه . قابلوه بترحاب ، والبشاشة تغمر وجوههم . في قرار نفسه يعتقد أنهم لم يدركوا حقيقة ما رأي . اشتد عود الشتلات ، ومدت فى الأرض . هواء البحر ، وريح الصحراء ، رخاء بالنسبة لها . تتمايل بثقة ومرح . وتستوي حيناً ، شاخصةً إلي سماء لبنية صافية .

دقق فى جنين الزهر . خيل إليه أنه رأى جنين التبرعم ، أو هامته . لا يستطيع أن يلمس ، ويتحقق . رأى فى التبرعم الدقيق جداً جداً ، الثمر القادم . الاستدارة الناعمة ، فى أحجام مختلفة . الغور الصغير المستدير فى قمة الثمرة ، أملس ، مائل إلي البياض . لون الثمرة الأحمر القاني ، مائل إلي الأبيض الخمرى ، وإلي أصفر الليمون البنزهر المشيع بالاخضرار ، وإلي أحمر القطيفة الفاتح والداكن ، والزغب الخفيف ، الدقيق ، كزغب الشفة العليا لعذراء شقراء . يستشعر ملمس النواة الحمراء المنداة ، المجزعة فى تجسيم بارز ، والملتحمة بجسد الثمرة ، عند نزعها تتخلف بقايا علي بعض حوافها . لا .. خوخ سيناء مختلف . تمسك الحبة ، تضغط عليها بالسبابة والإبهام ، تنزلق النواة بسهولة ، مثل انزلاق نواة مشمشة مستوية . ومع الضغطة ، ينبثق عصير حلو ، سكري بمرارة ، مستحبة ، ومزاة تجعل النفس لا تجزع ، مهما تناول الإنسان من الثمر . هل هذا ، ما جعل باعة الفاكهة الأخرى ينادون عليها ، أنها مثل الخوخ شراب الورد .

لن ينسكب العصير بسهولة فيما بعد ، ولن يتسبب فى إحراج من يأكل أمام أحد ، لتساقطه من جانبي الفم ، ولن يقع الملابس فى غفلة منه . هذه

السيولة التى تسبب سرعة العطب للثمرة ، وتجعل تخزينه ، ونقله إلى محافظة أخرى متعذرا ، حتى لو حفظ فى ثلاجة .

آه .. لو نجحت هذه الزرعة .. وحمد الله أن الزارع هنا ليس مدينا لأحد ، مثل الفلاح فى الوادي . يستدين من «القومسيونجي» شتاءً ، ويرد الدين خوفاً فى الصيف ، بثمان بخس ، ويضطر للاستدانة ثانية ، من أجل المحصول القادم ، ويظل فى دائرة «القومسيونجي» ، التى يصعب الفكك منها .

استقل حمدي عربته الجيب ، من ناحية أغوار رفح ، فى اتجاه العريش . فى كل غور ينزل ويتأكد ، وكلما وجد الريح رخاءً ، والأعواد تتمايل معها ، اهتزت أعطافه . واستشعر فى فمه ، طعم الخوخ السكري الممز .

اقتربت العربة من الشيخ زويد . لاحت له بيوتها الواطئة ، على يمين الطريق المسفلت متناثرة ، إلى ما قبل شاطئ البحر بقليل . تتصاعد الأبنية وتنخفض ، تبعا لربى الرمال المقامة عليها . لفت نظره غور قريب . تحسس الأعواد برفق . بداية تزهير .. أكيد .. ريح هينة من هواء البحر المالح ، مختلطة بهواء الصحراء الجاف ، داعبت وجهه وذراعيه ، فأحس بانتعاش ورغبة فى الانطلاق .

واشتد به الشوق ، ليري ثمرات الخوخ .. ويتحسس يديه ملمسها القטיפي .. لكم ود أن يمسك وجه صفية الخمري ، ذا الزغب الخفيف ، براحتيه ، ويقبلها قبلة طويلة ، يودعها حنانه ، ويستشعر ترياق فمها على لسانه . أترأه يكون مسكراً مثل شراب الخوخ . وهل تعتريه مزة حين تشتعل رغبته .

نهض الصحاب فجأة للذهاب إلى السينما . ولم يرغب حمدي فى الذهاب ، انتبه فجأة أنه سيتحمل حساب المشروبات . وأعلنت صفية أنها لا تريد أن تتأخر . وجدا نفسيهما وحدهما ، وكان مكانهما منعزلا

بين الأشجار . تبادلوا النظرات وابتسما . كان ، خشية أن تصده ، في انتظار إشارة أو علامة . تكرر تبادل النظرات ، فقال وهو يكاد يغيب عما حوله :
- عيناك جميلتان .

اشتعلت وجنتها ، وجاء صوتها ناعماً ، منهياً :
- « يا سلام » .. !

كاد أن يفقد توازنه ، وحرار في ردها . بالتأكيد ، تعرف صدق مشاعره تجاهها . نهضت وقد ازداد احمرار وجهها ، فلم يملك سوي مجاراتها ، وهو يردد في نفسه . حلوة كشجرة الخوخ ، ولكن لا يستطيع الإنسان أن يستظل بها مثل شجرة التوت أو البرتقال .

عندما قدر أنها وصلت إلي بيتها ، فكر أن يتلفن لها ، لعلهما في الأسلاك يعبران عن نفسيهما أفضل .. عازه الحماس ، وتساءل .. وماذا عساي أقول لها . وكان ماحز في نفسه ، عجزه عن التصرف . لا يدري حقاً كيف يسلك معها . نزع ملابسه ، ووضع نفسه تحت الدش ، وكلما فكر في وقف إسالة الماء والخروج ، انتظر لا يدري لماذا .. وتذكر عندما كانوا يجتمعون الخوخ ، وينفضونه بقطعة من القماش لتخليصه من وبره اللاسع ، فيعلق بهم . ولا تجدي أية محاولة لإزالته ، سوي خلع الملابس كلها ، ووضع جسده تحت الدش ، وكلما فكر في الخروج انتظر ، خشية ، أن يكون بعضه مازال عالقاً برأسه ورقبته ، فلا يستطيع الجلوس مستقراً ، كمن ووضع في قفاه مسحوق (بودرة) العفريت .

لم يكذب مستقر ، حتي حضرت مفتشة من الجهاز المركزي للمحاسبات . هل هي دسييسة ، لشغله عن تجاربه ، وإذلاله ، أم حضرت بظروفها . رفع رأسه ، وهو لا يعرف ، ماذا يقول عن دفاتر يجهل ماهيتها ، ولم يسدد خاناتها ، وقال :
- أهلاً .. وسهلاً .

حين رآها ، لا يدري ما الذي حدث له ، وأية نشوة هزت كيانه . وجه صبح ، مشرب بحمرة ، لا طويلة ولا قصيرة ، فخذها من حز الفستان عليهما ، عندما جلست ، أبانا عن سخائهما . قدماها الأبيضان ، وأصابعهما الصغيرة ، الطالة من حذاء صيفي ، بأظافر دقيقة غير مطلية ، مست حواف شجونه .

صدرها راسخ ، دون تزيد ، فلقته سمراء بلون الظل ، عيناها واسعتان ، دعجوان .

أحس ، ولا يدري كيف ، كأنه يعرفها من زمن ، وأن شيئاً ينبعث منها ، لا يدريه يشده لتأمل جسدها ، والتطلع إلي وجهها .
أرته بطاقةها الشخصية ، ليتأكد أنها عضوة بالجهاز . تطلع إلي البطاقة ، ولم يطالع شيئاً . نحى يدها الممدودة بالبطاقة بهدوء . وهو يفعل ، ارتعشت يدها ، وفي لحظة خاطفة ، لمح انكساراً في عينيها ، اعترته الدهشة ، وأدرك أنها تعاني مثله ، ولم يكذب يدرك ، ولم تكذب تدرك أنه يدرك ، حتي استأذنت لدقيقة .

خرجت من الحجرة ، وظل في انتظارها ، تعاوده الذكرى .. والحنين .. وهي لا تظهر . وكم سأل نفسه .. كيف حدث هذا مع إنسانة لم أرها من قبل ، وكيف أحسست بهذه الرغبة الطاغية .. وأنها تريدني ، وأنها تخصني .. وليس هذا بالضبط .. إحساس بالحميمية .. وكيف تولدت نفس الأحاسيس عندها ، وإلا ما اختفت هكذا ، وبسرعة ، ولم تعد أبداً . هل أدركت أنها لو استمرت في عملها ، لن تستطيع الصمود ، ففضلت الهرب . لماذا هربت يا سيدتي ، وأنا الإنسان الوحيد المتمم لك . وأين أجذك ، وأنت المرأة الوحيدة ، التي عشقتها ، وأردتها ، وأحسست أنني سأذوب فيها ، وبها ، في لحظة كشف باهرة ، مفاجئة ، لحظة كدت فيها أمتلك الحياة كلها .

أكيد ، ثقتك بنفسك ، جعلتك تقدمين بطاقتك الشخصية ، ليتني تيقنت من اسمك وعنوانك ، وحالتك الاجتماعية ، وهل كنت أعلم .. ؟ !
لماذا ، الأنثى الوحيدة ، التي أردتها وأرادتني ، دون تفكير ، أو تلغثم في لحظة خاطفة ، لا أراها ثانية . لحظة خاطفة ، كانت تعني التحقق كله ، والحب كله ، والعشق كله ، والجنس ، برغبة نابعة من الأعماق ، رغبة المسام للمسام ، رغبة امتزاج الأنفاس بالأنفاس ، رغبة الانجذاب العفوي ، الصادق ، النقي . أين تكمن أنثاى الآن .. تري .. هل سر انجذابي لسمية أن نظرتها قريبة من نظرتها .. لكن الأخرى صريحة .. واضحة .. أما سمية فحسية بعض الشيء . نفس الحجم تقريبا ، واقتراب الملامح .. لحد ما .. هل سأعشق فيها تلك الحبيبة .. وكيف لي أن أحضن بصحيح ، وأقبل بصحيح ، وأحب بصحيح .

صار بخطوات متمهلة ، وقد شمله شعور بالأسى ، لا يفلح معه أي عزاء . فجأة سمع طائراً ييح بصوت مشروخ . التفت إلي مصدر الصوت .. طائر قادم من ناحية الشاطئ .. استعداد بحة صوت «هناك الصافي» في الخمسينات ، تبث حنينها المفعم بالشجن ، من إذاعة فلسطين بالقاهرة : طير الطائر من عنا (عندنا) من عند الأهل .. خبرني يا طائر .. وحياتك يا طائر .. كيف حال الزرع بموطنا .. كيف حال الأهل .

اقترب الطائر ، بان جسمه الأبيض في حجم بطة كبيرة وظهر جناحاه المفرودان كمروحة بيضاء ، شابها شريط أسود ، قبل نهايته حز أبيض رفيع ، رجلاه طويلتان رفيعتان ، يميل اللون في أسفلهما إلي الأحمر البصلى . هبط بحذاء الماء ، أرسل بحته ثانية ، ولما لم يجبه أحد ، مد رقبته الطويلة ، خبط الماء بمنقاره ، وأخذ يعبه .

هل يطفئ الماء ، المالح غليلك .

سرعان ما قذف الماء .

يالي من غبى ، كان يصفى الطحالب الدقيقة في فمه ، لعله يسد
جوعته.

سرعان ما رفر ف بجناحيه ، وطار فى اتجاه الجنوب . هل إلى بحيرة
البردويل .. ليغتسل ، ويصيب شيئاً من الراحة . أم إلى الملاحات بالقرب
من بور فؤاد ، بعد رحلة للبحث عن غذاء ، لصغاره ، الذين تركهم فى
عش ، آمن من الجوارح ، وسط مياه ضحلة ، آسنة ، سبخة ، لزجة ،
ملينة بالبقع الملحية ، البيضاء ، والحمراء ، عاقت الدبابات الإسرائيلية
عن التقدم لاحتلال بور فؤاد عام 67 . غيبت سحببات بيضاء الطائر عن
عينيه . تراءى له منظر الملاحات فى البكور ، وطيور البشاروش خارجة
وسط الضباب ، وقد علقت بأجنحة بعضها ذرات الملح الحمراء ، كأنها
طيور النار ، خرجت لتوها من الجحيم ، وعلقت بأجنحة بعض آخر ذرات
الملح البيضاء ، كأنها بعثت من عدم البحيرات الملحية ، حيث لا تجرؤ
طيور أخرى على الاقتراب منها . هل لهذا احتفى بها أسلافنا ، وطالعتها
على آثارهم . لماذا أوقفت وزارة التربية والتعليم رحلات طلبة الثانوية
العامة إلى الأقصر وأسوان .

لمح الطائر يحوم فى الأفق ، كأنما يروم اختراقه ، وبانت السماء زرقاء
صافية .



خرج أفراد الرحلة من الحصن ، وسألت تلميذة :

- هل الساتر الرملي رمل .. ؟!

ضحك الأولاد وصخبوا .

هدأهم صفوت بيديه ، راجياً ألا يسخروا من زميلتهم ، وقال :

- لا .. ليس رملاً . قاعدة خرسانية ، فوقها قضبان سكة حديدية ، عليها عربات قطر ، مملؤها بالدبش والتراب ، وفوقها طبقة من الرمال أو الطفلة ، روعى أن تكون هشة ، حتى يصعب تسلقها . وإرتفاع الساتر ، يزيد على خمسة عشر متراً ، وعليه تجهيزات ، تسمح بصعود الدبابات ، والسد محاط بأسلاك شائكة مكهربة .

وسأل أحد التلاميذ :

- كم حصناً فى خط بارليف .. ؟

رد صفوت :

- خمسة وعشرون حصناً ، أو قلعة . كل حصن يتكون من ملجأين ، كل ملجأ عبارة عن عربة سكة حديدية ، مدفونة فى الأرض ، وعليها أكوام من الرمال يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين متراً ، وحول الحصن بثت الألغام . وفى الداخل قاعة للسينما وأخرى للتليفزيون ، وبالحصن ثلاثة ، وحمامات مياه باردة وساخنة .

ذات ليلة فاجأهم قائد السرية ، وأخذ من كل فصيلة فرداً ، وأمام باب أحد الملاجئ ، نزلوا عدة درجات . دفع القائد الباب وصاح :

- انزلوا .

إزاء الظلام والرغبة ، ترددوا . قال :

- خائفون .. !

تخطا الباب ، وسلط كشافاً فى أرجاء الملجأ . وقفوا مصعوقين . رقاب
حزتها سكاكين ، أو سناكى بنادق . بطون مبقورة بطلقات الرصاص .
خيوط دماء متجلطة علي الأجساد وعلي الأرض . عيون تحجرت علي
نظرات فزعة .

تسلل القائد بإحدى يديه ، تحت رقبة أحدهم ، ورفع سلسلة ، بها
قطعة معدنية بيضاوية ، قربها من كشافه ، وقال :

- مصريون .

مشي بضع خطوات ، وفتح باباً جانبياً ، وسلط كشافه . معلبات كثيرة ،
لحوم ، مربات ، فول مدمس ، علب بسكوت .

- حملوا

ترددت خطواتهم .. يستوعبون ما حدث .. فى أحيان قليلة ، بعد أن
يسقط الحصن فى أيدي قواتنا ، يسترده الإسرائيليون .

- هيا .

أطاعوا ببطء ، فتعينهم نفذ تقريباً ، وأثناء الخروج تحاشوا النظر ، أو
الملامسة . وفى السرية أمرهم القائد أن يستعدوا لجولة ثانية . شبع الجنود
لأول مرة ، من مدة ، أما من ذهبوا مع القائد ، فكانت أنفسهم مصدودة .

اقترب القائد ، من صفوف ، أقدمهم رتبة ، وقال :

- لا تكن أحمق .. ألا تود العودة لزوجتك .

- لم أتزوج .

- لخطيبتك .

- لم أخطب .

- لأهلك .

دمعت عيناه .

- كل .. حتى يأكل زملاؤك .

تطلع صفوت إلى الأولاد والبنات ، لا يكفون عن الأسئلة ، وخشى أن يتأخر عن مواعده مع حمدية ، وإن شابه الفتور . ماذا عساه يقول لها . وجد وظيفة معاون في روضة أطفال . وعندما ألمحوا أنه لابد أن ينتظر بعد انصراف العاملين ، لأن بعض الآباء يتأخرون عن موعد أطفالهم ، أدرك أنه في الحقيقة مساعد فراش . يكاد يسمع صوت حمدية : اقبل حتى يأتي الأحسن . بعض الأولاد خرجوا من أحد ممرات الحصن ، وبأيديهم أحذية قديمة ، وبعض الملابس المتهرئة ، والتساؤل في عيونهم . تفحص صفوت ما يحملون ، طمس الزمن والإهمال معالمها ، ولم يستطع أن يقطع هل هي لنا أم للإسرائيليين .

وكل ما رآه الحلفاء المنتصرون في معسكر « أوشفيتز » النازي ، أحذية ونظارات وملابس مهملة ، ممكن أن تكون لأي ناس ، لكن أمريكا المنتصرة في الحرب العالمية الثانية ، أجبرت ألمانيا المهزومة ، على دفع تعويضات لإسرائيل ، بزعم أن هذه الأشياء تخص يهودًا ، تم إعدامهم في غرف الغاز ، وقد اعترفت حكومة بولندا فيما بعد ، أن هذه الغرف التي يشاهدها السياح ، بنيت عام 48 بعد انتهاء الحرب بعدة سنوات ، كما دفعت ألمانيا تعويضات لإسرائيل ، عن أعمال السخرة التي فرضها النازيون على يهود أوروبا ، مع أنهم ليسوا مواطنين إسرائيليين ، وكيف يكونون وإسرائيل لم يكن لها وجود وقتها .

واستطاعت إسرائيل بهذه الأموال ، البناء في فلسطين .. مدت خطوط السكك الحديدية ، وسفلتت الشوارع ، وأنشأت المدن والمطارات والموانئ ، وأكملت ما بدأه الفلاحون المصريون في الحرب العالمية الأولى .

كان البريطانيون، الذين يحتلون مصر، يهجمون ليلاً على القرى، ويأخذون الفلاحين، وفي النهار يخطفونهم من الأسواق والشوارع ويقيدون كل خمسين فلاحاً من أقدامهم فى حبل طويل، يسرون فى طابور إذا وقف أحد تعطلوا جميعاً، وإذا سقط أحد سقط الباقون. ويقتادونهم إلى مراكز الشرطة، حيث ينتظرهم ضابط بريطاني، يشحنهم فى القطار إلى سيناء وفلسطين، لرصف الطرق ومد خطوط السكك الحديدية وأعمال الحفر، ونقل ذخائر ومعدات الجيش البريطانى بالجمال. وكان البريطانيون يجبرون الفلاحين الأيمن والعمال على ختم طلب بالتطوع، ومن يرفض، يضرب ويجلد حتى يفعل. وفي بعض المراكز كان يقيم صانع أختام على الباب، ليصنع ختمًا لمن لا ختم له. ومات الآلاف من أصل مليون وسبعين ألف رجل، تم تسخيرهم للعمل فى سيناء وفلسطين، والعراق وخلف خطوط القتال فى الجبهة الغربية فى فرنسا وفى جزيرة «موردروس» بالبحر المتوسط، برصاص وقنابل الألمان والأتراك، ومن الجوع والمرض، حيث كانوا يتركون عرايا، دون ملابس أو خيام، فقط ما يستر عوراتهم ولم يتقاض الفرد فى أغلب الأحيان أي أجر، وإذا أعطوه، لم يكن يزيد على سبعة قروش فى اليوم فى أحسن الأحوال.

كانوا مستجدين، وعُينوا حرساً على البوابة، وقال القدامى :

- أية عربة تمر من البوابة، بها رتب عالية، لابد أن تعظموا

مرت عربة، ضربوا سلام سلاح، دون أن يجروا أحدهم على النظر، والتحقق ممن بداخلها. وعلى مقربة، كان القدامى يمسكون بطونهم، وهم يلتون من كثرة الضحك. وصاح أحدهم :

- عربة زبالة يا بهائم.

سأل أحد التلاميذ، عن مواسير النابالم.

ضحك صفوت، وقال :

- مواسير النابلم .

اقترح أحدهم ، أن تعبر وحدة صاعقة ، وتقطع المواسير الموصلة إلى القناة ، من خزانات النابالم على الضفة الشرقية ، حتى لا تشتعل فور وقوع الحرب ، وتحيل سطح القناة إلى جحيم . ولكن هذه العملية ، قد تُكشف ، ويمكنهم إصلاحها بسهولة .

اتفق علي سد فوهات المواسير في الماء ، بالأسمنت . لكن الأسمنت سريع الشك لم يكن متوفرًا في مصر ، فاستوردوا كمية بسرعة من أوروبا . وبقي مشكل .. الأسمنت في حاجة إلي شبكة حديدية ، حتى يتماسك . لو تصرفوا مثلما يفعل البنائون في الخرسانة المسلحة في إقامة البيوت ، سيستغرق ذلك وقتًا ، وهم يريدون العمل والانتهاء عشية الحرب ، دون أن يشعر بهم أحد .

وجاءت الفكرة من أحد الجنود . البقالون في الريف يعلقون علي حيطان محالهم سلالا منسوجة من الأسلاك ، يحفظون فيها البيض ، المعروض للبيع . وهذه السلال في حجم فوهات مواسير النابالم .

اقرب وقت العصر . لا يصح تركها تنتظر . عزمه القائمون علي الرحلة ، ليستريح معهم في أحد المقاهي ، وشرب شئ مرطب . تعلل بموعده في المنصورة ، فأخبروه أنهم يستطيعون توصيله في طريقهم إلى دمياط . استأذن ليغير ملابسه . وفي البيت تناول لقمة كيفما اتفق ، وتناول بنظولًا وقميصًا مكويين . استعرض ثنية البنطلون ، وكان يفضلها حادة كالسيف . لحظته صفية وقالت :

- إلى أين العزم .

رد مداعبا :

- عندي فرح

- من إن شاء الله

إمعاناً في المداعبة :

- حمدي .

سهمت برهة ، وقالت :

- يا دمك .

تطلع إلى ساعته . لا وقت ليحلق ذقنه ، وقد تفوته عربة الرحلة ،
ويتأخر أكثر ، فتغضب حمدي ، وتفقد روحها المرحية .

كانا يسيران غداة الحرب في حي الأربعين بالسويس . وأنقاض البيوت
في كل مكان .

قالت حمدي :

- الفقراء دائماً قاربنا ، يضرب زلزال بيوتهم فتقع ، تقوم حرب ،
بيوتهم تقع ، لماذا لا يسكنون عمارات حديثة .

تصعب وقال :

- ليس لهم حق

طالعتهما بعض العمارات ، وقد أحدثت الطلقات ، والدانات ، بعض
الثقوب في الحيطان ، والشرفات ، لكنها متماسكة ، بخرسانتها المسلحة .
وتساءل صفوت : هل طمع الإسرائيليون في الاستيلاء علي الإسماعيلية ،
أو السويس ، لإحداث فرقة إعلامية ، تطغى ، علي ما أحدثه تحطيم مصر
ليخط بارليف واستيلاؤها عليه ، من أثر في العالم .

وعندما لم يتحقق لهم ذلك ، وانكشف نشرهم صور الأسري المصريين
عام 67 في صحف أوروبا وأمريكا ، علي أنها صور من حرب 73 ،
أشاعوا أنهم حاصروا الجيش الثالث في سيناء . وتذكر ما رواه له صديق
من الصاعقة ، كان ضمن قوات الجيش الثالث غرب القناة . بينما كانت
الطائرات الإسرائيلية نشطة علي طريق مصر السويس لقطع الإمدادات ،
عن بعض قوات الجيش الثالث في سيناء وعن مدينة السويس ، جمعهم

قائدهم وطلب نقل كميات من الأدوية والمحاليل الطبية للنقاط المتقدمة في سيناء . تسابقوا للمهمة ، فأجري القرعة ، وكانت من نصيب صديقه . وتألفت عيناه بالبريق وهو يخبره ، أنها أعظم رحلة في حياته . شعر بقمة المتعة ، حين اعتلت سيارته المعبر فوق القناة . قصف الطائرات لا ينقطع ، ودوي المدافع حوله ، والماء تحته ، والسماء فوقه ، وسيارته ، تكاد تطير ..

وسحبت إسرائيل قواتها من الغرب ، بعد وقف إطلاق النار ، دون أن تطلب مصر ، ودون أن تنص علي ذلك ، اتفاقية الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، ففيم كان عبورهم إلي غرب القناة .. ؟ ! .

خطا صفوت ليعبر الشارع . وهو يلحظ بعينه ثيتي البنطلون ، يتأكد من استقامتهما . مرت أمامه عربية مسرعة ، أحدثت عجلاتها طرطشة من ماء في مطب . وقف متضايقاً .. رغم علمه ، أن هذه الطرطشة ، لن تلبث أن تجف ، وأن أية حبات من الطين قد تعلق بينطلونه ، يمكن فركها ، بعد قليل ، بسهولة .



حين تلقي صفوت مكالمة حمدية التليفونية ، للقاء حمدي ، أشفق علي نفسه ، لا يريد أن يسمع سخافاتة .
 ايشي ايشي ضرب البلد ومشى .
 رد عليه ، كما النكتة ، بهتاف أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي (التنظيم السياسي الوحيد وقتها) :
 - ناصر .. ناصر .
 أجابه بلهجة السادات الممطوطة :
 - الله يرحمه .
 وضحك متهمًا إياه أن به عرقًا ناصريًا ، فرد عليه وأنت بك عرق ساداتي ، وأراد إغاضته :
 رفع السادات رأسه من النعش ، وسأل وزير الداخلية :
 - كم عدد الحضور في الجنازة .
 - 99.9.850 (إشارة إلي نسبة الأصوات ، التي يعلنها وزير الداخلية ، في كل مرة ، على استفتاء رئاسة الجمهورية أن الرئيس حصل عليها) .
 - ادفن .
 دخلوا نقطة في خط بارليف ، وجدوا بعض القتلى ، بينهم صبي صغير ، حاروا في أمره . قال أحدهم لعله طالب في مدرسة ، وكان في رحلة لمشاهدة خط بارليف .
 - وهل يأتي وحده :

- ادفن

لم يرد أبداً للأمر أن تصل بينهما إلي هذا الحد ، لكنها دائماً تفلت منه . هل يذهب للقائه والسلام .

أخبرته حمديّة أن زميلاً قديماً له في الزقازيق ، عنده ورشة للحام بالأكسوجين ، ونظرا لكبر سنه يريد من يطمئن إليه ، ويحل محله إذا غاب .

على قدر ما انبسط ، علي قدر ما امتعض . لم يكن يريد لها أن تأتي من جهته . الرجل أتعّب نفسه ، وحادث شقيقته ، ودبر لك موعداً 0 فلماذا لا تكسبه في صفك .

علموا أن الإسرائيليين ، يبنون مطاراً وقاعدة عسكرية بالقرب من شرم الشيخ . لابد من الاستطلاع . أقلعت طائرتان والشمس في عيون الإسرائيليين ، بين العصر والمغرب ، وحين عادتا ، كانت الشمس قد تحركت وأصبحت في عيونهم أيضاً .

لم يستقر على قرار ، فنهض وشغل التلفزيون . كانت الراقصة المصرية نعيمة عاكف ترقص في مهرجان لرقصات الشعوب في موسكو ، وفي خلفيتها جدارية فرعونية ، حيث راقصة تتمايل على ايقاع من يصفقون على الواحدة ، ولفت انتباهه رشاقة نعيمة ، التي لم يلحظها من قبل في أفلامها .. وكأنها ترقص على ايقاع المصنفين .

كانوا يشاهدون فيلماً عربياً ، ودخل حمدي ، حين كانت راقصة تتهادي كمهرة تتعاجب بنفسها . جلس دون كلمة ، وعينه لا ترمشان . وعندما أدرك أن صفوت لحظه ، هرب بعينه وتوه في الكلام . عجب صفوت من التوافق بين الراقصتين .. هل هي براعة من المصور ، أم من المخرج .. أم هي رهاقة نعيمة عاكف .

كان لابد أن يتم الكوبري في الوقت نفسه الذي يتم فيه إنشاء فتحة في السد الترابي في الغرب الذي يستر قواتنا . لو تمت الفتحة قبل الكوبري، قد يعبر منها الإسرائيليون ، لو الكوبري تم قبل الفتحة ، قد يقصفه الإسرائيليون ، ومن الممكن أن يعبروا فوقه .

إذا لم يذهب للقائه ، سيفتح على نفسه فتحة ، لن يستطيع سدها بأي عذر ، ولن يسلم من لسان حمدي .

وكان لابد ألا يعرف العدو أين الفتحات الرئيسية ، وإلا عرف أين سنضع الكباري. عملوا مئتي فتحة تقريباً ، وسدوها بشكائر من الرمال. وحضر أهالي بليس للمساعدة . وكانوا يحضرون الكباري من القاهرة إلي الجبهة ، ثم يعودون بها ثانية ، وهكذا دواليك ليموهوا علي عدو معه مخبرات الدول الغربية ، بأقمارها الصناعية واستطلاعها الإلكتروني . فقد سبق للصهاينة خدمتهم . خدموا المخبرات الألمانية في الحرب العالمية الأولى ، وعندما لاحت الهزيمة ، نقلوا أسرارها إلى بريطانيا ، وحصلوا على وعد من الوزير بلفور بتمكينهم من فلسطين. وحين استقلت مصر والعراق ، وبدأ نفوذ بريطانيا، يضعف في المنطقة ، نقلوا ولاءهم إلي أمريكا ، التي كانت شركاتها تنقب عن النفط في الأراضي العربية .

قال حمدي :

- تسرع العرب في ضخ النفط ، وإسرائيل ما زالت جاسمة في المرتفعات السورية (الجولان) والضفة الغربية ولم تعد بشئ ، بينما كان الناس في أوروبا وأمريكا واليابان يرتعشون من احتمال استمرار وقف الضخ والشتاء على الأبواب .. وكثير من مصانعهم مهدد بالتوقف .

قال عبد السلام فاروق ، وكان حاضرا :

- فعلها كيسنجر ، وضحك علي العرب .. ضحك حمدي وقال :
- الأغرب أن الأمريكيين صرحوا أنهم فى طريقهم لإيجاد بدائل للنفط . واسترسل فى الضحك بتؤدة .. وقال :
- هل سيستخرجون من الطاقة الشمسية ، أو من طواحين الهواء أليافاً لمصانع النسيج ، وعشرات المواد الكيماوية ، و مواداً لصناعة المنظفات ، والقار ، ووقوداً لتطير الطائرات ، ولتسير العربات .
- غمز عبد السلام فاروق بإحدي عينيه وقال :
- وماذا عن السادات .. ألم يتسرع ..
- نظرا إليه مستطلعين ، فاستمر :
- تعجل فى فك حصار باب المندب ..
- استرد حمدي نفسه ، وقال :
- آه .. عندك حق .. كان البحر الأحمر قد أصبح بحيرة عربية ..
- ومراكب إسرائيل ، محملة بالبضائع فى المحيط . عاجزة عن الوصول إلى إيلات .
- عقب عبد السلام فاروق ، ضاحكاً :
- قصدك قرية أم الرشراش ..
- تطلعت العيون فى تساؤل ، فاستمر :
- حتى بعد حرب 48 .
- حار صفوت فى أمر حمدي .. ساعة ساداتى .. وساعة لا يعرف له ملة .
- كانوا يجلسون ساعتها فى نادي الضباط بالإسماعيلية . فجأة هل عليهم شاب فى منتصف العمر . رحب به عبد السلام فاروق مبالغاً ، وهو يقول :
- أقدم لكما كلیم السادات .. !

وبينما يتقدم نحوهم ، فوق النجيلة ، حذره عبد السلام من الجنائني ،
لكن هذا لم يعبأ ، وأولاه ظهره ، فانفع الماء من الباشبوري ، الذي كان
يعدله ، فوجد نفسه فجأة ، غارقاً بالماء ، وعلا صخبهم ضاحكين .

أخبر صفوت زميله فى الصاعقة ، أنهم فوجئوا بثلاثة جنود يعبرون
معهم . كل منهم فوق « طوف » أسفله مضخة ، ومثبت بها ماسورة فى
نهايتها باشبوري . وفى الضفة الشرقية ، سدّدوا خراطيم من المياه القوية ،
أسفل السد الرملى فانهار كالحلاوة الطحينية ، كان أحد الضباط مهندساً
فى السد العالى ، وتخلّفت عن العمل أكوام من الرمال والحجارة ، فوجد
أن أسهل وأسرع وسيلة لإزاحتها من الموقع ، استخدام الماء .

ولم تكد الفتحة تتم ، حتى توالّت موجات من الجنود . ورغم رصاص
مدافع مزاعل الحصون المنهمر كالمطر ، وقذائف الدبابات ، وقنابل الطائرات ،
استمر التدفق . وقطب الزميل جيبينه واكتسبت عيناه حدةً : كان لازم لرد شرفنا
بعدا ما حدث فى 67 أن يعطيني العسكري الإسرائيلي ظهره ..
- أنت موعود .

قالها عبد السلام وهو يفسح لصديقه مكاناً ، ويهون عليه ، أن الهواء
لن يلبث أن يجفف ملابسه ، واستطرد :
- رائد ناجى خضر ..

عقب حمدي :

- وكليم السادات ..

عاودوا الضحك وألمح أحدهم إلى تصريح بيريز زعيم حزب العمل
الإسرائيلي الذي سخر فيه من النّبي موسى ، كليم الله ، مما أعطي فرصة
للمعارضة الإسرائيلية لمهاجمته .

قال عبد السلام فاروق :

- ألسنا أولي بالدفاع عن النبي موسى .. علي الأقل مصري ، ولد وتربي هنا .

سأل ناجي خضر :

- وماذا يقي لليهود .. ؟!

قال حمدي :

- وهل تظن أن يهود إسرائيل ، أحفاد يهود النبي موسى .. هؤلاء ، أولاد ناس من إمارة الخرز الروسية ، اعتنق أميرهم اليهودية في القرن الماضي وتبعته رعيته .

قال عبد السلام مؤكداً :

- جاءكم كلامي .. نحن أولي بالدفاع عن موسى .

قال حمدي :

- علي أية حال .. دعنا من هذا الآن .. خلنا في كليم السادات .

قال ناجي خضر :

- كنت أقود فصيلة مشاة في الغرب ، بالقرب في منطقة البحيرات ، وإذا بالتليفون يرن ، والمتحدث الرئيس السادات . طبعاً ارتبكت ، وأخبرته عن وضع المتسللين في الثغرة ، كيفما تبادر إلي ذهني وقتها . أعطاني تعليمات بكيفية مقاومتهم ، نفذتها على الفور ، واتصلت لأبلغ قائد المنطقة ، فوجدت الأمر صدر بنقله . وآخر من القاهرة على وصول . قلت في نفسي .. حتي يعرف القائد الجديد وضع القوات علي الطبيعة يلزمه يومان علي الأقل ، تكون قد حدثت فيهما أمور ، خاصة والوضع يتطور من دقيقة إلى أخرى . وتصرف كل منا علي عهده .. وحين حضر

القائد الجديد ، كانت الأوضاع قد تغيرت ولم يستوعب الموقف ، فنقلوه ، وأصبحنا فى انتظار آخر ، ونحن نعجب ، لماذا لا يعينون قائدا من هيئة العمليات عندنا ، علي الأقل أصابعه فى الصورة .

أحس صفوت بصداق شديد ، وأن رأسه ستنفجر ، فانتبه إلي أن التليفزيون شغال فقام وأغلقه . اقترب موعده مع حمدي ، ولم يزل متردداً ..

لماذا يساعده الآن .. هل أدرك أن شقيقته متعلقة به ، ومن الصعب إبعادها عنه ، أم أنه لا يربط بين مساعدته ، ورغبته فى الارتباط بحمدية .. هل هذا ممكن .. ربما بالنسبة لغريب .. أم هو .. لا يعتقد .. أم تراه يود مساعدة صديقه الزقازيقي .

ارتدي ملابسه فى تكاسل .. وغادر بيته فى العرايشية ، يسير علي مهل .. ليصل فى موعد تحرك الباص إلي الزقازيق بالضبط ، حتي لا يضطر إلي الحديث معه .. دائماً رده حاضر .. عندما أبدي له مرة ، ملاحظة ، على استحياء بهذا الشأن ، هز كتفيه وقال :

- أبداً .. كثير من هذه المعلومات موجودة فى الجرائد اليومية .
ابتاع جريدة ، يشغل نفسه بها فى الباص ، فلا يضطر إلي الالتفات إليه . تعدي المحطة حيث الموعد ، وسار حتي عمارة ذات بواك ، أسفلها مقهي ، ليشرب فنجاناً من القهوة ، وطالعه على الحيطان ، صور لرضا لاعب النادي الإسماعيلي الشهير ، وضحك من عبارة تحت إحدي الصور : شهيد الكرة المصرية .

سأل عبد السلام فاروق ذات مرة :

- حقا .. لماذا هذه الشعبية للاعبى كرة القدم ..

ولم يكن الرد جاهزاً هذه المرة ، ذوي حمدي ما بين حاجبيه ، وقال
بتؤدة :

- يبدو لي .. والله أعلم .. لأن أغلب لاعبيها تربوا في الحارات
الشعبية .. حيث اللعب والشقاوة والترقيص بالكرة .. وحيث تصقل
مهارات الموهوب منهم .. وفجأة يجد اللاعب نفسه في التليفزيون
وصوره في الجرائد .. ويخطب وده أصحاب الخطوة والمال .. وعندما
يوجد أحد الفقراء في الضوء .. فكأنه يرد الاعتبار لأهله من الفقراء ،
فكيف لا تتحمس له الأحياء الشعبية .

ابتسم عبد السلام فاروق ، وقال :

- تحليل ماركسي ، لا يخبر الماء .. !

ضحك حمدي وقال :

- أنتم تظلمون الماركسية .. ليست أكثر من منهج في التفكير ، أو
طريقة في النظر إلي الأمور .

بغته ، بتنمر ، قال عبد السلام فاروق :

- وأين كان هذا المنهج يوم إعفاء الخبراء الروس .. ؟!

انتبه حمدي كمن فوجئ .. تريث وهو يشمل به عينيه ، وقال :

- نعم .. كانت الإشارة واضحة .. لكننا لم نفهمها .. ففي الوقت الذي
كان السادات يريد لها معركة مصرية مئة في المئة .. اعتقدنا أنه بإخراجه
الخبراء الروس من مصر ، يتخلى عن المعركة .

اعتدل عبد السلام في جلسته ، ووشى ألق عينيه ، أنه انتزع منه شيئاً ،
بينما استطرده حمدي :

- لم نكن وحدنا ..

- عاجله عبد السلام :
- لا تتمحك في الناس .
- ضحك حمدي وقال :
- هل نسيت النكتة الشهيرة .. ركب السادات الباص وسأل عن اتجاهه ،
وحين أخبروه : التحرير ، قفز مسرعاً وهو يقول أنه ذاهب إلي العتبة .
- أكمل عبد السلام :
- ميدان العتبة .. ولم يقل العتبة البيضاء ، (عتبة البيت الأبيض في
واشنطن) كما أشعتم .
- وهل خاب حدسنا ..؟! ..
- صمت عبد السلام ، فاستطرد حمدي :
- فعل هذا وكيسنجر يلهث بين السعودية والأردن .. خوفاً من فتح
الجبهة الأردنية، التي كانت تعني نهاية إسرائيل .. وكانت القوات السعودية
قد دخلت الأردن بالفعل والقوات العراقية في طريقها من الأردن للحدود
السورية ..
- وعلى فكرة نحن لم نعترض علي خروج الخبراء ، ولكن علي طريقة
إخراجهم ، التي بدت مهينة ، دون كلمة شكر .
- وتذكر صفوت ما حدث في الجبهة في أواخر حرب الاستنزاف ، حين
زحف حائط الصواريخ .. ففي نهاية اليوم الثامن من الزحف ، دخلت
طائرات «الشبح» الإسرائيلية المعركة ، وأجهزة التشويش ، وفقدت
قوات الدفاع الجوي ربع رجالها تقريباً.. أسرع القوات الروسية من
مشارف القاهرة وسدت بعض الثغرات ، حتي رجعت المبادرة إلى أيدي
قواتنا .

وسأل ناجي خضر :

- وهل فهمت أمريكا بجلال قدرها . . ؟!

ضحك حمدي بطريقة صاخبة ، وهو يخطط المنضدة بيديه ، وهم يطلبون منه أن يهدئ اللعب . قال من بين همهمات :
- بدل أن يتفهموا مغزي إنهاء مهمة الخبراء الروس ، طلع علينا

كيسنجر ، وكان وقتها مستشارًا للأمن القومي ، بالإضافة إلي وزارة الخارجية ، مصرحًا :

لو كان السادات طلب ثمنًا لإخراجهم لأعطيناه . وبدا سعيدا ، معتبرًا
أمريكا كسبت نقطة مجانا في سباق النفوذ في منطقة الشرق الأوسط . .
ولبس السادات مسوح الأخلاقيين ، ورد أنه تصرف من وحي مبادئه ،
دون النظر إلي ثمن أو خلافه.

شرب صفوت قهوته ، ونهض في طريقه إلي محطة الباص . . لاح
في ذهنه مارده عبد السلام فاروق ، يومًا نقلًا عن اللواء جورج ، أنه لولا
قاعدة برتغالية في جزر الأزور ، في آخر لحظة ، سمحت لطائرات أمريكا
، بالتزود بالوقود ، ما أمكن نجدة إسرائيل ، حيث كانت الطائرات تهبط
مباشرة في مطار العريش ، علي بعد قليل من الجبهة ، لتزودهم بالدبابات
والعتاد الحربي . وتعليق حمدي ، مرة ، أنه يعتبر كسبنا لمعركة 73 ،
تجربة (بروفة) لكسب الحرب وعودة فلسطين عربية . قالها بثقة أغاظت
صفوت ، وتساءل :

من أين له هذا اليقين . . ؟!



حار سعد، كيف يسلك..؟!

خال ندا يود عقد القران فى العريش، وندا تود أن يتم ذلك فى قريتها بالوظة، إكرامًا لأهلها، ولأمها، التى لن تستطيع الحضور، لو عقدوا فى العريش. أسر بالموضوع إلي الباشمهندس حمدي، واقترح أن يعقد فى العريش، ويزف فى بالوظة: ضحك حمدي، وقال:

- فرعون حضرتك.. تزف عبر سيناء..!
- حاولت إقناع الخال، للانتقال إلى بالوظة فرفض.
- قال حمدي:
- الخال معذور.

أصبح تقليدًا، عقد القران، فى مسجد العباسي بسوق الخميس منذ الاحتلال الإسرائيلي. فحين تصدع الجامع، أعاد الأهالي بناءه، ضد رغبة الإسرائيليين الذين كانوا يخشون من تجمع الناس فيه، وجعلوا.. كل زيجاتهم تتم فيه.

وكان الأهالي يسارعون، بتزويج من يبلغ مبلغ الشباب، خشية تعرضهم للغواية، فقد انتشرت أفلام الجنس، وانتشر الفيديو، ووصل إرسال التلفزيون الإسرائيلي إلى العريش، وكان يث فيلماً جنسياً ليلة الجمعة من كل أسبوع. أما البنات، فقد فرض عليهن الأهل الملابس السوداء التى تغطي البنت من أساسها إلي رأسها، حتى لا تتعرض لأيّة معاكسة من جنود الاحتلال.

- سأل سعد:
- ماذا أفعل لأرضي الطرفين .. ؟
- تفكر حمدي برهة، وقال:
- وماذا عن ندا .. ؟
- اقترحت أن نقيم حفلاً للعرس في القرية، ونوزع «الشربات»، ولا تتم الدخلة، وفي اليوم التالي، نحضر إلي العريش، ونعقد القران في المسجد العباسي، ومن استطاع من أهلها فليحضر.
- خير ما اقترحت ..
- ظل سعد علي تقطبية وجهه. قال حمدي:
- ماذا أيضاً ..
- تردد سعد، وهذا يستوضحه، حتي انطلق البخار المحبوس، فدفع الغطاء، وانهالت الكلمات:
- لا أريدها أن تعمل .. !
- نظر إليه حمدي دهشاً، فاستمر:
- ألم تر كيف نظر لها مفتش الزراعة .. ؟!
- هل أكلها .. ؟
- خفت درجة حرارة البخار، وقل اندفاعه:
- أنت يا باشمهندس ..
- هذه تعمل .. ومعرضة للحديث مع هذا ونظرات ذاك.
- ألم تلاحظ نظراته ... ؟
- أخذ حمدي كفه اليسري في يميناه، وقال:
- لنفرض أنها لا تعمل .. ألا تسير في الشارع .. كيف ستمنع نظرات الناس عنها ..
- أطرق سعد، ولم يشأ أن يخبره بما دار بينهما، حين طلب منها ترك العمل بعد الزواج، فنظرت إليه من فوق لتحت وقالت وهي تشهق: أعود

للرعى..؟!

وفى معرض حديث قالت: كنت أحس بالسأم. أنظر إلى الفضاء حولي، أتشق علي قطرة ماء، أو قطعة أرض بها عشب. ساعات طوال أفقد فيها روحي، ولا أحس بنفسى، إلا بعد عودتى، والحديث مع أمي وأخي.

قال متحليًا بالصبر: يا بنت الحلال.. إذا لم أكفك مؤنتك لك الكلام.

قالت ليست الحكاية، مؤنا..

غرزت الجرافة. فرش حصيرًا لا يقل طوله عن اثني عشر مترًا. سارت الجرافة، واختلط عرقه بالرمل. مهدوا الطرق من مواقع الكتائب، إلى شاطئ القناة، من عشرين إلى أربعة وعشرين كيلو مترًا تقريبًا. ولم يشعر بالراحة إلا بعد انتهاء هذه المحاور، وعندما رأى الدبابات والعربات تسير عليها، زال تعبها.

فجأة جاءه أمر:

- خذ عربة واحضر التعيين.

ربت بيديه علي حديد «الجرافة»، وأحس بظهره ينقصف.

وثب قلبه وهو يمشي بها فوق المعبر، ولم يكن الجنود مصدقين، أنه يستطيع العبور إلي سيناء، استعدل بالعجلتين الأماميتين، وجعلهما في الوسط، وجعل العجلات الأربعة في الخلف، تحف بالكاد، بجانبى المعبر، ورفع سكين تسوية الأرض بميل خاص، خشية أن تصطدم بالمعبر، فيسبب مشكلًا لمن يعبر بعده.

ذهب إلي منطقة وعرة مطلوب تسويتها، أنزل المحراث في الأمام، بأسنانه الخمسة، وشرع في العمل.

سأل حمدي، إذا كان أحضر قش الأرز عندما كان في المنصورة، فأوماً بالإيجاب، عندئذ طلب من ندا وبعض العاملات، أن يضعنه حول

الشجيرات.

ابتسم سعد.. كان حمدي متوجسًا بالأمس من ريح محملة بسف الرمل، وتساءل في استنكار، إذا كانت رياح الخماسين أتت قبل الأوان، مشفقًا أن تقتلع الشجيرات التي زرعت مؤخرًا. وإزاء باله المشغول، لم يستطع أن يذكره بوعده بمكافأة إذا أحضر المطلوب.

خف قصف السويس، وبالقرب من الكيلو 101 وجد زميلين قديمين. ما أن رأياه حتي انفجرا ضاحكين، وهما يشيران إلى قدميه. خمن ما يدور في ذهنهما. من سائق دبابة في انتظار استعاضتها، عندما عطبت، إلي سائق جرافة، عند الحاجة، إلي سائق عربة جيب، لتلبية أي طلب، إلي سائر علي قدميه. أشار إليهما، ليستأنفا المسير معه إلي سيناء. طلبا منه أن يجلس معهما قليلا، حتي يصطادوا عربة. قال سعد فجأة:

- لماذا لم تركبا الباص. رد أحدهما:

- فال الله ولا فالك.

كان الإسرائيليون قد اصطادوا باصاً، أجلسوا فيه نفرين معهما ببطاقتا هوية مصريتين، أفلتا من الشرطة العسكرية، وأذاعا في مكبر للصوت بالعربية في مدخل مدينة السويس.

- الجنود الذين يودون المغادرة، عليهم الحاق بالباس.

ركب بعض الجنود، أخذوهم أسري.

استراحوا قليلاً.. وإذا بطائرات تناور.. تعلو وتنخفض.. وقذائف تنطلق.. والطائرات تتفادها.. لبست قذيفة في طائرة، وتساعد دخان، وقفز اثنان بالمظلة. جروا ليشاهدوا الطيارين.. ولأن الرؤية واضحة.. ظنوهما في مكان قريب.. جروا مدة طويلة.. وكلما ظنوا أنهم وصلوا.. عاودوا الجري.. كانوا يريدون مشاهدة عملية الأسر.. وفكرة تدور في

أذهانهم.. ربما لم يصل أحد قبلهم فيقومون بالأسر، ويحوزون شهرة، وربما مكافأة.

فوجئوا بجنود كثيرين، من وحدات مختلفة. لمست المظلتان الأرض. نظر سعد لزميليه وضحكوا. مظلتان مصريتان. أصيب الطياران ببعض رضوض وجروح. وسرعان ما اقتحمت سرية طبية المكان، وحملت المصابين. وحتى لا يخرجوا من المولد بلا حمص، أخذ كل منهم قطعة من حرير المظلة كتذكار، ولكم أدهشت سعد نعومتها الفائقة.

تطلع سعد إلي ندا المنهمكة في العمل، يود انتهاز فرصة، ليومئ لها، ويخبرها أنه سيمر عليها عند خالها، بعد انتهاء العمل. لكنها لا تنظر ناحيته... طبعاً شائلة منه.. وظلت علي عنادها حتي غادرها بالأمس.. كانت تضع حزاماً حول وسطها.. حاول مداعبتها، حتي يصرف عنها. مد يده ليجعلها تخلع الحزام، وكأنه يمد يده في حقل ألغام، وكان الخال علي وصول.

كانت غشة آخر الليل في سيناء، وسرية تزرع حقل ألغام، وسعد يقف علي مقربة من عربته، التي أقلتهم. شعاع خافت لاح كومضة خاطفة. تسمرُوا في أماكنهم، والتساؤل في عيونهم: هل هو أشعة تحت الحمراء. ارتجفت أجسادهم. لو حدد الإسرائيليون مكانهم، طلقة واحدة تفجر الموقع كله.

لم يشأ الإلحاح أكثر من ذلك. وهذه لدهشته خلعت الحزام، كان أحمر عريضاً. وبانت سفرة الصدر حمراء، بخطوط مستطيلة من زهرة الفل صفراء وسماوية. اقترب منها. تعبيرات وجهها جامدة. نهض متعثراً في خطواته، كأن بنظونه انزلق عنه.

بدا الأسير مذعوراً، مهدل الثياب، وقد انحسر بنظونه عن وسطه، يمسكه بإحدى يديه، حافياً، ذقنه نابته.

ظل صامتاً، رافضاً الإجابة عن أي سؤال. لم يسفر التفتيش الظاهري،

عن شئ يدل علي حقيقته. لكن سحته ونظراته، جعلت قائدهم يشك أنه ضابط، وربما ضابط غير عادي. أمر بتفتيش ملابسه الداخلية.. عثروا معه علي خريطة، عليها علامات وأسهم، وكلمات بالعبرية. حين انتزعوها منه، تخلي عن هدوئه، وقاوم معرضاً نفسه للقتل، وخطفها وكاد يأكلها، لولا تكاتفهم عليه، وانتزاعها منه.

أمر القائد سعداً بتجهيز عربة، لمهمة عاجلة، وعين اثنين لحراسة خاصة لهذا الأسير، وأمر بإطلاق الرصاص فوراً لو حاول الهرب. وكان بالوحدة أسيران آخران، جهز لهما عربة أخرى.

ونبه القائد، أن تسبق عربة سعد، العربة الأخرى بمسافة، حتى إذا تعرضوا للغارة الجوية، لا يضيع الصيد كله.

فجأة لمعت عينا القائد وهو يتأمل الخريطة ثانية. قال:

- هذا طيار.

أخذها منه رئيس العمليات، وتفحصها. قال:

- مواقع صواريخنا في الضفة الغربية.

في صباح السابع من أكتوبر، نشط الطيران الإسرائيلي. ولأول مرة يري الجنود طائراتهم تتهاوي بتلك الأعداد الكبيرة. قبل ذلك، حين كانت تسقط طائرة، كانوا يهللون، ويصيحون: إسرائيلية. وعندما يتعرفون علي علاماتها، تغيم الفرحة، وقد رأوها ميج مصرية. الآن لا يرون العلامة بوضوح فقط، بل يرون قائدها أيضاً.

سلموا الأسري في مركز قيادة اللواء، وتلكأوا قليلاً، ليعرفوا هويتهم. لكنهم في القيادة أسرعوا بهم إلي الخطوط الخلفية، ونهروهم لعدم إسراعهم في العودة إلي وحدتهم.

وكادوا ينسون الأمر، لولا أن القائد فاجأهم، فوق التبة التي يحتلونها، بإشارة شكر من قيادة الجيش. اتضح أن الرجل طيار بالفعل. وأن ما ظنوه خريطة. كان بمثابة تعليمات بقصف مواقع صواريخ مصرية، ومطار

متقدم.

واتضح من استجواب الأسير، أن الأمر جزء من خطة إسرائيلية اسمها «الحزام الأسود» وتعني الاستيلاء على جنوب لبنان، وضم أراضي أخرى من سوريا، وإنشاء خط حصين في سهل الأردن، طبعاً كانوا سيسمون خط ديان، أسوة بخط بارليف. والاستيلاء على الضفة الغربية لقناة السويس، وتشغيل القناة لحسابهم وتحويل سيناء إلي مركز للتجارب النووية. وكان توقيت القيام بهذه الضربة هو الثامن من أكتوبر عام 1973 .

ضرب القائد كفًا بكف، وقال:

- سبقناهم بيومين فقط..!!

تطلع سعد ناحية ندا، ما زالت علي غيها.. فليتظاهر بعدم الاهتمام، لعله يجذب نظرها.

لم يلجأ قائد السرية إلى هذا، إلا بعد أن يؤس من قائد التبة، الرائد عبد السلام فاروق. أنباء الاستطلاع أن الإسرائيليين ينوون شن هجوم مضاد في أول ضوء. ظهر هذا من احتشاد دباباتهم في الطريق القادمة من وسط سيناء، فهم، رغم فشل هجماتهم المضادة، لم يئسوا بعد. والحل هو الاستيلاء على الطريق المؤدية إلي وسط سيناء، واحتلال تباب أمامية، تمكن مدفعيتنا من إجهاض أي تجمع لشن هجمات مضادة. وبهذا يأمنون من الخطر تمامًا. قال قائد السرية:

- يا سيادة الرائد.. الخطر أمام أعيننا.. والطريق تقع في قطاعي.

مال سعد علي جندي الإشارة وهمس:

- متي ترقى

- بعد فتح القنطرة شرق.

أمهلهم قائد التبة، حتي يستأذن، فليست عنده أوامر. كانت حدود رأس كوبري الجيش مرتبطة بمدي بطاريات الدفاع الجوي غرب القناة. ولم

يسل لعاب القوات المصرية فى أى وقت أن تتقدم بضع مئات من الأمتار، لكي تستولي على هيئات ذات أهمية مؤقتة، ربما تركها الإسرائيليون، ليجروا أرجلهم.

زفر قائد السرية، وتمتم:

- رحم الله المقدم،. أكان هذا وقته...

ملمحا إلى استشهاد القائد السابق، عند اقتحامهم مركز قيادة، أقامه الإسرائيليون خلف التبة، وكان من دورين ومجهز بكل الأسلحة والمعدات الإلكترونية للاتصال بالنقط الحصينة. والتبة على ارتفاع أكثر من سبعين متراً عن سطح البحر، وطولها يقرب من ألف وخمسمئة متر وعرضها حوالي خمسمئة متر، وتبعد عن القناة تسعة كيلو مترات.

واتضح من تعبيرات جندي الإشارة، أن قائد التبة، لم يوفق بعد فى الاتصال بقيادة اللواء. صرخ قائد السرية:

- يا أفندم التشكيل الإسرائيلي يقترب، أخذوا مواقع هجومية، وواضح من ترتيب الدبابات أنهم يفكرون فى الصعود إلينا.

- لابد من الترخيص بالضرب.

- نكون الله يرحمنا.

والتفت إليهم ونادي:

- سعد

- أفندم

- استعد بالجرافة

فهم ما يعنيه. يتظاهر بإصلاح الطريق الصاعدة إلى التبة، فيتوهم الإسرائيليون أنها غير صالحة للاستعمال، فيستديرون إلى الطريق الخلفية، حيث الدبابات المصرية فى حفرها. وحيث تطولهم مدافع الجانبيين.

قاد سعد الجرافة، وخلفه سارت ثلاث دبابات.

وتأكد أن الإسرائيليين شربوها، من ضرب مدافع دباباتهم العشوائى.

خمنوا إصابتهم بالدهشة، وقد رأوا الدبابات المصرية خلفهم، يساندتهم حملة الـ آر - ب - ج، من الجانب الآخر للطريق. وسرعان ما سيطروا علي التباب الحاكمة، وصبت المدافع المصرية نيرانها من بعيد. وبات واضحاً تعذر اقتراب الإسرائيليين من تبتهم العالية.

وهلل الجنود:

- الله أكبر. الله أكبر..

وقد رأوا الإسرائيليين يقفزون من فتحة البرج في الدبابات، وبعضهم يرفعون أيديهم استسلاماً.

وجاء صوت قائد التبة، يُعلم قائد السرية، أن قيادة اللواء علي الخط فماذا يقول:

- قل أمناً الموقع، وتقدمت قواتنا إلي الأمام.

وبينما يتحفظون علي الأسري، ويعدون عربة لنقلهم إلي الخلف، ويعينون الحراسة اللازمة، وصلت إشارة من قيادة اللواء، تشكر قائد التبة، علي ما قامت به قواته من تأمين لحد اللواء الأيسر.

نظر الجنود لبعضهم بعضاً، وانفجروا ضاحكين.

ضبطها متلبسة بالنظر ناحيته. دارت ابتسامة والتفتت بسرعة.

بعد قليل، اقترب منها، وقد لاحظ ابتعادها عن الزملاء والزميلات. تأمل وجهها بين الشجيرات.. وشيئاً فشيئاً، تخلى عنها حياها واستجابت لابتسامته، بتحفظ قال:

- سأمر بعد المغرب.

أومأت بذقنها في ثقاقل إلي أسفل.

منوا النفس بقضاء، ليلة هادئة. لكن قائد التبة أعاد تنظيم الموقع. أمر بسحب الجرحي من أسفل التبة إلي أعلاها. وعزز المدافع في العالي بمدافع من الوحدة التي يحرسون جانبها الأيسر، حيث لم تتعرض لاشتباك مباشر حتي الآن.

وأمر بالانتباه طوال الليل، مذكراً إياهم، بمقدرة الإسرائيليين علي شن هجوم ليلي، وتحديد أهدافهم بدقة، بالأشعة تحت الحمراء. وبالفعل عاود الإسرائيليون القصف، من مدافع بعيدة المدى، جانباً كبيراً من الليل. وبعد أن اتضح لهم، قدرهم، أن يظلوا فوق هذه التبة، إما أحياء يحتلونها، أو أمواتاً يرحمهم الله، خلت تصرفاتهم من العصبية، وجنحت إلي الهدوء.

وأفاد جندي الإشارة، أنه ولف جهازه اللاسلكي علي ترددات الإسرائيليين، والتقط بعض إشاراتهم. سجلها ولم يفهمها. ولما لم يكن معهم عامل شفرة، أمر قائد التبة أن يبرق بها إلي قيادة اللواء. بعدها، عم التبة والصحراء، سكون متربص. ومر الضباط وضباط الصف علي الجنود في أماكنهم يطمئنون إلي يقظتهم. وأمر قائد التبة أن يأكلوا، وأن يشربوا من علب العصائر حتي لا يغفو أحدهم. وحذر ألا ينخدع الجنود بهذا السكون الذي حط فجأة، فربما يدبرون شيئاً، وزيادة في الحيلة، دفع بجنديين من الاستطلاع، للنزول من التبة، والتقدم علي المحور الأمامي، للتيقن من الأمر. فاجأ سعاداً أحدهم، بكوب من الشاي الساخن. وقبل أن يعلق قائد السرية، أسرع صانع الشاي:

- ولا بصيص ضوء.

وأشار إلي حفرة سُدت فتحتها بغطاء من المشمع، أوقد فيها قرصاً أبيض من كحول جاف. قال القائد بصوت خفيض:

- خل بالك.

سمع جندي الإشارة إشارة تنبيه من جهازه، ترك كوب الشاي الذي لم يكد يصله، مسرعاً، وأسرع إليه. أصغي قليلاً، والتفت إلي قائد السرية:

- قيادة اللواء حلت الشفرة.
أبلغ قائد التبة الذي حضر مسرعاً.
قال جندي الإشارة:

- القائد الإسرائيلي المهاجم، طلب الإذن من قيادته بالكف عن محاولة استرداد التبة، لأنهم - حسب قوله - يرقصون على وقع طبولنا.
احتضن قائد التبة قائد السرية، وأزاح الأخير جانباً من المشمع وقال لمن في الحفرة:

- وزع شايًا علي الباقيين.

لم يكذب ينطق بها، حتي خيل إليهم، أنهم سمعوا حفيف جنازير دبابات. أصغوا وقد امتنعوا عن أية حركة، وعلاهم الوجوم والترقب. قال الرائد عبد السلام فاروق:

- مالكم.. فليحضروا..
وأشار إلى أماكن المدافع:

- عندنا الطبول.

ضحكوا بهدوء، ولم تزايلهم رهبة الموقف تماماً، إلا بعد أن أتى جندي من الملاحظة، وأفاد أنها دبابات مصرية، تعزز الجانب الأيمن. تنفسوا بارتياح. وأمر قائد التبة، أن ينام بعضهم، ليستريحوا قليلاً، قبل طلوع الفجر، وشدد على يقظة الساهرين، حتي يصحو زملاؤهم.



طالع الإشارة بسرعة.

«يرجي الذهاب على وجه السرعة، ناحية قطاع رمانة بالوطة»..
عبر بعينه السطور بسرعة، وتوقف عند «يرفض السيناوية زرع الأرض
بشتلات الموالح». كرمش البرقية في راحة يمانه، وتنهّد في راحة. ظن
شيئاً حدث من مياه البئر، ناحيتهم، وسبق أن طمأنهم، بنتيجة تحليل
مياهاها. أرسل في طلب سعد.

هل يتصل بأُم سمية، ويعلمها بالوضع، اتقاءً لما قد يتفاقم إليه. نحي
الفكرة جانباً. فالمرأة لم تصبح حماته بعد، ولا يود أن يشغلها بمشاكله
منذ الآن، بل ولا داعي مستقبلاً، للاستعانة بما لها من اتصالات ومكانة،
وعلى أية حال ليس من عاداته أن يشرك الآخرين فيما يعتريه. فأشراك
أُم سمية، سوف يعني الإفادة، أيضاً، من نفوذ قبيلتها من الفواخريّة، في
سيناء. وتذكر مغالاتهم عند الخطبة. وأسف لأن سعداً، لن يستطيع، أن
يرد له في وقت قريب قبضيته في الجمعية، تري.. هل ستسهل له الأمر،
كما فهم من تلميحاتها، وتتغاضي عن الهدايا والمجوهرات، أم هو كلام
فض مجالس. عليه أن يسلك، كيفما اعتاد، فربما كان رافضو الزراعة، من
قبيلة السواركة، المقاسمة لهم في النفوذ، فيعتقد المشكل.
لكنها ربما تزعل، لأنه لم يشركها، أو يعلمها. فلتزعل قليلاً.. وبعدها
يكون الأمر واضحاً لها.

ونفي خاطراً، أن تتزعزع ثقتها به.
بالأمس، ساعة العصري، استأذنت لتلحق باجتماع فى المحافظة
وقالت ضاحكة:

- البيت بيتك.

كانا يجلسان متجاورين على الكنبه. تطلعت سمية إلى قدميها فى
خفر، وقالت بصوت هامس:
- دقيقة أعمل لك حاجة.
- أنت حاجتي.

ابتسمت، وكانت لم تنهض. مال رأسه علي جبهتها، وانتظر.. تمازجت
الأنفاس، وقبلها.

أمسك يديها، وتطلع إلى عينيها. افتر ثغرها عن ابتسامة مشجعة.
وبان مقدم لسانها متألقاً. لثم شفتيها، وأحس بثدييها فى صدره، طرين،
حانين، فمد إحدى يديه، وبالأخري ضغط ظهرها.
رفرفت فراشات، وغردت طيور. استشعر نعومة نحرها، ولطشه عبير
عرقها. ونبض الجسدان بالحنان، ووشت اللمسات بالمودة والمحبة،
وازداد الالتصاق، وشم رائحة ماء الحياة فى أنفاسها، وشمتهما فى أنفاسه،
واختلط العرق، وتصادعت الحرارة.

آلاف الابتسامات، والتخيلات، والرغبات المكبوتة، ورؤية الآخر،
وصحبة النساء، وصحبة الرجال، ولحظات التشوق، والتطلع، والفضول،
والانتظار، وكلاهما يتعاطى الآخر، والذرات تطمح إلى الاندماج،
والتداخل، كأنما لتفلت من المحدودية. وفي الصوت غنة، جعلت الطاقة
المبارة، تندفق، مزيلة الغربة فى الرجل وفي المرأة، ولتمسك بالنفسين
معاً، ومزاةة حفل بها ريقها، فتشبث بها فى وله، وهي لا تفلته. ويتركز
كل شئ فى كل شئ، فى بؤرة شديدة الكثافة، كأنها الثقب الأسود فى

الفضاء الخارجي، ولا تتحمل البؤرة، ضغط الطاقة الهائلة، فتنفذ، مما يشبه عنق الزجاجة، وتنتقل فيما يشبه لحظة الانفجار العظيم في الكون، وقد ارتعش الجسدان، وارتجفا، وانبثقت النشوة.

كانت، لم تزل، في حضنه مستكينة، وسعاده غامرة، عندما تسلت العكارة.. انسلت، وجلست في جانب من الكنبه، منتظرة.

لم يدر، كيف يتصرف. نهض كالمخدر، لا يعرف، هل يعني نفسه أم يشفق عليها، أم علي سمية، كل ما يعلمه، بعد أن هدأت نفسه، أنه لم يصل هكذا من قبل، وأن شوقه ازداد إليها. هل هو شوق إلي شخصها، أم لتذوق عسيلتها. وهل بعد أن علم ما علم، سيكون من الحرارة، بحيث ينعقد سكرها، وتنبثق مزايتها، التي تشبه مزازة المشمش، أو الخوخ، ومتي تنبثق مزازة الفاكهة، هل بعد أن تتسلل الريح بحبوب الحب، وتطير الفراشات بحبوب الحب، وتغرد الطيور، فوق الزهور، مداعبة بمناقيرها، ناثرة حبوب الحب.

هل سيعبق عرق سمية، ثانية، بتلك الرائحة، التي شدته أكثر، وأيقظت ذكوره أكثر، فاحتضنها بصدق ورفق وهيام، ولا يدري إلا ومزازة من ريقها علي لسانه وشفتيه، فزاد هياماً علي هيام. لقد ظن وقتها، وقت أن بلغ قمة النشوة، أنه بلغ نهاية المطاف، فما باله الآن، لايري إلا أن هذا هو بداية المطاف.

كان غريباً، أن صفيه، التي سبق لها الزواج، لم تمكنه منها، وسمية التي لم تتزوج تفعل. هل هذا ضد طبيعة الأشياء، أم أن هذا هو طبيعة الأشياء.

يحس الآن بالألم، كلما تذكر منظر سمية، ساعة أن تركها. كانت نظرتها منكسرة، لا، ليست منكسرة، كانت مترقبة، وإن علق بها

ظل انكسار، فبسبب ما قد يظنه عنها، وهي تعرفه. ولم تكن فى نظرتها شبهة ندم. كانت قوية، ومنتظرة.

أين كلامك يا بطل. كل إنسان حر فى أفعاله، مادام ليس مرتبطاً، ولا يسئ لأحد، فلماذا تركتها دون كلمة.

المفاجأة. شوشت الفكر لعدم التوقع. الرغبة فى التفكير بروية. لو كان ما تقوله متأصلاً فى أعماقك، ماتشوشت.

كانت صريحة معك. لم تخذلك. كانت تستطيع الانتظار، حتى تتزوجها، وتفاجأ أن هناك من سار على الدرب قبلك. أتراها أرادت أن تعلمك، لتكون علي بينة. أم تري اللحظة أخذتها، فلم تملك نفسها، وحدث ما حدث.

لا يعتقد، مع فتاة قوية مثلها، ذات نظرات صريحة، وبريئة، نعم هذا ما يحسه، رغم كل شئ. فتاة كهذه، تستطيع أن تقف عند حد معين لو أرادت.. وعلى أية حال من يدري..؟!

بريئة.. هذا ما يحار منه.. وما يحار فيه أكثر، إحساسه أنه ارتبط بها، ولا يدري كيف. وعصف به الألم، فهي تعرف، أنه علم عنها، ولا تعرف ما يفكر فيه. فيم كان تمنعها في السابق. هل لأنها لم تكن وثقت بحبه، وبرغبته الاقتران بها..

وهل تعلم أمها عنها، ولذلك باركت هذا الزواج، رغم فارق السن، أم تراها لاتعلم.

وجدت امرأتك، فماذا تطمع أكثر من ذلك..؟!

كان مارجرس يستطيع أن يصبح أميراً، ويخلف أباه فى حكم مقاطعة اللد بفلسطين، أو يصبح فارساً فى الجيش الروماني، لماذا سلك طريق العذاب، وكان يستطيع الزواج من عروس جميلة ويتمتع بثروة أمه الفلسطينية..؟!

أما لماذا فعلت، مع غيرك، أو كيف، فما أدراك بالظروف،

وكيف تحكم دون بينة، وهل من حَقك أن تدين ماضيًا، لم تكن موجوداً به..؟!

عجب من نفسه وقد أحس أنه يريدُها.
- نحن هنا.

نهض حمدي، كاد يتعثّر في سلك التليفون المدلّي في جانب من مكتبه، تتمّ في سره: السلك ورائي ورائي. ناول سعدا الإشارة. فردّها، ومر بعينه علي سطورها. تطلع إلي حمدي الذي قال:
- سعيد طبعاً.

رد سعد:

- لا.. والله، كان عندي مثلك مشوار في رفع.
طالع الورقة ثانية، ليتيقن من المكان.. عند الطريق الفرعية النازلة إلي العمق، بعيداً عن الطريق الساحلية. أسرعاً خشية أن يصطدم عمال الزراعة بالأهالي.
طالعتهما بالوظة علي البعد، تسبقها واحة من الأشجار المورقة، وإلى يسارها طريق معبدة، غير مرصوفة، قال حمدي:
- أعتقد من هنا.

دون أن يرد، أدار مقود العربة، وأحسا بانحدارها في منزل.
طالعتها أطلال حجرية، بقايا بيوت قديمة. وثمة ما يوحي ببوابة، خلفها كومة من الأحجار. لعلها قلعة تداعت. أتراها بقايا قلعة الفارما أيام الرومان. هل توقف عمرو هنا، وجاءه رسل قبط مصر، مرحبين بدخوله إليها.

انطقي أيتها الأحجار.. هل دفعهم إلى ذلك عسف الرومان. لماذا لم تكن عندهم نزعة الاستقلال. هل لأنهم كانوا ممنوعين من حمل السلاح، أم أن قوانين الصراع في هذا العصر، حتمت أن تسيطر قوة على العالم القديم، فإذا تراجعت أو انهزمت، حلت محلها القوة البازغة. حانت منه

التفاتة إلي مرآة السائق العاكسة، وفزع.. صورته لا تشي بحقيقته الداخلية التي يشعر بها.

خيوط معقودة وسط الجبهة، جفون ذابلة. شفته السفلى متدلية وشيء ما يعتصر وجهه.

اقتربا من الأرض. رمال علي مدي الشوف. شجيرات قرمة علي جانبي الطريق. السيناوية في الأرض، وعمال الزراعة، وهم سيناوية أيضا علي الطريق. أترامهم يوالون بعضهم بعضاً أمامنا . تسابقوا وقد اختلطت الأصوات.

أشار حمدي إلى عماله أن اصمتوا. وجد من الكياسة أن يسمع الآخرين أولاً. من جهة يرضيهم، ومن جهة يكسب ودهم.

اقترب منه رجل ممصوص، أسمر، عيناه ذات جفون حمراء، تساقطت شعيرات من رموشها. وتغير بؤبؤا عينيه من اللون الأسود، إلي أزرق مغشوش. قال:

- خسارة.. الجعيثران.

لحظ حمدي، ولم يكن لفت انتباهه من قبل، نباتاً ارتفاعه شبر أو شبران عن الأرض، أوراقه خشنة، كأنها مشرشرة. استمر الرجل:

- جادت الأرض.. نخر بها.

اقترب حمدي من النبات، لحظ نباتاً آخر علي حافة جرف. انحنى والتقط ورقة منه، قربها من أنفه.

- قيسون..!

- قليل.

سبلت صفية عينيها، فارتج قلبه. ظن أنها خجلي منه، وأن التسبيل علامة الرضا. ويبدو أنها خمنت ما دار بخلده، فأخبرته أنها تشعر مع مطلع كل صيف بجفونها ذابلة، وتحس برغبة جارفة في حكاها. باخت نفسه، واقترح عليها استخدام مرهم من مركبات المايسين، فقالت له أنها

عندما كانت فى الخارج حدثوها عن نبات القيسون، وأن كثيرين جربوه وأتى بنتائج مذهشة.

عندما حضر إلي سيناء سأل عن القيسون. أرشدوه إلى الفوالق الصخرية وسط سيناء، وسيكون محفوظاً لو وجدته. أيام الاحتلال الإسرائيلي، أتى خواجات كثيرون، وكلما وجدوا نباتاً برياً، لم يتركوا منه نبتة واحدة.

لانت تقاطيع وجه حمدي وابتسم، قال السيناوي الممصوص:

- لا تؤاخذنا يا باشمهندس..

واصطحبه إلي خص، تظللله أكياى مجدولة من أوراق البردي الجافة، ذات لون بني مصفر، بينما اتسعت ابتسامة حمدي. كان فى طريقه إلي رفح، للقاء أحد العمال الذين يعبرون إلي رفح فلسطين، حيث وعده بإحضار بعض من نبات القيسون، الذي ينمو بكثرة فوق ربي فلسطين، خاصة عند المجدل، عندما جاءتة الإشارة.

أخذ الجميع يثرثرون، فى انتظار الشاى، وحمدي فى حيرة من أمره. السيناوية عندهم حق. النباتات الطبية، نادرة، وريحها مضمون، والأجانب يسعون إليها، ويصدرونها لنا مصنعة، علي أساس أنها من اكتشافهم، وندفع فيها دم قلوبنا. هل ستفهم مديرية الزراعة ذلك. أبسط رد عند السيناوية: الأرض واسعة، اتركوا لنا هذه. المديرية ستقول هذه الأرض ضمن المنطقة المعدة لزراعة الموالح، وعلي السيناوية أن يقدموا طلباً للحصول على أرض أخرى، خاصة وهم يسهلون لهم شراء الأرض، بأسعار رخيصة، وبتقسيط ممل.

- ماذا قلت يا باشمهندس.

وناوله كوب الشاي. أخذه بين راحتيه وقال:

- سنجد حلاً.

بالتأكيد. لا يوجد شئ مقدس. لابد أن تفهم الزراعة الوضع. الأرض التى جادت بخيرها دون جهد، نساعدنا علي ذلك، بدلاً من نزع نباتها.

الأرض ضمن خطة الزراعة. نعدل الخطة. ونجعل السيناريو يقدمون طلباً لاستغلالها. ألسنا نريدهم أن يستقروا، ها هي الفرصة، وليذهب تخطيطنا المسبق إلي جهنم.

نهض وسلم، وهم يرجونه أن ينتظر، فهذا موعد غداء، وهو يطمنهم، ويقول أن المرات القادمة كثيرة، أم هم لا يريدونه أن يحضر.
ركب العربة وقد أخذ ما أراده من القيسون والجعيثران، معتزماً أن يرسل القيسون إلي صفية. تتمحك ثانية. تفكر في سمية وتهدي صفية. وهل محاولتي الوصال مع سمية، تمنع أن تكون صلتى جيدة بصفية.
سار بحذاء الأرض. يقدر مساحتها، وقد اعتزم كتابة مذكرة بالأمر، وضرورة إنشاء بنك للأصول الوراثية للنبات. ألمانيا قننت مئات التراكيب الدوائية من التراث النباتي العربي.
ضحك من نفسه..

قال يعني.. حللت مشكل الأرض.. فذهبت تبحث عن البنك وقتته.
الأرض نما علي حدودها نبات التين الشوكي الأحمر، أوراقه خضراء، شوكية، تشبه نبات الصبار. لشد مادمية يداي من هذا الشوك اللعين.
كنا في الساعات الأولى من حرب يونيو. انقطعت المواصلات السلكية. كلفني قائد الكتيبة مع نفرين آخرين للبحث عن الخطوط المقطوعة وإصلاحها.

لا دراية لي بهذه المهمة. زميلاي مشيا يتبعان الأسلاك المغروسة في الرمال، وغارات طائرات المستير الإسرائيلية لا تنقطع، وأصوات رشقات الطلقات تسمع في جنبات الصحراء. قلت لنفسي.. لماذا أموت في مهمة لن أفعل فيها شيئاً. تباطأت حتى اختفيا عن ناظري، وعدت إلى الكتيبة، لم نسمع عنهما شيئاً بعد ذلك. ما ضر لو ذهبت معهما.. ربما مددت يد المساعدة. نظر سعد إليه وقال:

- هل ما زال العزم موجوداً

- رفع

نظر إلي ساعته، وهو يردد في خاطره.. هل استطاع العامل أن يتقصي أمر الآبار عند المجدل كما طلب منه. قال:

- الوقت لا يسمح.

ومتي سيسمح الوقت، ليزور وسط سيناء، ويرى الفوالق الصخرية بنفسه. سمع عن نبات هناك، يصنع منه بروتين، تزيد حلاوته عن حلاوة السكر، ولا خوف على مريض السكر إذا تناوله. كم ستسعد أمه بذلك.

تري.. هل الفوالق وسط سيناء، امتداد للشرخ في قاع خليج العقبة. تخيل الخريطة ونفي الأمر. لو قدر لهذا الشرخ أن يستمر، سيشتط إسرائيلي إلي نصفين طويلاً ويعزل الساحل عن الداخل أم هذه أضغاث أحلام. الطبيعة فعلها بطيء. ومن يدريك. قاع البحر الأحمر غير مستقر، ومكمن للزلازل. في لحظة تجد العالي في الواطئ. ويتحول الإسرائيليون إلي نفاية وطعام للأسماك، وقد تحتفظ الصخور ببعضهم متحجراً، يقال أن الحيوانات تحس بالزلازل قبل وقوعه. سوف تكون علامة واضحة، عندما لا تحط الطيور المهاجرة من أوربا علي سواحلنا.



ظل حمدي يتعجل حضور سعد. ولما كان قلقاً، ولم يستقر علي وضع، فقد ترجل حتي بيت سعد، في حارة متفرعة من الشارع الرئيسي بالعريش، علي يمينه وهو آت من ناحية البحر. بيت من دور واحد. طرق بابه، ولما لم يرد أحد، دفع إحدي ضلعتيه برفق، وخطأ إلي فناء واسع، اصطفت عدة حجرات علي ثلاثة أضلاع منه، وظهرت من خلفها العمارات الحديثة. صفق بيديه وهو يقول «يا «ساتر»، أطل سعد من إحدي الحجرات، أشار له بإحدي يديه وأسرع إلي دورة مياه في زاوية بعيدة، ليفك مائه. اقترح سعد أن يتناولوا فطورهما أولاً.

- لا وقت لدينا.

في نفاد صبر:

- إلى أين..

انفجر حمدي ضاحكاً، فهو لم يحدد وجهته بعد. تلقى مكالمة هاتفية في الصباح ليتوجه ناحية بحيرة البردويل، وكان يعتزم الذهاب إلى رفح وفاءً لموعد مع صديقه العامل. إذا فرقع مواعده هذه المرة، فربما فقد ثقته به.

قال سعد وهو يدير محرك السيارة:

- اركب وفكر على مهلك.

خرجوا من الحارة إلى الشارع، أغلب بناياته عمارات حديثة مرتفعة، وفنادق سياحية، ومحال تجارية تزخر بمختلف المعروضات.. أقمشة مستوردة، وعطور باريسية، ومصنوعات جلدية إيطالية وإنجليزية.. بعضها مضروب ومصنع في هونج كونج وسنغافورة. ومحال تعرض إلي

جانب أحدث أنواع الشيكولاته، والفاكهة، اللوز السيناوي صغير الحجم، وزيت حبة البركة. وعربات يد محملة ببطلونات الجينز وقمصان حريمي من النايلون الأحمر الفاقع، وأدوات الزينة، وإعلانات النيون فى الميدان، قد خبا ضوءها فى شمس النهار.

دخل سعد حارة جانبية، خرج منها إلى الشارع الرئيسي القديم، وهو مواز للآخر. ورغم أنه يفتقر إلى المارة، فقد أحس حمدي بألفة.. ربما لسابق معرفته به حين عسكر مع وحدته بالقرب من المدينة عام 67. طالعتهم المقاهي البلدية، والعمال يحتسون الشاي ويدخنون البوارى. وأمام واحدة، مقامة فوق مصطبة مثلثة، ركن سعد العربة. لم يعترض حمدي ونزل بهدوء.

سعدا عدة درجات. وجلسا إلى تراييزة، غير بعيد عنهما تليفزيون أبيض وأسود، يث أغنياته. تنبه حمدي إلى أن اليوم أحد، وأنهم يثون مبكراً برامج اليوم المفتوح.

أحضر سعد لفتين من البسكوت. فك حمدي غلاف واحدة، وهو لم يحسم أمره بعد. نفخ فى غيظ. حجزت الشرطة بعض عمال الزراعة. هل أفقنا من مشاكل الزراعة، حتى نواجه بمشاكل الصيادين. تري ماذا هناك. هل الأمر المعتاد، صيادو دمياط وبورسعيد، خرجوا إلى البحر فى مراكبهم، واقتربوا من البردويل، يصطادون أمهات السمك، أثناء خروجهما أو إياها إلى البحيرة. لا توجد عندهم رحمة.. يصطادون الأمهات، بشباك، من كفرهم، دقيقة الفتحات فتحصد معها الزريعة الصغيرة فيفسد موسم الصيد الغالى. فإن لم يكذبني حدسى بالنسبة للجو، فهذا موسم التكاثر، وفيه تنشط الهجرة والعودة، من وإلى البحيرة.

وصيادو سيناء يعرفون المواعيد. هل تجمهروا عند البحيرة، ووعدتهم الشرطة بالقيام بالواجب. أي واجب.. ومراكب البحر الكبيرة، لن يجدي معها إلا لنش كبير، وسريع، يمكنه المطاردة والحقاق بها.

هل تأزم الموقف، وهم المجربون لوعود حرس الحدود من قبل،
أطاحوا بهم، فاحتلوا بعمال الزراعة، وجاءت الشرطة فأخذت العاقل
مع الباطل. وما ذنبي أنا..؟!!

- «ذنبي في حبك أني بحبك»

وهل أحبتني صفة يوماً..؟!!

تطلع إلى الشارع، حيث الميدان من بعيد، وشرطي ينظم حركة
المرور.. وغير بعيد منه مباني المصالح الحكومية ومبنى المحافظة..

فكر في العودة، ليتنسم خبراً جديداً، يساعده علي اختيار وجهته. أم
يغادر إلى البردويل، ويتوكل علي الله. وأخونا المنتظر في رفح..؟

ركبا العربة، وسعد يتطلع إليه، فأشار إلى مَنْزِل الشارع. في الواطى،
إلى يمينه. وهما يغادران العريش، طالعه مصاطب المقابر، تنخفض
وترتفع حسب التباب الرملية. وقد نمت أعشاب قليلة، لم تطغ على لون
الرمال، التي بدت مشبعة بنمنمة رمادية، كأن طواير نمل كثيرة، ترحف
ببطء.. وتعجب من كثرة المقابر.

وحين كان سعد علي وشك الانحراف يساراً، إلى الطريق الساحلية،
قال حمدي:

- خذ يمينك..

تطلع إليه سعد، ويبدو أن عينيه فضحته. ما دام ينوي الذهاب إلي
رفح، فما الداعي لهذه اللفة، ألم يكن أوفر لهما أن يأخذا الطريق الظرفية
شرق العريش، تحف بها أشجار الزيتون المورقة. كما أن بوسعهما الآن
الاتجاه، يميناً بعد الوصول للطريق الساحلية. أوفر وأسرع.
- الدنيا لن تنهد.. لو تأخرنا ساعة، أو بعض ساعة.

ضغط سعد دواسة الوقود، وانسابت العربة من الطريق الساحلية إلي
طريق ضيقة، ملتوية، فكان يضطر لتخفيف السرعة، وعلي مدي البصر من
الناحيتين، أرض رملية، مزروعة بأشجار اللوز الكستنائية، قصيرة القامة.

وأشجار المانجو عريضة الأوراق، يانعة الاخضرار، وتلوح أشجار البرقوق على البعد، وتسيج الأراضي أسوجة قصيرة من نبات التين الشوكي لا تكاد تلمح ثمره الأحمر، بين الأوراق الشوكية، وقد لطف المزروعات من هجير الصحراء.

تنفس حمدي بعمق.. كنا في عرض نسمة من هذا العبق في يونيو 67 ولما لم تعد تظالعهما أشجار الزيتون، أحس حمدي في داخله، أنهما غادرا وادي العريش.. نزلت العربية، صعدت ثانية.. مبان علي الطريق.. مدرسة بحذائه.. امرأة أمام مبني من طابق واحد.. وغير بعيد منها أطفال..

آه.. كنا في عرض صريخ ابن يومين.. فجأة غمرت الأرض مزروعات كثيفة.. من المانجو والخوخ، وصنعت الطبيعة أغواراً متسعة بين التلال الرملية تتسامر فيها أشجار اليوسفي والبرقوق والخوخ.
قالا في نفس واحد:
- الوادي الأخضر..

بما يعني أنهما على وشك الوصول. وكلما صافحت عينا حمدي أوراق الأشجار اليانعة، تأكدت له عذوبة المياه الجوفية، رغم القرب من البحر المالح، واطمأنت نفسه.

خرجا من الطريق الجانبية إلى مفترق، تتعامد عليه الطريق الرئيسية. عرجا شمالا في الطريق إلى رفح.. طالعتهما لافتة كبيرة تعلن عن فيلم في قصر ثقافة العريش، وامرأة ترتدي فستانا بفتحة أعلي الساق، وقد اتكأت بكوعها علي حشية مستديرة، ويدها الأخرى تهم بوضع سيجارة بمبسم طويل، في فمها.

والله أوحشتنا يا «ترسو» سينما عدن علي بابه مكتوب بخط ردئ «العمريطي مستعد للشكل»، وكنت دائما أتساءل هل هو من

«العمارطة».. تجار الحلوي المشهورين فى المنصورة، أم هو من فرع فقير. كانت تذكرة الدخول باثنين وعشرين مليماً.. لماذا ليست بعشرين.. أو بخمسة وعشرين.. المليمان.. لم يكونا متوفرين دائماً.. نعطى الرجل قرشين ونصفاً، فيعطينا بالباقي صورة ملونة لأحد الممثلين أو المطربين.. وأحياناً كتيبات بها أغانٍ للكحلاوي وشكوكو وليلى مراد. وأحياناً كتيبات بها قصص الحمال والسبع بنات، وأبى زيد الهلالي، وفاطمة بنت بري. مرة فوجئت بالرجل يعطيني صورة بها ضباط، ومكتوب أسفلها بخط عريض: «مجلس قيادة ثورة يوليو 1952».

نظرت له فضحك وقال:

- دستة ملوك بثلاثة مليمات..!؟

وجد العامل فى انتظاره بالمقهى، فى الشارع المؤدى إلى بوابة الحدود. اعتذر له عن تأخره، حيث لم يسلك الطريق الساحلية المباشرة، ليطمئن علي الزراعة فى بعض الأغوار. أنبأه العامل، أنهم يحفرون آباراً أعمق من المعتاد. قطب حمدي جبينه، ومط شفتيه. قال العامل:

- لاحظ أن أرضهم فى العالي.

رد حمدي

- لا يمنع..

وبعد أن تبادلوا الحديث بعض الوقت نهض حمدي، وهو يشكره، ونادي ليدفع الحساب، فرام العامل وأصر علي أنهما ضيفاه. ركباً العربية، وحمدي يطلب من سعد أن يسرع..

تري هل انتهى الأمر على خير.. أم احتجزوا عمال الزراعة، حتي يحضر، ليضمنهم، ويكتب تعهداً بعدم عودتهم لذلك مستقبلاً. وهل يستطيع أن يقف حائلاً بين سيناوي وآخر. يضحكون علينا أم على أنفسهم. هذا هو المطلوب.. فلا داعى للفلسفة. ألا تكفى البورسعيدية والدمايطة «الأسماك جهتهم».. أم

هنا الأنواع أفضل .. لعلهم سمعوا عما فعله الإسرائيليون عندما كانوا هنا. كانت طائرات «الشارتر» تحمل يومياً أسماك الدنيس طازجة إلى مطاعم إيطاليا وفرنسا بملايين الدولارات سنوياً. وليتهم يحضرون في موسم الصيد وبالتأكيد اهتبل صيادو عزبة البرج الفرصة وحضروا بمرآكهم الصغيرة، لعلهم يصيبهم من الحب جانب.

حل النحس بأهل العزبة، بعد أن كان رزقهم وفيراً من السردين الذي كانت تجذبه رائحة طمى النيل عند المصب، وعندما امتنع بعد حجز الماء في أسوان وترسبه خلف السد العالي، كانوا يرحلون إلى السواحل التركية والليبية، وأحياناً اليمنية. وكثيراً ما نشرت الجرائد أخبار القبض عليهم. فجأة انطلق حمدي ضاحكاً. التفت إليه سعد.. وعاود النظر إلي الطريق.

- تراهني .. ؟!

لفت وجهه بسرعة متسائلاً.

- سنجد المراكب الكبيرة أقلعت، وقبضوا على صيادي عزبة البرج. ضحك سعد بتؤدة، كأنه يتتلع شيئاً بين الضحكة والأخري. وتناوب الخبط بيديه على عجلة القيادة. التقط حمدي جريدة، ابتاعها من رفح، مضى على صدورهما عدة أيام، مر بسرعة على عناوين الصفحة الأولى، وقلب الصفحات.

«القبض على رئيس نقابة العاملين بالإدارة المحلية»

عدة سطور ورفع رأسه..

محام ويختلس، ويتنزه في أوروبا مع سكرتير النقابة، وعلي حساب العمال.!

أعاد رأسه للجريدة، وقد استوقفه اسم المحامي.

يا خبر .. الذي جمعنا عنده في مكتبه بالمنصورة، لنسافر إلى بورسعيد أيام حرب 56، وننضم إلى الفدائيين.

لماذا أنت خائف من حل التنظيم. الناس موجودة. ماذا سيجري لها. نظرت إلي صديقي القيادي، وكان أديباً أحبيته، وتعجبت للثقة والمرح في حديثه. ووشت رنة صوته بالفرح لأنه التحق بالتنظيم الطليعي. ولم أستطع أن أفهم، كيف يكون عبد الناصر في السلطة وينشئ تنظيمًا سريعًا. وأعلن خلفه الرئيس السادات أنه سيمشي على خطى عبد الناصر. ومشي عليها فعلا، ولكن بأستيقة.

فرمل سعد فجأة، فاندفع حمدي بجسده إلي الأمام، حتى كادت رأسه تصطدم بزجاج العربة. لمح قطة تقفز بسرعة إلي جانب، فكظم غضبه. جاء صوت سعد هادئاً:

- اقتربنا

نظر حمدي له بغيظ. وانصرف فكره لما هو مقبل عليه. لا بد مما ليس منه بد. وأخذ يهون على نفسه لقائه مع الشرطة، ومع خفر السواحل وما ينبغي أن يقال.. راجياً ألا يكون الأمر قد تعقد.. جاءني موظف الأمن في مديرية الزراعة بالعريش وقت العصاري.. عزم نفسه علي كوب من الشاي. يا مرحبا. وعند الغروب صعدنا إلي السطح.. ننظر إلي البحر.. ونغسل وجهينا في أشعة الشمس. لمح الموظف في جانب من السطح، ما يشبه المهادر من خرق قديمة، صنعته قطة تتردد علي البيت. ولست أدري ما الذي استفزه من ذلك.. فجأة حملة وألقي به من فوق السطح.

نظرت إليه متعجباً.. فردد ببرود أنها بيئة صالحة لاجتذاب الحشرات. أردت أن أصرخ.. ما شأنك.. ساعة وتنصرف، فلماذا تفسد علي أمري. ومن فرط غيظي لم أستطع التفوه بكلمة. نزلنا وقد حُرمت متعة استنشاق بعض الهواء النقي. سرعان ما حط الظلام. سمعنا حركة علي السلاالم. صحننا في نفس واحد: القطة. عاودت القطة الصعود والهبوط، وأخذت تموء مواءً ممطوطاً، غاضباً. نظر إلي موظف الأمن وقال: تشمتني.

ترجل حمدي فى الطريق الساحلية. فندق سياحي عن يمينه، وشمسيات متناثرة قرب الشاطئ الفسيح. والكراسى خالية، إلا من نفر قليل يسرحون فى الملكوت، فى سويغات ما قبل الغروب. وبيوت متناثرة، غافية، بين أشجار النخيل، على الجانب الآخر من الطريق. والعريش ببيوتها الواطئة خلفه، وذهنه ما زال يلوك ما حدث من عدة أيام. هل يتحدث مع الصيادين، لينشئوا جمعية، تتولي شراء لنش سريع، يمكنه حراسة البحيرة من تعدي صيادي دمياط وبورسعيد. سيتحرون، وإذا عرفوا أنه وراء المشروع، سينقل من هنا، وعلي مشروع الخوخ العفاء. فليكن بشكل غير مباشر. يتحدث مع من يثق به من عمال الزراعة، وهم يتولون الأمر.

استعاد فى ذهنه بعض النقاط التى تتردد علي ألسنة الصيادين.. تتولي شرطة المسطحات المائية الأمر بدلاً من سلاح الحدود. قد يتعللون بالأمن القومي أو ما شابه، دعك من هذه النقطة. السماح للمراكب الكبيرة بالصيد فى أعالي البحار، ويسمحون للصيادين باستخدام محركات عالية. من أين المال.. من أرباح جمعية يساهم فيها الصيادون. آه.. رجعنا للجمعية ثانية. تمثيل الصيادين فى مجلس إدارة البحيرة. سينظرون لك شذراً. فلينظروا. قوة دفع مناسبة للمياه من البحر إلي البحيرة للحفاظ على نسبة الملوحة المطلوبة. ممكن. مد الرصيف الغربى من البوغاز الشرقى إلي داخل البحر، وإغلاق الفتحة خلف الرصيف التى أحدثها

النحر. عليك وعلى المحافظة.

كان وقت الضحي، وهو يسير عند أطراف بحيرة البردويل، عندما قالوا له:

- أنت أهل لها يا باشمهندس

مشيرين إلي صلته بالمحافظة بحكم عمله.

- ربنا يسهل

وواصل سيره، يتأمل صفحة الماء الرائق، تداعبه مويجات هينة.

غصت صفحة الماء قرب الشاطئ بالمراكب فى حرب يونيو. وقام الصيادون بتحميلها بالجنود المشردين فى الصحراء، غير مبالين بتحذيرات الإسرائيليين. وطلقات مدافع الفيكروز التى تلاحقهم.

شق صفحة الماء لشان سريعان، أحدهما معلق فى مقدمته مكبر صوت، يذيع تسجيلاً لطلقات رصاص. والثاني معلق فى أحد جنبه مكبر صوت يذيع تسجيلاً لاستغاثة طائر عجاج مصاب. وطيور العجاج عاجزة عن تكوين جدارية، تقتحم بها الماء. طارت فرادي، مضطربة.. بعد قليل لمت شملها فى بقعة من الأفق، وإذا ببالونات علي هيئة طيور جارحة تلاحقها، ففرت مذعورة إلى عرض البحر.

وضحك حمدي.. لن تستطيع الطيور أن تحط علي الشاطئ، أو بالقرب من الملاحات، فقد وضعوا لها مواداً حريفة. وبدت طيور البشاروش، وخلفها طيور العجاج، كأنها اتشحت بالسواد، تتماوج على غير هدي، وقد غادرتها النشوة، التى كانت تلوح منها، وهي تنقض علي أسماك الدنيس الفاخرة. وتهادت على صفحة الماء مراكب الصيادين، بلون واحد. كانت جمعيات تجار الأسماك، قد حددت لوناً لمراكب العرايشية، وآخر لمراكب البدو. فكثيراً ما وقعت بينهما المشاجرات. تري.. هل هذا سبب ترقيته المفاجأة. أخبره صديق بمديرية الزراعة

بالدقهلية، أنه مرشح لتولي منصب مدير إدارة، وكل ما عليه أن يقدم طلباً للإلغاء انتدابه والحضور فوراً. لماذا الآن.. وقد اشتكى مراراً بأحقته بالمنصب، منذ حصل علي الدرجة الأولى من عدة سنوات. وحدث لون المراكب، وغداً تنشئ جمعية لثلاثة آلاف صياد، يملكون ثمانيمئة مركب، يبرطعون فوق بحيرة مساحتها ما يقرب من مئة وسبعين ألف فدان.

- يا ليل ويالا ويالا لا.

تطلع إلي المركب المقرب، وتمتم في نفسه: من السواركة. لماذا لا يغني الفواخيرية نفس الأغنية..؟! حانت نظرة منه نحو البيوت المتناثرة، وتساءل عن بيت محمد عايش. زادت كثافة النخيل بالقرب من الطريق، وخلفها الرمال مترامية، حافلة بالتباب والمهاد. وقد نمت في غير مكان نباتات وحشاش برية. عبقت أنفاسه بأريج. إذا لم تخنه الذاكرة، فهو الجعيثران.

فكر أن يعود، ليتكلم مع خال ندا عن تدابير الخطوبة وعقد القران. لم يشعر بميل إلى ذلك. كان الكدر ما زال عالقاً بنفسه من حماة سعد، كان العايدي بين المقبوض عليهم، وأجلوا الإفراج عنه لمزيد من التحريات كما قالوا. لم يسترح لنظرات سعد متهما إياه بالتقصير ورده عليه حين علق:

- كان مستريحاً في المقهي، ما الذي أتى به..؟

- أنت الذي تقول ذلك..؟!!

وماذا عليه لو أخذ بعضاً من زهور الجعيثران لأم سمية، التي تشكو من مغص في أحد جنبها، وتخشي أن تصاب بفشل كلوي.

وبأي وجه يقابل سمية..؟!!

كان قد ألمح لها أنه متضايق، من حملقة الرواد في جسدها، ومن نظراتهم غير المريحة.

- وافقت على خطبتي وأنت تعرف طبيعة عملي.

لم يجد في نفسه الجراءة، لأن يطلب منها التخلي عنه، ومن مدة وجيزة تألقت عيناها بالفرح وهى تخبره بترقيتها إلى رئيسة قسم الاستقبال، وأنها اختارت زميلات للعمل معها ترتاح لهن، وحدثهن بضرورة معاملة المصريين المترددين، نفس معاملة الأجانب الباشة والودودة.

في البداية ظن أن العبور وشيك وأحس بالخطر على نفسه وعلي زرع، ولما طال الأمر، انتقل بزرعته إلي الصالحية. وبعد أن ترعرت، أخذ من نتاجها شتلات جديدة، واقترب ثانية من شط القناة، حيث البيئة مناسبة، رملية، وليس بها شئ من طمي النيل. بعد الحرب طالت المفاوضات، وحين استردت مصر سيناء، كانت الشتلات التي استنبتها فيها، من الناتج الثالث. ورغم اطمئنانه، كان متوجساً ألا تصح التوليفة في التربة الجديدة. وعندما صحت.. شعشت أعطافه.

هل لهذا فرع عندما رأي وجهه فى مرآة السيارة، لا يعبر عما يمور بداخله.

وأخذته الحمية، ونوي عمل بحث عن الأصول الوراثية للنبات. مقاومة الأمراض، تحمل الجفاف، والملوحة، ورصد صفات الخوخ الثمرية ومواعيد نضجها.

واكتشف أن المحلي من أنواع السلطاني والفرك والحجازي والمادوي والشامي والنيلى، يفوق الأجنبي من حيث النكهة والمذاق.

واقترحت سمية عمل جدول بالأنواع مبكرة النضج ومتوسطة النضج، وأضاف هو: ورصد تنوع اللب من برتقالى إلى أبيض وأحمر، وعلاقة ذلك، إذا كانت هناك علاقة بقوة نمو الشجرة، ونتاجها العالي. وسمي لها ثلاثة عشر نوعاً تعتبر من أجودها وأنه لا بد من تطعيمها على أصل التيماجارد والأوكيناوا.

لفتت سمية نظره أنه لا بد من زرعها كأمهات. و لم يملك نفسه من

الضحك وهو يسمعها تقول:

- ومتابعة نموها الخضري والزهري.

وأضاف:

- وعمل بصمات وراثية لهذه السلالات.

طبع قبلة علي شفيتها، استسلمت فضغط بشدة. فلفصت محتجة:

- ماذا.

- بصمة.

انحنى يقطف بعض زهور الجعثران. لو قابلته سمية بوجه مبرد. سيزعم أنه لم يأت من أجلها. جاء ليرى ماذا صنعت أمها فيما أثاره معها بشأن تصاريح الصيد من البحيرة، حيث يؤجر الواحد بأربعة آلاف جنيه ويبيع بثمانية وعشرين ألف جنيه.. هذا في الوقت الذي يتم فيه تحصيل رسوم عن كل كيلو سمك يستخرج من البحيرة.. وتساءل.. كيف زادت الديون علي الصيادين من خمسة آلاف جنيه غداة الاحتلال الإسرائيلي.. إلي أربعين ألف جنيه الآن.. ولماذا انخفض نتاج البحيرة للتصدير إلى ما قيمته ثلاثون مليون دولار سنوياً، أقل مما كان يصدر الإسرائيليون بعشرة ملايين علي الأقل.

تطلعت إليه أم سمية، وقالت:

- كان الإسرائيليون ينزحون البحيرة.

فكر أن يسأل أم سمية مساعدته في الحصول على شقة في المساكن الشعبية بالمساعد، لكنه نحى الفكرة جانباً، خشية أن تظنه يحاول الابتعاد عنها من أولها. وعجب من نفسه لماذا لم يفكر في هذا من قبل، وكانت العمارات، خالية لا تجد من يسكنها، والآن بعد أن نبهته حمديّة، رجا أن يكون الحظ من نصيبه.

ومع أن حمديّة اقترحت ذلك، فقد رفضت، أن تنتقل مع أمها للعيش

معه فى العريش، إذا تأزم الموقف بالنسبة لشقتيهما.
تركها حزينا، كاسف البال، وقد تفهم تلميحات حميدة عن الأم،
رجلها والقبر، وما يعنيه ذلك من مشقة لو قضيت بعيداً عن المنصورة.
مشى فى شارع بورسعيد، والمساء علي وصول.. دار ابن لقمان
إلى يساره.. أزعجه ازدحام الشارع المؤدى إلى كوبري طلخا الجديد..
كان فى المدرسة الابتدائية عند بناء الكوبري.. لم يكن الشارع مفتوحاً،
كانت مدرسة التربية النسوية أمام موقع الكوبري.. وكان ما يسير فيه الآن
شارعاً جانبياً، تحيط به البيوت القديمة ذات الأبواب الخشبية الكبيرة.
دار القاضى ابن لقمان.. هدموا الصف المواجه لها لتصبح الطريق ذات
اتجاهين.. وهدمت المدرسة لينساب المرور إلى الكوبري..

وقامت فى باقى دار القاضي، عمارة كبيرة، جاورتها أخريات، ذخرت
بمحال بيع الأدوات الصحية والأحذية والمشمعات والأقمشة، ولم
يحفظوا إلا بالحجرة، التى يحضر السياح من فرنسا لمشاهدتها، الأمر
الذى أثار دهشته وهو صغير، فليس فى الحجرة التى قضى فيها لويس
ملكهم، فترة أسره، سوى كنبه عادية، كان ينام عليها، وخزانة خشبية
مثبتة فى أحد الحيطان، ليس لها عمق، وبها ضلفتان جرارتان، وثمة
شباك صغير يطل علي فسحة صغيره بعد مدخل البيت، تغلقه عصفورة
خشبية، وباب الحجرة أصغر من باب البيت، الخشبي الكبير، ويغلق مثله
بمصاريع خشبية. وللحجرة شباك يطل علي الشارع، مكون من مربعات
خشبية، كعقالات القصب، قصيرة، ملفوفة، تصل العقلة بالأخري كرات
خشبية، وخلفها ضلفتان مغلفتان. وتظهر عروق السقف الخشبية، ذات
اللون البني الغامق، تتدلي من وسطها مشكاة. وتصعد إلى الحجرة، بسلم
خشبي، لا يتجاوز اثنتى عشرة سلمة، إلى جانب منه على الأرض قدر
رخامي أبيض مجزع بخطوط سوداء خفيفة، لا يتجاوز ارتفاعه نصف

متر، لشرب الماء، وتحتة قاعدة رخامية مجوفة، للاغتسال.
وأطيح بمئذنة جامع الموافي المجاور، وكانت قصيرة، ومن نفس
العصر، وغيروا بعض حيطان الجامع، وفي النهاية أجهزوا عليه، وأقاموا
آخر ذا طراز مختلف.

واقتطعت قطعة أرض من باحة أمامه، وأصبح متعذرًا الدخول من
بابه الرئيسي الذي كان ينبسط أمامه ميدان الموافي. دخل نصف الميدان
فى الشارع. ونصفه الآخر قامت به محال خردوات، وازدحمت الأرض
بعربات بيع مناديل الرأس الملونة والمزدانة بالترتر، والجوارب والرفائع
النسائية، وأدوات الزينة.

وشق الشارع سوق التجار، الشهير بسوق الخواجات إلي نصفين. وإذا
أردت دخول الجامع من بابه الخلفي، عليك أن تعرج من سوق التجار
الشرقي، حيث محال بيع الأقمشة والخردوات علي جنبه، وسقفه مغطي
بأقمشة قديمة، لا تسمح بسقوط الشمس والمطر، ويحتك المارة ببعضهم
بعضًا من الضيق والتعرج، ومن تفاديهم للملابس المعلقة علي شموعات
فى مقدمة المحال. وتدخل يمينًا فى إحدى الحارات المبلطة بمربعات
من حجارة البازلت القمحية، تلك التى جعلت سنابك خيل فرسان لويس
تتزلق، ويحاول راكبوها الهرب، فيجدون الحارات مسدودة، وسرعان
ما تنهال عليهم النساء والأطفال والشيوخ والرجال، بمخارط الملوخية
وأغطية الحلل النحاسية، وأيدي الهاونات، وسكاكين الجزارين، وكل ما
تطوله أيديهم.

وفى هذه الحارة، ستعوقك عن السير، بضاعة التجار المرصوصة،
تزحم الطريق.

عرج يساراً فى شارع السكة الجديدة، ليلتقط عربة أجرة، تذهب به
إلى محطة الباص إلى العريش. خلفه مسجد الصالح أيوب، بخطوطه

العريضة، بعرض حيطانه، طوبية وبيضاء كالحة. وقامت خلف مئذنته، عمارة كبيرة، ذات شبابيك زرقاء، فأصبحت تتبينها بصعوبة، وكنت تراها سامقةً من أول السكة الجديدة، من ناحية المحطة، والسماء خلفها، بلونها اللبني الخفيف، تسبح فيها نفق قطنية، ترق وتنتشر.. وكلما اقتربت، لاح لك المئذنة بجاراتها الجيرية متماسة دون مونة وظهت شرفاتها الثلاثة. الأولي، مقسمة إلي شريفات وهمية، بين واحدة وأخري ما يقرب من متر ونصف، وفي عنق المئذنة مقرنصات محفورة في الحجر، تعلوها الشرفتان الأخريان، كل منهما مسورة بخطين من الحجارة، بينهما زخارف من الحجارة نفسها في الفراغ، ويسمق عامود المئذنة، متوجاً بمسلة صغيرة، مخروطية، فوقها هلال، وكلاهما أخضر داكن.

ركب عربة، استجاب سائقها لإشارته، وأخذ يردد في خاطره، بيت الشعر الذي طالعه مراراً عندما كان يزور بيت القاضي، وهو صغير..

دار ابن لقمان علي حالها.. والقيد باق والطواشي صبيح ترك الطريق، وعرج يساراً. انحني علي النبات، مرر أوراقه المشرشرة بين راحتيه. عيدانه تشبه عيدان البازلاء. وأخذ يتشمم النبات. الجعيثران بالتأكيد، أو ابن عم له. عل أية حال زهرته ليست غريبة عليه.

رفع رأسه، لاح له البيت علي البعد.. محمد عايش.. لماذا لم يفكر فيه وهو سيناوي مثلهم، وسيتفهم الموقف بسرعة، والأهم ثقته به. وهل سيفوت الجهات الأمنية الربط بينهما، لو شمت خبراً بما قد يحدث. انفضض فجأة، وقد سمع حفيفاً. لمح ما يفلت سريعاً بين عيدان النبات، المنتشر علي الرمال الرطبة.

تمتم، غير مصدق:

- أبو مريّة..؟!!

بالتأكيد هو، فظهره مرصع بخطوط سوداء عريضة، بينها خط برتقالي،

وبطنه الزاحفة تظهر حوافها الصفراء. قدر طوله بما يزيد علي نصف متر، وهو لا يخفي إعجابه بجماله. لكن آه.. من هذا الجمال. مديده محاذراً، من لدغته، التي لا علاج لها في هذا الهو، ليأخذ بعض الزهرات لأم سمية. مرر زهرة علي خده، مستريحاً لملمسها وقال في نفسه: جمال مؤذٍ وجمال شاف. تري.. هل علم محمد عايش بما حدث، فيوفر عليه نصف الطريق.. أم يتعين عليه أن يخبره عن تجمهر الصيادين، كانوا يتصايحون. ومكبرات الصوت تحثهم علي الانصراف، مع وعد بالإفراج حالا، عن المحتجزين. وأن مشكلهم في طريقه للحل.

استمرت مكبرات الصوت ترعق دون ملل، واشتد القيظ والغيط. ظل الإسرائيليون يذيعون دون ملل «أنت تذيع بياناً ونحن نذيع بياناً أن الطائرات الأمريكية ضربت طائراتنا علي الأرض صباح الخامس من يونيو» حتي تعبت أعصابنا.

وهل هذا حقاً صوت ناصر يحادث الملك حسين «وإذا لم يكن فكيف نشكك في صحة التسجيل، وتساءل.. أمكنهم توليفه.. ومع استمرار الإذاعة، غادرتنا عصيتنا، وأخذ كل منا، عندما يقابل زميلاً، يبادره:

- أنت تذيع بياناً، وأنا أذيع بياناً..

ثم ننطلق ضاحكين، وقد غابت نظراتنا في المجهول. سمع الحفيف ثانية، وكان يسير بين النخيل، والأرض معشوشبة. اللعين.. يبحث عن مكان رطب بالقرب من جذور نخلة.. أم هو يجد في أثري..

بالقرب منه مدق مرتفع عن الأرض، أسلم له أن يمشي عليه. أغلب الظن كان شريط السكة الحديدية للعريش يمر فوقه.

عندما رأيناه، تجمعنا حوله في دهشة، وقد أعلنت للتو دولة إسرائيل في فلسطين.

كان أبيض البشرة، فارعاً، عيناه ضيقتان وفي اخضرار الفيروز. يضع

حمله من الأقمشة عن كتفيه، أمام عتبة أحد البيوت، وتتجمع النسوة حوله. وباله طويل، سواء في تعريفهن بنوعية ومتانة أقمشته، أو في مداعبتنا وعدم نهرنا، عندما نلتف حوله، وأحياناً نتبعه ونشاكسه.

وكنا عندما نراه قادماً، نسرع لإخبار أمهاتنا بوصول «سمعان كتف» كما أطلقنا عليه.. هل سخرية منه أم من أمهاتنا اللاتي فضلنه عن صاحب محل الأقمشة الشهير سمعان صيدناوي.

ولمح السؤال علي وجوهنا: لماذا لم يسافر.

جلس وقد غادرته بشاشته، وبدا نافذ الصبر، وقال:

- لم تكن القدس بعيدة عني.. آخذ قطار العاشرة إلا ربعاً من محطة القاهرة.

ترك المدق، وخطا علي الأرض المعشوشبة، في الطريق إلي بيت محمد عايش، وبالمرة يكلمه في أمر سمية. الحفيف ثانية. كان المظنون أن أبا مريرة اختفي، وأنه لا يظهر إلا في فلسطين.. لكن ها هو يعاود الظهور. ربما كثرة الحركة وإعداد الأرض للزراعة، تقضيان عليه. أم أن الرطوبة التي كسبتها الأرض من الزراعة، ومساحات الظل الناتجة عن التشجير، تجعلانه يلبد هنا.

تابعه بناظريه، يظهر ويختفي، ثم توارى وراء جذع نخلة مبتورة.



- ما قولك يا بنت الحلال..

...

- لا يصح تركه وحيدا يوم فرحه

- أمى مريضة ولا تتحمل مشاق السفر

- عربة ستأخذها، من الباب للباب

- الطريق طويلة

- نستريح قليلا فى الإسماعيلية

زامت حمدية، تبحث عما تقوله، قال صفوت:

- وبالمرة تشجعين صفية على الحضور

عادت تعافر ثانية:

- لن نأخذ راحتنا عند أناس أغراب

- أصبحوا أهلنا الآن..

وأشار إلي باب الشرفة، مستئذنا ليفتحه.

- الشمس

تركته لتعد الشاى، نهض لمواربته، ملتمسا نسمة هواء. عشيت عينيه أشعة الشمس، كأن القرص متربص خلف الباب.

اعترض حمدي علي موعد تطوير الهجوم. قال عبد السلام فاروق:

- لم يكن هناك خيار أماننا، أوقف الإسرائيليون اندفاع السوريين

فى المرتفعات السورية المحتلة، وكان لايد من التخفيف عنهم، خاصة

ونحن نشعر بالامتنان لهم. ففي الساعة الثانية بعد ظهر السادس من

أكتوبر، كانت الشمس فى عين العدو الإسرائيلي، أماننا وكانت فى عين

السوريين أيضا، تحملوا، لتكون جبال سيناء مكشوفة أمامنا، حيث فى الصباح يغرق الضباب كل شئ.

قال حمدي:

- لكن تطوير الهجوم مكن الإسرائيليين من التسلل إلى الغرب، بعد دفع قواتنا الاحتياطية من الغرب إلى الشرق.

ضحك عبد السلام فاروق وقال:

- أثير هذا الكلام مرة فى حضور اللواء جورج، فقال أن الأمر ليس هكذا بالضبط...

لقد قامت الطائرات الأمريكية من طراز س 7 على ارتفاع وصل إلى خمسة وعشرين كيلو متراً، وبسرعة وصلت إلى ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، بثلاث طلعات، آخرها بعد ظهر السبت الثالث عشر من أكتوبر، وقدمت صورة كاملة لأوضاع القوات المصرية ثلاث مرات. وليس هذا فقط. وأخرج قصاصة من أحد جيوبه.. قامت أمريكا بعمل جسر جوي من 228 طائرة نفذت 569 طلعة ونقلت 22497 ألف طن من الأسلحة والذخيرة والمعدات خلال الفترة من الثالث عشر إلى الرابع وعشرين من أكتوبر، وهي الفترة التى حدث فيها التسلل.

وفي بداية إقامة الجسر، تمسك جيمس شليزنجر وزير الدفاع الأمريكي، بضرورة أن تصل الطائرات إلى إسرائيل فى الظلام، وأن تفرغ حمولتها قبل طلوع النهار. والتزم السفير الإسرائيلي فى واشنطن سمحا دينتز بذلك. وفي الساعات الأولى من صباح أول يوم بعد الاتفاق تحركت الطائرات الأمريكية شرقاً. لكن عاصفة أدت إلى تأخير الطائرات، وهبوطها، في صباح اليوم التالي، وعليها علامات الجيش الأمريكي. ولم يستطع الأمريكيون أن ينكروا أنهم شاركوا فيما حدث. ففرحة الإسرائيليين بوصول الإمدادات، والتي جعلت نصف سكان تل أفيف (أبيب) يلتفون حول مكان هبوطها ويصفقون، لم تمكنهم من ذلك.

ضحك حمدي.. فعاجله عبد السلام:

- ماذا..؟

- تذكرت تصريح السادات: نحن لا نحارب إسرائيل.. بل نحارب أمريكا

- وفيم الضحك

- لأنه صرح مرة: أنا لن أحارب أمريكا

وعاود تساؤله:

- ألم يكن ممكنا تحريك حائط الصواريخ إلى سيناء..

- أنشئ فعلا مقر لقيادة الصواريخ في الشرق، وسرعان ما تم تدميره بصواريخ ليست في حوزة الجيش الإسرائيلي، ولم يزود بها الجيش الأمريكي، وبعد الحرب قال الأمريكيون للمصريين في أحد اللقاءات: في صفوف القوات الإسرائيلية يهود أمريكيون، ويعرفون تقنية هذه الصواريخ.

- ولماذا لم يستخدموا الصواريخ التي في حوزتهم..؟!

ضحك عبد السلام فاروق، وقال:

- اخترعنا طريقة جديدة لصيدها.. نضع في مجالها جريد النخل، وأحيانا نشعل النار.. فتنجذب.. كما تنجذب لعادم الطائرات.. وعلي أية حال لم يفيدوا كثيرا من تسللهم.

- يا شيخ..!

- اللهم إلا أخذهم فلاحى الجنان أسري.. ليبادلوهم بأسراهم لدينا.

استمر الفلاحون تحت القصف اليومي، وفي مرمى الأسلحة الخفيفة يزرعون منطقة الجنان والشط. كفر عامر، الدفرسوار، أبو خليفة، وحتى الكاب والتينة شمالا، وكان الإسرائيليون مغتاضين منهم.. فالجنود الذين مكثوا في الجبهة ما يقرب من ست سنوات، عندما يرون من يزرع ويقلع

جوارهم.. تطمئن نفوسهم.. لذلك ساقوا الفلاحين إلي عربات نقل، وهم يضربونهم..

نظر إليه حمدي، دهشاً، فأمن علي دهشته بقوله:

- يعني سيادتك كنت معرضاً..

شرب الشاي، اقترب منها، وقد جلست غير بعيدة عنه، وأذناه تحاولان التقاط أية حركة للأم. مد إحدي يديه، ليحيط خصرها. انفلتت في خفة تحمل الصينية.

إلام ستظل حصينة..!؟

كانت الملاجئ حديدية، مكسوة بخرسانة مسلحة، تعلوها طبقات من قضبان السكك الحديدية، بالتبادل مع فلنكات خشبية وشكائر رملية، ثم طبقات من الحجارة الجيرية، أو الصخرية، متخذة شكلاً هرمياً، داخل شبكة من سلك حظائر الأرانب القوي وضعت ضمن الكسوة. كل ذلك بغرض امتصاص الموجات الانفجارية لجميع أنواع القنابل، حتى زنة ألف رطل، ولضمان انفجار الطابات ذات التأخير قبل أن تصل إلى الكسوة الرئيسية للملجأ. وتصل بين الملاجئ ومرابض النيران طرقات مكسية بالواح من صاج متعرج وزوايا حديدية، وشكائر رملية. ودشم النيران من الخرسانة المسلحة بسمك يصل إلي نصف متر، وبها مزاغل تسمح بتغطية جميع الاتجاهات بنيران متشابكة، تحقق التعاون بين الدشم. والملاجئ مزودة بالمطابخ وأدوات الترفيه من تليفزيون وفيديو..

وقال صفوت في نفسه.. اثنان وعشرون موقعاً.. احتوت واحداً وثلاثين نقطة.. بعمق وصل إلي ثلاثمائة متر، تسيطر على المحاور الرئيسية بطول قناة السويس، وأبراج مزودة بأجهزة استطلاع إلكترونية للرؤية الليلية وأجهزة لإدارة نيران المدفعية وتوجيه الطائرات.. من أقام خط بارليف.. لم يكن يفكر في دفاع مؤقت عن أرض احتلها،

وسوف يتركها ذات يوم، ولكنه فكر أنه سيبقي إلي الأبد، يرجح ذلك تجهيزهم حجارة تعادل حجارة الهرم الأكبر، ألقيوها في البحيرات المرة، وتسلبوا فوقها.. فهل كان إحضار هذه الحجارة، من أجل التسلب في حالة الزنقة، كما حدث، أم من أجل العبور في حالة تنفيذ خطة الحزام الأسود..؟! وطففت في ذهنه مقولة لضابط التوجيه المعنوي.. كان تحتبس الثالث يضع مجموعة من المراكب فوق عربات تجرها الثيران لاستخدامها في عبور المجارى المائية التى ستقابلها فى الشام.. وتذكر قول كليم السادات:

حين ذهبت للعبور، وجدت اثني عشر قارباً من اثنين وثمانين قارباً، المفروض أن أعبر بهم.

الجنود المجدفون تحمسوا، وانضموا للمقاتلين، وتركوا القوارب. ماذا أفعل.. لابد أن ألحق بالنسق الأول بأسلحتي الثقيلة. المشاية التى تم نصبها لا تتحمل الدبابات الثقيلة. لابد من فرد الكباري. نزلت إلى الماء أتدبر وسيلة. وجدت سائقاً من شركة قناة السويس يسير بقاطرة بحرية، ذاهباً إلي السويس. استنجدت به. عاونني الرجل فى فرد الكباري رغم الطائرات الإسرائيلية المحومة. وحتى لا أخل برنامج العبور، دفعت بعربات برمائية وعوامات عليها جنود معهم صواريخ «ستريلا» المحمولة علي الكتف، لتملأ السماء كطيور شيطانية جارحة، ومدافع «شيلكا» 23 مللي تبصق النار فى خرطوم طويل رهيب بسرعة أربع آلاف طلقة فى الدقيقة. وبالفعل نجحت فى تعطيل الدبابات الإسرائيلية عدة ساعات حتى تم فرد الكوبري. وحين عبرت دباباتنا ومدفيعتنا المضادة للدبابات، سمحت للرجل بالانصراف وهو يتصبب عرقاً.

وتنفست فى راحة، وقد انتظم طابور الدبابات. وإذا بواحدة تسقط فى الماء. لو انتظرنا النجدة، سيموتون داخلها من الاختناق. أحضر أحد الضباط خرطوم هواء من عربة «زل» وأوصله بفتحة الدبابة، وظل يدفع الهواء إلى

داخلها، حتى لا يتسرب الماء فيغرقون. ولما كانوا تحت سطح الماء بعدة أمتار، فلن يستطيعوا دفع غطاء البرج لأن ضغط الماء شديد. وتمالكن أنفسنا ثانية، حين أبصرنا دبابات النجدة ومعها ونش، وانتشلت الدبابة. أطلت حمدية برأسها وقالت:

- تتغدي معنا اليوم..

لم يشأ أن تعاود غضبها، فأوماً برأسه موافقاً. وسرعان ما صكت مسامعها،

أصوات تحليق طائرات، تطلع إليها.

- من مطار شاة القريب.

- محمومة..

- ربما غارات إسرائيلية على جنوب لبنان.. أو اصطدام بالفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

عملت الطائرات المصرية مظلة دائمة فوق مطاراتنا، وكانت أطقم إصلاح المطارات جاهزة لأي عمل. وفي أيام الثالث والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين من سبتمبر عام ثلاثة وسبعين، قامت الطائرات المصرية بطلعات بأعداد كبيرة في العجو. وأخرجت إسرائيل كل طائراتها، خوفاً من المفاجأة. وعندما انطلقت طائراتنا في الثانية وخمس دقائق يوم السادس من أكتوبر لتدمير مراكز القيادة الإسرائيلية في سيناء، لم تتحرك طائرة إسرائيلية واحدة.

أغلقت الباب، وجلست بالقرب منه.

- ماما.

- نائمة

وغابا في قبلة طال إليها الشوق.

نقرات علي الباب.. انتفضت في حضنه. وجاء صوت الأم:

- ألن تحضري الغداء..

تبادلا النظرات.. قامت علي مضض.. ووشت نظراته برغبته فيها وليس فى أى غداء. وقفزت إلى ذهنه ذكرى أول مرة تلامسا فيها فى آخر مكان يتوقع أن يلامس فيه فتاة. فى حصن الرصيف.. حيث مدفع أبى جاموس.. الحصن محاط بالماء من ثلاث جهات ولا يربطه بالبر سوي رصيف صغير.. ومن هنا استمد اسمه. نأى بها عن الرحلة فى ممر جانبي.. ولم يكد يحيطها بذراعيه حتى انسلت هاربة. لكنه كان قد أحس ليونة جسدها وحرارته.. ومن لحظتها عشت إحساسه بها فى كيانه.

ضابط إسرائيلى، يرتدي نظارة سوداء، لف العلم الإسرائيلى وسلمه لضابط مصري، ثم قدم التحية وسلم نفسه ومن معه من جنود للوحدة المصرية. نجحت نصف كتيبة من الصاعقة فى عبور الموانع المائية، وظهر الثلاثاء التاسع من أكتوبر، كان العشرات من جنودها يربطون فوق الحصن، يغنون ويرقصون، فى انتظار استسلام الجنود الإسرائيليين الذين احتموا به، وقد أغلقوا أبوابه الحصينة.

ووضح من الإشارات التى أرسلها قائد الحصن لقيادته، والتقطها المصريون، نفاذ الذخيرة لديه والطعام والدواء. ووعدته قيادته بإرسال طائرات لفك الحصار. وضحك المصريون وهم يعلمون استحالة اقتراب الطائرات الإسرائيلية من خط القناة، وكانت القيادة الإسرائيلية قد أرسلت تحذيرا فى وقت سابق لطائراتها بعدم الاقتراب من القناة لمسافة خمسة عشر كيلو مترا.

لحظ المصريون زورقين من زوارق الطوربيد من الفرقة 707، قادمين لإنقاذ الحصن. وعندما تأكدا من سيطرة قواتنا على المنطقة، عادا ووقفا جنوب رأس سدر.

وسرعان ما جاءت أربعة زوارق مطاطية، تحمل جنودا من نفس الفرقة، فى اتجاه الحصن بمحاذاة الشاطئ. وأثناء اتصال قائدهم برئيس المخابرات البحرية الإسرائيلية يخبره عن سير العملية، التقط المصريون الإشارة،

لسيطرتهم على رادارات المنطقة، وانتظرهم رجال الصاعقة أمام الحصن. ولم تكد الزوارق تقترب، حتى انهال الرصاص من كل جانب. ابتعدت القوارب قليلاً، ظناً أنها طلقات عابرة. وعندما اشتدت، وأصبحت أكثر تحديداً، أدرك القائد الإسرائيلي، أن المصريين كشفوا العملية. عاد فوراً من حيث أتى وأرسل رئيس المخابرات البحرية رسالة لقائد حصن الرصيف:

«استسلم فوراً للمصريين، وسنخطر الصليب الأحمر ليشرف علي عملية سقوط الحصن».

وضحك صفوت في خاطره.. آخر شخص توقع أن يأتيني بعمل هو حمدي.. لم تبقى إلا الشقة.. فمن أية جهة لا أتوقعها سوف تأتي.. وأحس الآن.. وقد فارقه حمدي منذ لحظة.. تاركة الباب موارباً، أنه يريد أن يخرج أكثر من أي وقت مضى.. لكن يا تري.. هل ستوافق.. لو عثر علي شقة في الزقازيق أو الإسماعيلية، وتنقل عملها.. وهي المعتزة بالمنصورة. واستعاد حماتها.. عندما مروا بالقرب من المعبر الذي استشهد عنده أحمد حمدي.. لم يكذب يذكر اسمه.. حتي سارعت وبعض زملاء الرحلة، قائلين في زهو:

- من المنصورة.

أتم الضابط المهندس أحمد حمدي مد المعبر. لحظ عبوات في الماء، في الطريق إليه. ركب طَوْفاً وأسرع لإبطال مفعولها. جاءت الطائرات محمولة لقصف المعبر.

حذره الضباط والجنود دون جدوى. انفجرت عبوة، وأصابته شظية. طالبهم بإخلاء المعبر، حتى تهدأ الغارات.

- الجنود وضباط الصف أولاً، يليهم صغار الضباط، ثم القادة.

اشتدت عليه الإصابة، فأسرع أحد الجنود لنجدته. اعترضه أحد القادة، وصمم في حزم على منع باقي الضباط، وتقديم غير مبال بالنيران.. حملة، وهو يلفظ الروح، وتردد برهة.. هل يذهب ناحية الغرب، أم ناحية

الشرق. لم يطل ترده، وذهب إلى الشرق.
ونجح طيار مصري في إصابة إحدي طائرات الشبح المغيرة، ورأوا
قائدها يقفز بالمظلة، قبل أن تنفجر، وبعد لحظات قفز الطيار المصري
لنفاد الوقود. التقى الاثنان علي الأرض. حمي الطيار المصري الإسرائيلي
من غضب من أحاطوا بهما. وسرعان ما حضرت هليكوبتر مصرية نقلتهما
إلى المستشفى.

دخلت الأم، حتى لا تتركه وحيداً، لحين انتهاء حمديّة، ولم يكن في
حالة نفسية، تسمح له بالتبسط في الحديث مع امرأة عجوز. قالت الأم:
- فتحوا باب التقديم في المساكن الشعبية، كلفت قريباً لي يعمل في
مجلس المدينة باستخراج ورقة أن البيت آيل للسقوط، فقد أخبروني أن
نسبة كبيرة مخصصة لهذه الحالات.
- هكذا.

واستمرت الأم:
- حمديّة بسلامتها مكسوفة، تروح تستلم الورقة من الإدارة
الهندسية.

عصته الكلمات. تطلع إلي وجهها وود لو يقبلها في جينها.
خيل إليه أنه سمع تزييقاً.. نظر إلي السقف.. عروق خشبية مقوسة إلى
أسفل.. لو كان السقف من الأسمنت لانهار من زمن..
انتبه إلي ضحكة حمديّة وقد وارت الباب، مشيرة له أن الطعام سيكون
جاهزاً بعد قليل..

حدث عطل في ياي الحركة في المدفع.. أبلغ الورشة وقائد الفصيلة..
لكنه لم يستطع أن ينام.. ربما طلبوا منه التحرك.. فكيف يعمل بهذا
المدفع.. كان الوقت ليلاً.. أحضر المدفع، ورغم عدم خبرته، فك الجزء
الخاص باليأي، ومديده ليكشف سر عدم رجوع اليأي. عامود طويل في
أسطوانة، تحبك عليه. خلعه وأحضر مبردا وبرده.. ما زال يعاكس. خلعه

ثانية، وبرده، حتى سهل حركته. جرب المدفع، وأعطى تمامًا لضابط
الفصيلة، الذي أبدى دهشته.

- حتى لا يكون موتى مجاناً.

كانوا وقتها فى تدريب على الماء فى بحيرة الفيوم. يأخذونهم من
الجبهة للراحة. لم يكونوا يريدون هذه الراحة التى تعني مشروعات.
محاضرات نظرية، وسحب على الماء.. أحياناً إلى حوالى خمسة وعشرين
كيلو متراً. ويأتي محكمون من الجيش لمشاهدة التجربة على الطبيعة.
مرة فى منطقة سحب إلى أسفل غرزت دبابة. تركوها وأنجزوا المهمة.
أحضروا دبابة جر فغرزت هى الأخرى. معهم فى الدبابات ألواح سميكة
من شجر الكافور، وضعوها تحت الجنزير، وأحضروا من بعض الدبابات
حبلاً من الصلب كانت معهم. طول كل حبل حوالى ستة أمتار، أوصلوها
ببعضها بعضاً. أوقفوا دبابة ثقيلة على الطريق أوصلوها بها الحبل. قامت
على السرعة الأولى، ثم نقلت بسرعة إلى الثانية. قفز لوح خشب بقوة
تزيد على خمسمئة حصان، اصطدم بحبل الصلب فقطعه، وكاد أن يهوي
عليهم، لولا تحركهم بسرعة.

كان المحكمون يثنون عليهم، ويطلبون المزيد، وأعلموهم أن
الإسرائيليين يقومون بتدريبات لصد الهجوم فى بحيرة طبرية.

وقفت حمدية الباب، تشير له أن ينهض، فأوماً لها أن تأتي..

ظن بحصوله على العمل أن مشاكله انتهت وإذا بها تبدأ. وضحك من
نفسه، حين ظن أن الحرب انتهت بالنسبة له فور انتهاء مهمتهم فى مضيق
سدر، وإذا بها تبدأ، وتنهال التكاليفات عليهم فى طريق العودة.
ضحكت حمدية، وفتحت الباب على اتساعه.



ذهب حمدي إلى سعد في شقته الجديدة بحى المساعيد ليبارك له حصوله عليها. وجد ندا هناك، وقد فرشت على كنبه فى المدخل، ملابس مطرزة باليد، وشيلانا وأعطيةً. تناول قطعة من الملابس. أخذته دقة التطريز، منمنمة بالخرز والخيط الملونين.

قالت ندا:

- أمى تجهز هذه الملابس، منذ طفولتي.

- تعيشين وتُذويين.

وهما يغادران، قال سعد:

- يعنى لو كنت قدمت معى على شقة

- حمار.

ضحك سعد، وأردف:

- ملحوقة.

وهما فى الطريق، ظل حمدي صامتًا.

- وراءك شئ.

- لمحت ذبابة فاكهة.

- رشة من رشك

- لو أفلتت واحدة، سوف تقرفنا بعد ذلك. خطرنا فى تعدد أجيالها،

وما تسببه من وخزات للثمر، تؤدى إلي تلفه، وسقوطه. وتنمو الفطريات مسببة العفن، ولم نكد نبدأ.

قال سعد ضاحكًا:

- اعمل محطة إنذار مبكر.

- ويشغلها الأمريكان..

اكتشف القمر الصناعي الأمريكي، تحركات غير عادية على الجبهة المصرية، قبل الحرب بيومين، وأندروا الإسرائيليين. ونفذ ديان خطة التعبئة. وكان يجمع عشرين ألف جندي كل عدة ساعات، عن طريق نداء، بالشفرة في الإذاعة والتليفزيون ومكبرات الصوت في الميادين العامة: 92 - 107 115 - 124 - 125 146.

ومع ذلك، وثب الجيش المصري وثبة هائلة بطول قناة السويس، وتشبث بالأرض.

ولم يأخذ السوريون برأي الفريق أحمد إسماعيل، وزير الدفاع المصري، بالوثب والتشبث، وعندما يستقر الوضع، يقومون بوثة أخرى، وهكذا. واندفعوا في المرتفعات السورية المحتلة، ليصلوا بسرعة إلي بحيرة طبرية، حيث السهل القريب، وحيث عرض إسرائيل لا يتجاوز ثلاثين كيلو مترا، ويمكن فصل شمالها عن جنوبها، ولو يطلق المدافع. وأثناء اندفاعهم تركوا جيوباً خلفهم، لم يُصَفوها. وحين أوقف اندفاعهم، تعبهم هذه الجيوب أيما تعب.

نظر إليه حمدي، وقال متنهدا:

- من الآن فصاعدا، علينا ألا نغفل لحظة واحدة.

وقال سعد:

- تقابلني عربات الأمريكيين العاملين في المحطة، بسرعة ملعونة علي الطريق، ولولا يقظتي لدهمتني.

ابتسم حمدي، وقد طن في رأسه الحوار الذي كان يدور عبر القناة.

- يا ديدي.

- نعم.

- ملعون أبوك.
- تُكرّر يومياً، إلي أن صحا ديدي مرة مبكراً:
- يا جمعة
- من ينادي
- ديدي
- ملعون أبوك
- وفي صباح السادس من أكتوبر، نوي جمعة أن يهنئ ديدي بعيد
كيبور، وهو عيد التكفير عن سيئاتهم، قبل استقبال العام الجديد. لكن
الأوامر صدرت في الصباح بالتزام الصمت. وبدا جمعة متضيقاً. ولما
دوت المدافع المصرية بعد الظهر، استعاد مرّحه وقال:
- كفرنا عن سيئاتهم.
- كان الوقت بعد العصر، وقبل أن يدلفا إلي المقهي، اقترح حمدي أن
يذهبا إلي المخزن ليتفقدوا رشاشات المبيد.
- لن نجد أحداً الآن.
- تَوَلّ ذلك غداً، مبكراً.
- هل نسيت الإشارة، بتوصيل بعثة حاخامات غداً إلي وسط سيناء،
للبحث عن قتلاهم.
- البحث سيعطلنا.
- لا أفهم اهتمامهم الزائد بأناس شبعوا موتاً.
- يعتقد اليهود أنهم لن يبعثوا، ما لم تنقل رفاتهم إلى مقابرهم وتتلي
عليها الصلوات.
- ضحك سعد، وقال:
- ولماذا نساعد على بعثهم.
- رد حمدي بسرعة:
- ليقرّفونا في الآخرة.

ضايقتهم الطائرات الإسرائيلية كثيرا، فى مواقعهم بالقرب من القناة. فى التاسع والعشرين من يونيو عام 70 بدأ زحف كمائن الصواريخ. قامت مجموعة بأعمال المناورة المكانية، تغير مواقعها كل يوم. وقامت مجموعة على حافة منطقة الأمان حول القاهرة فى خط مواز لقناة السويس. بعد تثبيت هذا الخط، تقدمت المجموعة الثانية حوالى عشرين كيلو متراً باتجاه الجبهة، وفى نهاية اليوم التالي، فكت المجموعة الأولى معدات محطاتها، وتقدمت بعد المجموعة الثانية بعشرين كيلو متراً، وهكذا تبادليا، حتى اقتربت من حافة القناة.

وبعد حلول مساء السابع من يوليو، مر قائد قوات الدفاع الجوي، ليتفقد القوات، وأحوال التشغيل، وليفزع الروح المعنوية. قال له نقيب: - لا يمكن لعدد من أطقم الصواريخ القليلة، أن تقابل طائرات إسرائيل كلها، ومن ورائها الإمدادات الأمريكية من سلاح وتكنولوجيا وطيارين وفنيين.. إن القتال فى هذه الحالة انتحار.

بعد عدة أيام حاولت إسرائيل، نطح جدار الصواريخ، فتساقطت طائراتها.

ومع أن حرب أكتوبر بدأت وخلف الجيش المصري خطان فقط من الأسلحة والذخيرة، بينما كانت خلف الجيش الإسرائيلى ستة خطوط من الأسلحة والذخيرة، إلا أنه وقت «الثغرة» كان لدى القوات الإسرائيلية المتسللة أربعمئة دبابة ولدينا ثمانيمئة دبابة، تحاصرها، وعندنا صاروخ ونصف لكل دبابة.

وقال الرئيس السادات لكسينجر:

- ليس أمامي قناة سويس لأعبرها، ولا خط بارليف لأنسفه (تكلف خمسة مليارات دولار، وشارك فى إنشائه خبراء أمريكيون وألمان). أنا عبرت ونسفت. أمامي التسلل، وسأصفيه فى لمح البصر.
رد كيسنجر:

- ساعتها سيضربك البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية).

وقال حمدي:

- أخشي إن وجدنا رشاشات صالحة ألا نجد المبيد اللازم. وليس هذا ما يقلقني علي أية حال. ما يقلقني تلويث التربة، وأخشي علي النحل. كان حمدي قد أحضر طردا من النحل، ليساعد في تلقيح زهور الفواكه، وأخبره اختصاصي نحل أنهم أحضروا ملكات نحل أمريكية، نتاجها عال.

راقب حمدي النحل وهم يشم رائحة العشب وشجر الفاكهة، ليرى مدي تألفه معها. وحين لاحظ كثرة أعداد النحل، خمن أن من خرج للاستكشاف، والتعرف علي معالم البيئة قد سمح للشغالات بالخروج للعمل.

ونصحه الاختصاصي أن يكون النحل يتيماً، فإذا لم يكن، عليه أن ييتمه من ملكته، حتى يتقبل الملكة الجديدة.

وضع حمدي الملكة الأمريكية في قفص صغير، بالقرب من الخلية لتعتادها النحل قبل أن تدخل إلى الخلية، وراعى أن يكون النحل مشغولاً، ليتقبلها حتي ينهي عمله.

- بنا نرى النحل.

اقتربا من غور قريب، بين أشجاره خلية النحل.

رفع حمدي الغطاء. تأمل الخلية والتفت إلي سعد دهشاً.

- ماذا

- تجاهل النحل الملكة الجديدة، وخرجت ملكة من أحد أقراص الشمع، تقود الخلية، والجميع في طاعتها.



لاحت العريش، بمبانيها ذات الدور والدورين، كعلب بيضاء، متناثرة بين أشجار النخيل، وقد تمايل جريدها. تراءت ندا لسعد، فتغلغلّت نسمة رقيقة بين حناياه، وتلهف لإخبارها أنه أحضر القطن، وبعض الملاءات وأغطية الفراش، من نسيج المحلة الكبرى.

والعربة نصف النقل تنزل الطريق، والسائق يهدئ السرعة، أفلتت من سعد:

- آخ...!

- خير..

- نسيت حافظة الأوراق في المحطة..

- بها شئ مهم

تفكر سعد قليلا..

- أبداً.. باستثناء البطاقة..

حين عودتي، سأوصى عامل المقصف أن يحفظها لك، إذا كان قد عثر عليها. فكر سعد أن يعود مع السائق، بعد إفراغ حمولته، لكن إحساسه بالإرهاق، جعله يعدل عن الفكرة.

كان عائداً للخلف في مأمورية، يوم 22 أكتوبر، وهو يوم لا ينساه. قالوا: وقف إطلاق نار. واستمر الإطلاق بقوة، أكثر من ذي قبل، كأن كل جانب يفعل ما في وسعه، قبل أن يتوقف فعلاً. طلب منه الجنود أن يحمل رسائلهم، وأعطوه ثمن تسجيلها بعد أن جمعوهم ممن معهم، فلم يكن تبقي مع أغلبهم نقود، فقبل العمليات توقف صرف المرتبات، حتي لا يستغلها الإسرائيليون، إذا ما عثروا عليها في ملابس أحد الموتى، في التسلسل بين

صفوفهم.

هل ينجح فى الوصول إلى السويس..

تسلل الإسرائيليون من الثغرة، وساروا فى طريق الجنانين. كان يتقدمهم بمسافة بسيطة، وأخبره جنودنا فى بعض المواقع التى مر بها، أن قوة إسرائيلية تسللت من الجنوب عند السخنة، وهدفهم أن تتقابل القوتان، فيتم عزل السويس عن قوات الجيش الثالث فى سيناء. غذا السير بالعربة، حتى يتمكن من تسجيل الرسائل وقضاء مأموريته فى توصيل مطروف خاص، مغلق بالشمع الأحمر، لمركز تابع لقيادة الجيش الثالث، بالمدينة.

اقترب من السواتر الترابية على شاطئ القناة فى مواجهة السويس. كان جنود من الجيش الثالث، ينشئون سواتر جديدة لتعزيز الموجودة، بعد أن احتلوها. وتنفس سعد براحة، عندما انطلقت مدافع الجيش الثالث، موقفةً تلاقي القوتين الإسرائيليتين، لتحفظ بمرر يصل السويس بسيناء، وسط حوض الدرس. سلم المطروف، وسجل الرسائل، وأسرع عائداً. أشار له طبيب ضابط، فأركبه معه.

أثناء السير، تعرف على جندي من وحدته. ناداه، فرفض أن يركب. هداؤه.. صعد.. جموع كثيرة من الأهالي تهرول.. وسمعوا حركة دبابات.. وحومت الطائرات المغيرة. قفز الجندي من العربة، وسعد يلاحقه: - عيب يا دفعة.

واري العربة فى منطقة الجنانين، وسارا بحذاء القناة، سعد يود الوصول إلي وحدته فى سيناء، والطبيب يود الوصول إلي كبريت. كان سعد قد أحضر جوالين، بهما فلفل وطماطم، فأكهة الجنود الذين ملوا التعيين الجاف، وبعض الخبز، فقد عافت نفوسهم البسكوت. أنزلهما من العربة، هو جوال، والطبيب جوال. لبدأ بجوار ترعة فى جانب من الطريق. مرت بهما عربة مسرعة، بها نساء وأطفال، فعرفا أن الإسرائيليين

قريبون. عادا إلى السويس، وقد تخليا عن الجوالين. عبرا خطوط السكة الحديدية، ودلفا إلي حي الأربعين. قابلا جنودا كثيرين، أغلب الظن كانوا في مهام وقطعت عليهم الطريق. انضموا إليهم. كانت معهم أسلحة خفيفة وقنابل يدوية. انبطحوا في أجناد الشوارع، وقذفوا الدبابات الإسرائيلية بالقنابل. وتسببت غارات الطائرات في وقوع المساكن القديمة فوقهم. بحث بعضهم عن الشوارع الضيقة، التي لا تستطيع الدبابات أن تمر منها، وتمترسوا مطلين علي الشوارع الواسعة. جاءهم بعض الجنود ممن عطبت دباباتهم ومعداتهم، وأخبروا أن الإسرائيليين قطعوا طريق السويس القاهرة، قبل هجومهم علي السويس، فحمدوا الله علي ذلك، فلو تركت الطريق مفتوحة، ما انضم إليهم هؤلاء الجنود. انطلقت دبابة إسرائيلية في الشارع وعادت بسرعة. وسرعان ما بدأ القصف.

وعندما هدا فوجئا بالبقر تجري في شوارع السويس. ضحكوا رغم إجهادهم، وقد خمنوا أن الإسرائيليين خشوا استخدامها، مخافة أن يكون المصريون قد حقنوها بمادة سامة. ساقوها من الجنان حتي وصلت إلى أبواب السويس. وكانت فرصة لهم، عاشوا علي لحمها أياما. توقف تقدم الدبابات الإسرائيلية، استدارت إلي الخلف، بعد تدمير بعضها، عطلت الطريق في مدخل المدينة.

وبينما يستعدون لاستقبال موجة جديدة من الدبابات الإسرائيلية، بعد أن سحبوا دباباتهم المعطلة، فوجئوا بوجود عربات صواريخ أرسلها الجيش الثالث. صاح الناس في الشوارع:

- الله أكبر.. الله أكبر..

ولاحت الفرحة في العيون، وقد أدركوا أن الجيش الثالث احتفظ بالمر بينه وبين المدينة. كف الإسرائيليون عن محاولاتهم دخول المدينة.

نام سعد يومها على بسطة سلم، مع أكثر من عشرة أشخاص، غير راغبين في اقتحام البيت، خوفا عليهم من السرقة، ومراعاة لحرمة.

وتسلل بعض الجنود إلى خطوط الاسرائيليين، وكانوا يحضرونهم أحياء. مرة أحضروا، حدثاً، وقال له جندي معهم يتحدث الإنجليزية:

- يا بني.. لا نتعامل مع أطفال.

واستطاع بعضهم إحضار أجولة من الدقيق.. كيف أفلتت رغم شدة القصف. هل تركوا هذا المخزن عمداً، ليستنفدوا الماء القليل، الباقي معهم فى عجنه..

سحابة من القلق غشت الوجوه.. الخبز مقدور عليه.. أما الماء.. وإذا بموجات من الأهالي، تجوب الشوارع، وهتافاتهم تتعالى:

- الله أكبر.. الله أكبر.

استطلع سعد الخبر، فرد عليهم بعضهم بسرعة:

- بئر الأربعين.

ولما كان غريباً عن المدينة، فلم يفهم. عرج إلي أحد المقاهي. وجد صاحبه مستبشراً، يصنع الشاي، ويوزعه علي رواده مجاناً. لمح الجندي الذي تحدث بالإنجليزية، سأله، فرد بسؤال:

- الدفعة من أين..؟

- من الصعيد

- غريبة..

نظر إليه مستطعاً، فقال:

- أربعون صعيداً، فروا من الفرنسيين عندما غزوا مصر بقيادة نابليون،

وجاءوا إلى هنا. وجدوا الفرنسيين يحاصرون بئر عجرو، وكانت تشرب منها السويس وقتها. اشتركوا مع الأهالي فى فك الحصار عنها، وها هي نفس البئر تعود. حين هداً الجو، شرع سعد فى العودة إلي سيناء. سمعوا زيطة بالقرب من القناة. كويتي من لواء اليرموك ألقى بنفسه فى الماء، يسبح باتجاه البحيرات المرة، لينال من الإسرائيليين، قفز وراءه بعض المصريين. أخرجه وهدأوه.

وصلت قوة من الكويت، لتحل محل قوتهم، التي كان مقرراً عودتها على دفعات. وسأل هذا الجندي زميل له إذا كان يود أن يبلغ أهله بشئ لأنه سيغادر في اليوم التالي. شنت الطائرات الإسرائيلية غارة على الموقع. وتم ترحيله في اليوم التالي، لكن في تابوت.

أوقف عربة بها بعض الجنود، ودلهم علي طريق أسفلتي، كانوا قد غطوه بالرمال، حتي لا يستخدمه الإسرائيليون. كان نصيب الفرد كوب ماء وكوب دقيق، يجتمعون معاً، كل خمسة أو ستة أفراد، يحضرون إحدى فلنكات السكة الحديدية، من أحد حصون خط بارليف، يكسرونها، ويشعلونها، ويضعون فوقها قطعة من الصاج، لإنضاج الخبز، وتسخن ما معهم من معلبات الأرز والخضراوات باللحم. وعندما كانوا يقرفون من المعلبات، يشككون في رواية سعد عن جوال الخضراوات، ويتهمونه ببيعه للإسرائيليين.

ورغم الهدوء الظاهري في الجبهة، كان التوتر يشملهم، متوقعين، أن يندلع القتال بين لحظة وأخرى، لتصفية قوات الثغرة.

سافر الرئيس الجزائري هواري بومدين إلى موسكو، وعقد صفقة بتمويل من السعودية، لشراء خمسمئة دبابة، سرعان ما دعمت حصار القوات الإسرائيلية في الغرب، دون الحاجة إلي سحب دبابات مصرية من الشرق. ووضعت الخطة لتصفية الثغرة، ولم يبق إلا صدور الأمر بذلك، وغلق الفجوة بين الجيشين الثاني والثالث قبالة البحيرات المرة، التي عبروا منها، وهي لا تتعدى أربعة عشر كيلو متراً، مما يقطع خطوط مواصلاتهم وتموينهم الطويلة عبر سيناء إلي قواتهم في الغرب، ويحكم الحصار حولهم.

وبينما هم في انتظار الأمر بذلك، وصل هنري كيسنجر مساءً إلى إسرائيل قادماً من مصر، ومعه مسودة اتفاق فك الاشتباك، وطلب ديان وزير الدفاع الإسرائيلي، مهلة، وأن يعدل فقرة، كي يبدو الأمر أن مجلس

الوزراء الإسرائيلي، اجتمع وناقش، أفهمه كيسنجر أنه يود الانتهاء من هذه الاتفاقية بسرعة. طلب ديان الانتظار حتى الصباح، كي يبدو منظرهم مقبولا أمام الناس في إسرائيل، فكان له ما أراد.

وقفت العربية أمام بيت ندا. عزم سعد علي السائق بشدة، أن يستريح، ويتناول لقمة، لكنه اعتذر بضيق وقته، ونظرا للإلحاح، اكتفى بكوب من الشاي. وعند انصرافه، ذكره سعد بالحافضة، وهو يعجب، كيف نسيها.

كانا في العربية، في انتظار العبارة، لتقلهما إلي الضفة الشرقية، وأمامهما صف كبير من العربات عند المعبر، بالقرب من الصالحية. وحتى يلحق بهما الدور في العبور، ذهبا إلي مقصف المعبر، ليرطبا حلقيهما بمشروب مثليج، فجأة تجمع رواد المقصف، من راكبي عربات الأجرة والخاصة، حول بعض السياح الإسرائيليين، وأحد المصريين يصيح غاضبا.

عندما صعد السياح إلي الباص، احتل صبي إسرائيلي مقعد صبي مصري. حاول هذا أن يجلس في مقعده دون فائدة. دفع الصبي المصري، الإسرائيلي، وجلس. زاحمه الإسرائيلي، دون جدوي، فقد ترسب المصري ولم يتحرك.

صاح الصبي الإسرائيلي مغیظاً:

- خمسة يونیو.

رد الصبي المصري:

- ستة أكتوبر.

بكي الصبي الإسرائيلي.

وبدلاً، أن يجلس أهل الصبي الإسرائيلي، الولد معهم، كما كان قبل التوقف، نزلوا إلي المقصف، وطلبوا الشرطة ليأخذوا المقعد من الصبي المصري.

رفض الصبي، ورفض أبواه، وسبوا السياح الإسرائيليين، وهاجوا علي الشرطي، الذي أراد مراضاة الإسرائيليين. وحين وجد الشرطي الدفة دارت ناحيته، أراد أن يقصر الموضوع، فصاح في المصريين:

- خلاص.. قال خمسة يونيو.. ورد عليه ستة أكتوبر.. انتهينا.

-لم ننته..

أطلقت العبارة صفارتها بتنغيم، أسرعوا جميعاً إلى العربات، للحاق بها. كرر سائق العبارة تنغيمه. وتجاوب معه سائقو العربات:

- ستة أك.. توبر.. ستة أك.. توبر..

انزلت العبارة علي سطح الماء، وقد اندمجت أبواق العربات في إيقاع واحد:

- ستة أك.. توبر.

وتذكر سعد، ما سمعه من الباشمهندس حمدي، أن سائقي العربات في صغره،

كانوا ينغمون بأبواقها: يحيا النحاس.. باشا.

أبطأت السفن المارة في قناة السويس، من جنسيات مختلفة، من سرعتها، لتسمح للعبارة بالمرور، وهي تطلق صفاراتها بالتحية، بينما انتظم الإيقاع:

- ستة أك.. توبر.

